الدين والثورة في مصر

١٩٥٢ - ١٩٨١

دكتور حسن حنفي



اليسار الإسلامي والوحدة الوطنية



الناشر: مكتبة مدبولي - القاهرة

الدين والثورة في مصر ١٩٥٢ - ١٩٨١

٨- اليسار الإسلامي والوحدة الوطنية

دكتور حسن حنفي

الناشر
مكتبة مدبولي

ماذا يعنى اليسار الاسلامى

١ ـ الاسم والشعار :

كتابات « اليسار الاسلامى » استمرار لمجلة « العروة الوثقى » ولجريدة « المنار » نظرا لارتباطها بالمشروع الاسلامى كما حدده الافغانى : مقاومة الاستعمار والتخلف ، والدعوة الى الحرية والعدالة الاجتماعية ، وتوحيد المسلمين فى الجامعة الاسلامية أو الجامعة الشرقية . « اليسار الاسلامى » تكملة اذن لاول مشروع اسلامى فى تاريخنا الحديث عبر عن واقع المسلمين واحتياجاتهم السياسية والاجتماعية . لم ينشأ فى فراغ ؛ وليس بدعة فى الحركات الاسلامية ولو أنه يبدو لاول وهلة كذلك بعد أن خبأ مشروع الافغانى وتناقص وتقلص فى جريدة « المنار » بل تراجع أحيانا بعد ذلك فى مجلات الوعظ والارشاد وجرائد الدعوة الى سبيل الرشاد . ولكن اسم « العروة الوثقى » يخاطب قلة من المثقفين على وعى بالحركة الاسلامية الحديثة وليس اسما يخاطب جماهير المسلمين . بالاضافة الى أن « العروة الوثقى » توحى بالامة الواحدة والرابطة الدينية العميقة التى تربط الامة جمعاء . ومع أن ذلك صحيح من حيث المبدأ « لو أنفقت ما فى الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم » (٨ : ٦٣) ؛ وأيضا « وان هذه أمتكم أمة واحدة » (٢٣ : ٥٢) ،

اليسار الاسلامى ، العدد الاول ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الا أن « اليسار الاسلامى » يركز على التمايز فى الامة الاسلامية الواحدة بين الاغنياء والفقراء ، بين الاقوياء والضعفاء ، بين القاهرين والمقهورين ، بين من يملكون كل شيء ومن لا يملكون شيئا ، بين من يوجدون ومن لا وجود لهم ، تمايز بنص القرآن وببداهة المشاهدة . فالامة لدينا وكما هو الحال أيضا عند الافغانى أمتان: حكام ومحكومون، قادة وشعوب ، علية وسفلة . ولما كانت مأساتنا فى وجود الطرف الاول وغياب الطرف الثانى ، وسيطرة الطرف الاول واستغلال الطرف الثانى فان « اليسار الاسلامى » يركز على الطرف الثانى ، ويعبر عن الاغلبية الصامتة المقهورة بين جماهير المسلمين ، يدافع عن مصالح الناس ، يأخذ حقوق الفقراء من الاغنياء ، وينصر الضعفاء على الاقوياء ، ويجعل الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى والعمل الصالح .

كان يمكن تسميتها « المنار الجديد » ولكن الاسم أيضا لا يعلمه الا المهتمين بالحركات الاصلاحية خاصة السلفيين منهم . مع أنه قد يوحى أيضا بمعانى النور والهدى لعامة الناس الا أن « المنار » القديم قد خبتت فيه الثورة ، وهدأت فيه روح الافغانى ، وتحولت فيه الثورة الاسلامية الى نمط سلفى ، وانتهت حركة الاصلاح الدينى الى ما بدأت منه عند ابن تيمية . « اليسار الاسلامى » يعود الى الافغانى من جديد ويبث ناره ، ويحيى رماده ، ويبعثه من رقاده ، ثورة فى العقول والاذهان ، وثورة فى الواقع والاعيان .

وكان يمكن تسميتها « صحوة الاسلام » أو « يقظة الاسلام » وكلاهما يدل على صحوة المسلمين ويقظتهم حاليا وهو ما أصبح موضوع

حديث العالم كله شرقا وغربا الا فى العالم الاسلامى السنى باستثناء مجلة « الدعوة » التى يصدرها « الاخوة فى الله » • ولكن التسميتين مازالتا تشيران الى الوعى الاسلامى الذى بدأه الاصلاح الدينى والذى يود « اليسار الاسلامى » تحويله من الوعى الفردى الى الوعى الاجتماعى ، ومن ثورة العقل الى ثورة الواقع(١)• أما أسماء « النهضة الاسلامية » و « البعث الاسلامى » و « الوعى الاسلامى » فانها تدل كلها على الثورة الداخلية أكثر منها على الثورة الخارجية فى حين أن « اليسار الاسلامى » يود اقامة الثورتين معا • أما « قضايا اسلامية » فانه يشير أيضا الى مجرد قضايا فكرية تعالج موضوعات نظرية دون أى هدف عملى وهو ما يريد « اليسار الاسلامى » تجاوزه • أما « الاسلام المعاصر » أسوة بمجلة « المسلم المعاصر » فانه اسم يشير الى المعاصرة التى قد تكون فى الفكر وفى العلم وفى الفن ولكنه لا يشير الى الثورة أى معاصرة الاحداث الثورية وجعل المسلمين جزءا منها • أما أسماء « الموعظة الحسنة » وغيرها من الاسماء التى تدل على الوعظ والنصح والارشاد والهداية مثل « الموقف » ، « الهدى » ، « الفرقان » ، « البشير » ، « النذير » « البيان » فكلها دعوات أخلاقية يغلب عليها الطابع الصوفى لا تتجاوز خطب الجمعة وليس بها فكر أو ثورة ، ولا تحدث أى أثر فى جماهير المسلمين ان لم تحدث أثرا مضادا فى التخدير والتسكين والايهام بالخلاص •

---

(١) انظر مقالنا : من الوعى الفردى الى الوعى الاجتماعى • فى المجلد التذكارى المهدى الى المرحوم الدكتور عثمان أمين ، ص ٤١١ — ٤٦٦ ، دار الثقافة ، القاهرة ١٩٨٠ .

أما أسماء « التقدم الاسلامى » أو « الحركة الاسلامية » فانها تشير ولا شك الى البعد الثورى فى الاسلام ، والاصل كله « ثورة الاسلام » التى تظهر من خلال ثورة المسلمين ترجيحا للجانب الايديولوجى للثورة • صحيح أن ثورة الاسلام لا تظهر الا من خلال أوضاع المسلمين التى تهىء للثورة ولكن الثورات الاسلامية المعاصرة أرجعت ثوريتها الى الاسلام وحركته الذاتية • ومع أن الاسم الاصلى « ثورة الاسلام » قد يدل أيضا على ثورة فى العقائد أو فى الاخلاق أو فى الشرائع والنظم دون تحقيق الثورة فى الواقع ، ومع أنه قد يشير الى مجرد تغيير فى الوضع القائم دون تحديد لاتجاه الثورة ومسار التغير ومع أنه اسم يقبله جميع الناس ويتفق مع هدف اقامة وحدة وطنية بين التيارات الاسلامية والثورية ، لا يخشاه المثقفون الوطنيون ، الا أنه قد يكون اسما خطابيا اعلاميا ، لا يخاطب العقل ، ولا يتحدد بالعلم ، ولا يشير الى شىء محدد ولكنه أقرب الى العامة ، ويخاطب كل الناس ، ويرضى عنه الجميع(٢) •

---

(٢) بعد الاستقرار على اسم « اليسار الاسلامى » بالرغم من كل الاعتراضات المذكورة حوله والاستعداد للدخول فى معارك فكرية دفاعا عن الاسم فى مواجهة مخاطره واستعدادا لتحمل خسائره من أجل تطهير الالفاظ فى ثقافتنا الوطنية حدث أثناء زيارتى الى أفغانستان والجمهوريات الاسلامية بالاتحاد السوفيتى أن الاسم لم يثر شيئا فى أذهان المسلمين . فبالرغم من وجود ثورة بأفغانستان تنتسب الى أيديولوجية الطبقة العاملة الا أننى أدركت أن لفظ اليسار لا يثير الاذهان الا فى المجتمعات الليبرالية التى تعى معركة الافكار والصراع بين اليسار واليمين على انه مظهر من مظاهر حرية الفكر والحياة الديمقراطية ، ولا يثير شيئا فى المجتمعات المتخلفة التى تحولت من الاقطاع الى الثورة دون أن تمر بمرحلة ليبرالية تنويرية . كما لم يثر الاسم شيئا لدى مسلمى الاتحاد السوفيتى لانهم

وقد فرض اسم « اليسار الاسلامى » نفسه الى حين • فهو الاسم الذى يدل على التيار الذى تمثله هذه الكتابات • وهو اسم علمى • فاليسار مصطلح فى علم السياسة يعنى المعارضة والنقد وبيان المسافة بين الواقع والمثال • وهو أيضا مصطلح فى العلوم الانسانية بوجه عام • فهناك اليسار الفرويدى فى علم النفس ، واليسار الهيجلى فى الفلسفة ، واليسار الدينى فى علم تاريخ الاديان • فهـو لفظ علمى وليس له أى مدلول سياسى بمعنى الاثارة الحزبية ، وتهييج الجماهير • هذا بالاضافة الى أنه يطابق واقع المسلمين الذين تنقسم حياتهم بين حكـام ومحكومين ، أمراء وشعوب ، أغنياء وفقـراء ، واليسار الاسلامى يأخذ صف المحكومين والمضطهدين والفقراء والمعذبين وبالتالى فهو يمثل اليسار بالمعنى العلمى •

ولكننا نعلم أن الاعتراض سيأتى من فريقين • سيقول « الاخوة فى الله » ان الاسلام ليس به يسار ويمين بل هو اسلام واحد وأمة واحدة واله واحد(٣) • وهو اعتراض ينصب على المبدأ ولا ينصب على

=

سلفيون اهل سنة ، ولا يعرفون استحداث الالفاظ ، ولا تخاطب اذهانهم الا آيات القرآن والاحاديث النبوية . بل ان لفظ الاسلام كان يثيرهم أكثر مما كان يفعل لفظ « ثورة » . لذلك آثرت « ثورة الاسلام » . ولكن بعد مدة ، وبعد العودة الى مصر التى تتمتع بتراث ليبرالى طويل منذ القرن الماضى عاد « اليسار الاسلامى » من جديد واضعا نفسه كمفهوم علمى مستقر فى العلوم الانسانية ومعبرا عن المضمون الفكرى لهذه الكتابات بالرغم من جميع الاعتراضات عليه والتساؤلات حوله .

(٣) د. عماد الدين خليل : لعبة اليمين واليسار ، دار الاعتصام ، القاهرة ١٩٧٧ .

الواقع أى على الاسلام من حيث هــو عقيدة وليس واقع المسلمين من حيث هم مجتمعات ودول ، وطبقات وملاك • ونحن لا نتحدث عن الاســلام بل نتحدث عن المسلمين فى واقع تاريخى محدد وفى نظم اجتماعية محددة • ومادمنا فى التــاريخ والزمان فنحن فى ميــدان الصراع والحركة وتعارض المصالح وصراع القوى وتفاوت الدخول • وعلى هــذا المستوى هناك يسار ويمين • ومع ذلــك فالتصورات المختلفة للعقائد كما مثلتها الفرق الاســلامية بها يسار ويمين على ما يثبته علم اجتماع المعرفة ، فالمعتزلة يسار والاشــاعرة يمين • والفلسفة بها يسار ويمين ، فالفلسفة العقلانية الطبيعية عند ابن رشد يســار ، والفلسفة الاشراقية الفيضية عند الفارابى وابن سينا يمين • والتشريع به يسار ويمين ، فالمالكية التى تقوم على المصالح المرسلة يسار ، والفقه الافتراضى عند الحنفية يمين • وفى التفسير ، التفسير بالمعقول يسار والتفسير بالمأثور يمين • وفى التاريخ فى الفتنة الكبرى ، على يسار ومعاوية يمين ، والحسين ســيد الشهداء يســار ويزيد والامويون يمين(٤) • وسيقول دعاة القانون والنظــام فى كل عصر الذين يرفضون التغير نحو الافضل ابقاء على الاوضــاع القائمة بما فيها من تسلط سياسى وسيطرة اقتصادية وأوضاع طبقية انهــا لعبة اليمين واليسار لتفريق الامــة وبث الفرقة واضمار الضغائن واثارة الفتن ، فاليسار خائن كافر ، ملحد عميل ، دموى زنديق ،

---

(٤) احمد عباس صالح : اليمين واليسار فى الاسلام . المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٢ .

د. محمود اسماعيل : الحركات السرية فى الاسلام ، روز اليوسف ، القاهرة ١٩٧٣ .

حقود لا يحب الخير للناس • والحقيقة أن ذلك أثر من آثار الاستعمار الثقافى فى بلاد المسلمين حين أراد تشويه الالفاظ والمصطلحات والافكار عمدا حتى لا يقترب منهــا أحد مثل الحرية ، والديمقراطية ، والشعب ، والصراع •• الخ • ومنها اليســار حتى يأمن الاستعمار أى تحركات شعبية أو حركات اجتماعية تنادى بالتحرر من الاستعمار والقضــاء على الاستغلال ، وهو ضامن لدخول الحيلة على « الاخوة فى الله » نظرا لما يرى فيهم من حمية للدين وكراهية لاعداء الدين ! ونحن نعلم أن اصرارنا على اسم « اليسار الاسلامى » قد يفقدنا المضمون من أجل الشكل خاصــة وأنه لا مشاحة فى الالفاظ سواء « باسم الله » أو « باسمك اللهم » ومع ذلك فان تطهير الالفاظ وتخليصها مما علق بها من سوء استعمال وتشويه عن عمد جزء من الدفاع عــن ثقافتنا القومية ضد الاستعمار الثقافى والتعصب الاعمى • وقد قامت كثير من الحركات الفكرية فى التاريخ بفضل الاسم ، وارتبطت المذاهب الفكرية ارتباطا وثيقا بأسماء معينة لا يمكن استبدالها ، وقــد علم الله آدم الأسماء كلها حرصا على الاسم • وأمامنا حاليا الصهيونية التى ترفض حتى أن تسكن فى مكان عليه اسم فلسطين أو فوقه علم فلسطين أو به منظمة تحمل اسم فلســطين • والله نفسه له أســماء حســنى(٥) •

---

(٥) كان الرأى قد استقر على اسم « ثورة الاسلام » بعد أخذ الاعتراضات على اسم « اليسار الاسلامى »مأخذ الجد ولكن فى عزاء لاحد الاقرباء جاء ذكر الوضع الحالى والازمة الاقتصادية والفســاد والانحراف والناس تسمع القرآن • وجاء ذكر خطباء المساجد الذين يستولون على مشاعر الجماهير بالآلاف • كما جاء ذكر المدح والثناء على الحكام واختفاء المعارضة. وهنا صاح أحد المعزين بجلباب أزرق : نريد « اليسار الاسلامى » • وهنا أدركت مدى تعبير الاسم عن واقع المسلمين ومدى قبول الشعب له وإن

وكان لابد لنا من شعار • وكان أمامنا خياران : الاول شعارات علمانية صرفة مثل « يا مسلى العالم اتحدوا » وآيات قرآنية تحث المسلمين على أخذ مصائرهم بأيديهم والدفاع عن مصالحهم • وكان الخيار للآية القرآنية أقرب الى التأثير فى نفوس جماهير الامة • وكان أمامنا نوعان من الآيات : آيات الكتاب الحق والهدى مثل : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق » (٤٥ : ٢٩) • فلنلتجأ هنا الى المنقول و « اليسار الاسلامى » اتجاهعقلانى يعتمد على المعقول • أو « أفمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع » (١٠ : ٣٥) والهداية علمناها فى حركاتنا الاصلاحية الاخيرة ، و « اليسار الاسلامى » يريد تجاوز الهداية اللدنية الى تغيير الواقع الفعلى بفعل جماهير المسلمين • وكان أمامنا آيات الجهاد مثل « فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة » (٤ : ٩٥) أو « فضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما » (٤ : ٩٥) ولكنها أصبحت ضمن شعارات الثورة الاسلامية الكبرى فى ايران • الذى يحز فى أنفسنا هو أن خير أمة أخرجت للناس تنتهى الى مثل ما انتهت اليه من استعمار وتخلف ، ونحن لدينا كل مقومات الامة فكرا ومادة ، وحياة وثروة ،

=
الاسم لا ينفر احدا ولا يخيف انسانا • وحين سألته هل يرضى بكتابات اسلامية تاخذ حقوق الفقراء والمضطهدين تحمل هذا الاسم وهنا هب الحاضرون يعبرون عن تزييف الوعى القومى يعلنون أن اليسار مرفوض وأن المعارضة الاسلامية افضل • ويعبر آخر عن اتجاه « الاخوة فى الله » متسائلا : وهل فى الاسلام يسار ويمين ؟ وهنا ادركت أهمية تطهير الثقافة الوطنية من زيفها وبقايا الاستعمار الثقافى والتعصب الدينى ، وأن الشعب قادر على الدفاع عن الاسم الذى يعبر عن طبيعته ومصالحه ، ولئن يهدى الله اليك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها •

وعددا وأرضا ، ومع ذلك نجد أنفسنا مستضعفين فى الارض ، مغلوبين على أمرنا ، لا دور لنا فى التاريخ بعد أن كنا صناع حضارة ، ومعلمى البشرية ، ومصدر العلم والعرفان . لذلك آثرنا الآية الكريمة « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمــة ونجعلهم الوارثين » (٢٨ : ٥) . فالاستضعاف فى الارض حافزنا على الثورة ، ووراثة الارض وامامتها هو أملنا وغايتنا .

٢ — السبب والتوقيت :

وقد حان ظهور « اليسار الاسلامى » بعد أن حققت بعض مناهج تحديث مجتمعاتنا فى عدة أجيال ماضية منذ أكثر من قرنين من الزمان نجاحا نسبيا بينما فشـــل البعض الآخر خاصة فيمــا يتعلق بمواجهة التخلف والقضاء على مظاهره . أولا الاتجاهات الدينية التى قدر لها أن تصل للحكم حولت الاســـلام الى شعائر وطقوس ، وعقــائد وأخرويات فى حين أن الواقع الاسلامى ظل مخالفا لنظم الاســـلام وكأن الاسلام الشعائرى المظهرى ما هو الا ســـتار يخفى موالاة الغرب والاقطاع العائلى ورأسمالية العشيرة . أما الاتجاهات الدينية الاخرى الى لم تصـــل الى الحكم بالرغم من سعيها لذلك فقد غلبها التعصب وضيق الافق وتكفير الاتجاهات التحديثية الاخرى ، تسعى الى السلطة وتمارس جدل الكل أو لا شىء . كما يغلب عليها النظرة الالهية والتصور المركزى والهرمى للكـــون ، وتغيب منها النظـــرة الانسانية وتصـــور التاريخ وحركة المجتمعات . ثانيا ، الاتجاهات الليبرالية التى قدر لها أن تحكم قبل الثورات العربية الاخيرة كانت موالية أيضا للغرب كثقافة وان عادته كاستعمار ، وكانت تقـــوم على أكتاف الطبقات العليا التى كانت تسيطر على موارد البـــلاد . فوقعنا

فى التغريب ثقافة ، وكنا ضحية الاستغلال والاحتكار اقتصادا ، وظلت جماهير المسلمين خارج الساحة لا تظهر الا فى لحظات الثورات الوطنية. ثالثا ، الاتجاهات الغـربية الماركسية أرادت أن تقيم نظـاما يحقق العدالة الاجتماعية ويناهض الاستعمار ولكنه لم يحقق الحرية لجماهير المسلمين ولم يطور تراثهم بحيث يكون ضمانا لتحقيق أهدافهم فى الاستقلال الوطنى . وقد وقع البعض منها فى تبعية للقوى الكبرى المماثلة ، وانزوت عن باقى جماهير المسلمين حتى ناصبته العـداء . تبغى أمنها ، وتبحث عن استقرارها ، وتتحفز على معارضيها ، وأصبح همها البقاء والاستقرار . رابعا ، الاتجاهات الوطنية الثورية الاخيرة التى أحدث تغييرات جذرية فى أبنية مجتمعاتنا السياسية والاقتصادية ولكنها سرعان ما انحسرت ، وانقلب البعض منهـا الى ثورة مضادة ، ولم يؤثر غالبيتها فى وعى الجماهير ، وظلت على مستوى الشـعار . بل ازداد الواقع الاسلامى تأزما ، ونشأت طبقات متوسطة تقـوم بدور مجتمع النصف فى المبـائة دون أن تعى دورها فى التحديث بل وتعارض أى مناهج تحديثية أكثر جذرية وتحاول تغيير الواقع الفعلى وتعطى للشعارات مضامينها الفعلية(٦) . يأتى « اليسـار الاسلامى » كى يحقق أهداف الثورات الوطنية ومبادىء الثورة الاشتراكية وذلك من خلال تراث الامة واعتمادا على وعى الجماهير الاسلامية وبالتالى تتحقق أهداف حركاتنا الثورية الاخيرة دون مثالبها وأوجه نقصها .

---

(٦) أنظر مقالتنا : نشأة الاتجاهات المحافظة فى وطننا العربى الراهن ، قضايا عربية ، يناير ١٩٨٠ — وأيضا التراث والتجديد ، موقفنا من التراث القديم ، المركز العربى للبحث والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

و « اليسار الاسلامى » أيضا نتيجة حتمية لنجاح الثورة الأسلامية الكبرى فى ايران أمام دهشة العالم أجمع ، كيف استطاعت الجماهير الاسلامية الوقوف أمام أعتى النظم العسكرية البوليسية واسقاط نظام الشاه باسم الاسلام وبقوة « الله أكبر قاصم الجبارين » وتحت شعار « وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما » (٤ : ٩٥) . وبدت كأنها نموذج آخر للثورة فى مقابل الثورتين الكبرتين الفرنسية والبلشفية ، وأصبحت نموذجا لما تكون عليه ثورة العقائد فى أواخر القرن الرابع عشر . و « اليسار الاسلامى » كذلك نتيجة لتحركات المسلمين فى أفغانستان والملايو والفلبين وباكستان ، ونتيجة لثورة الجزائر حيث ظهر الاسلام كتراث وطنى للبلاد يحفظ للمسلمين أصالتهم ، ويبقى على هويتهم ، ويدافع عن مصالحهم ، ويحرك الجماهير الاسلامية فى كل مكان(٧) .

و « اليسار الاسلامى » درع جديد للاسلام وحصن منيع للمسلمين ضد محاولات الاستعمار الاخيرة لاحتواء ثورات المسلمين وجعله الاسلام عقيدته الاستراتيجية يحتويها قبل أن تحتويه . تبدو ثورة الاسلام الآن كأنها الخطر الاكبر على القوى العظمى . فقد تتحرك جماهير المسلمين فى روسيا والصين اذا ما كشفت عن ولائها فى العمق ، وهو الولاء الحضارى الذى يجب كل ولاء سياسى . وقد تتحرك الجماهير فى جنوب شرقى آسيا التى حاصرها الاستعمار

---

(٧) انظر طبعتنا لكتاب الامام الخمينى : الحكومة الاسلامية ، المقدمة ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، وكذلك كتابه الثانى « جهاد النفس او الجهاد الاكبر » المقدمة ، القاهرة ١٩٨٠ .

وأراد النيل من اسلامها بعد أن اكتشف فيه الضمان الاول والاخير ضد عمليات التغريب ومحاولات التبشير وهجمات الاستعمار . والعجيب أن يقبل الاتحاد السوفيتى التعامل مع الشاه ، ويرى فى الثورة الاسلامية الكبرى فى ايران خطرا جاثما عليه ، ويغزو أفغانستان. وكما بدأ الاستعمار فى النيل من العالم الاسلامى من أطرافه بالالتفاف حوله بعد أن فشل فى ضرب وسطه أبان الحرب الصليبية بدأ الدم يسرى فى هذه الاطراف من جديد ، ودبت الحياة فيها تبعث فى القلب ذاته . ولما أحس الاستعمار بثورة الاسلام أراد احتوائها ، فتخلى عن الشاه ، وتعامل مع الثورة الاسلامية العظمى فى ايران ، وخاطب ودها . بل ودعا رؤساء الكنائس فى جنوب شرقى آسيا الدول هناك الى احترام المسلمين والاعتراف بحقوقهم ، وتعظيم دينهم ، والاستجابة الى مطالبهم ، وتأييد ثورتهم . ومن يدرى فلربما خصص مركز الاستخبارات الامريكى قسما خاصا منه لاحتواء ثورات الاسلام المعاصرة واللعب على الاسلام ضد الشيوعية . وقد آن الاوان للتحذير من عداء الشرق والغرب معا لثورة الاسلام وان أظهرا العكس ، وأن هذه الثورة ستكون القوة الحقيقية أمام القوتين العظميين . و « اليسار الاسلامى » هو أيديولوجية هذه الثورة للمسلمين .

و « اليسار الاسلامى » أيضا تطوير الاصلاح الدينى الذى بدأناه فى المائتى سنة الاخيرة ليس فقط على مستوى مواجهة مخاطر العصر : الاستعمار والاقطاع والرأسمالية والتخلف الاجتماعى والقهر السياسى كما هو الحال عند الافغانى بل أيضا على مستوى اعادة بناء الفكر الدينى الاصلاحى ذاته . فلاول مرة منذ ابن رشد فى الفلسفة ، والمعتزلة فى أصول الدين ، والشاطبى فى أصول الفقه ،

وابن خلدون فى التاريخ ، وابن تيمية فى الفقــه تعاد صياغة الفكر الدينى • فابتدأنا البعد عن الاشاعرة ، الفكر الدينى الرسمى الذى ازدوج من التصوف وأصبح أساسا للسلطوية فى تصــورنا للعالم وللتسلطية فى أنظمتنا للحكم وللسلبية فى ســلوك جماهيرنا التى تنتظر المدد والعون والالهام من السماء(٨) • ونقترب من المعتزلة عند محمد عبده معلنا قدرة العقل على الادراك واستقلال الارادة فى السلوك • فأصبح الانسان قادرا بعقله على المعرفة ، وقادرا بارادته على الفعل • ونستمر فيما بدأه الكواكبى فى البحث عن أسباب الفتور بين المسلمين من أجل تجنيدهم والبحث عن طبائع الاستبداد من أجل تحرير المسلمين• ونحن نرث أيضا محمد اقبال ومحاولاته فى « تجديد الفكر الدينى فى الاسلام » والبحث عن عناصر الحركة فى الاسلام فى الاجتهــاد والتجربة والكشف عن الذاتية حتى يصبح كل مسلم فردا ، وبنــاء حضارة الامة ، وتحدى الحضارة الغربية ونقدها وبيــان حدودها ومظاهر قوتها وضعفها ، واعادة الحياة والفعل للتوحيد كما يقــول اقبــال •

قــوة كان فى الحيــاة على الارض
فأصــبح التوحيــد علــم الكــلام
رده فى الفعــــال غــــير مضــىء
جهلنــا اليــوم مالنــا من مقــام

---

(٨) انظر مقالنا « الجذور التاريخية لازمة الحــرية والديمقراطية فى وجداننا المعاصر » المستقبل العربى ، يناير ١٩٧٩ •

قـائد الجيش ! قـد رأيت غمـودا
من « هو الله » ما بهـا من حسام

مـا درى الشـيخ أن توحيد فكـر
دون فعـل يعـد لغـو كـلام

يـا امـاما لركعـة كيـف تـدرى
فى الـورى مـا امامـة الاقـوام

كما ينتسب الى المفكر الاسـلامى الثورى « على شريعتى » ومحاولاته لبناء الذات الثورية والذى فجر الثورة الاسلامية الكبرى فى ايران تحت قيادة الامام الخمينى(٩) . كما أن « اليسار الاسلامى » ينتسب الى الحركات الاسلامية المعاصرة : السنوسية ، وثورة عمـر المختار فى ليبيا ، والمهدية بالسودان ، ورابطة العـلماء الجزائريين بالجزائر ، وثورة الريف بالمغرب ، وعبد الحميد بن باديس ، وعبد الكريم الخطابى ، والشهيد حسن البنا وسيد قطب ، والشـهيد عبد القادر عودة ، يجمع بين ثورة الواقع ضد الاستعمار وثورة الفكر ضد التخلف . « اليسار الاسلامى » استئناف للحركات الاسلامية الثورية المعاصرة وتنظير لها .

وان نهاية القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر لحدث يعاصره جيلنا ويدفعنا الى التفكير فى التاريخ ، فى الماضى والحاضر

---

(٩) أنظر د. ابراهيم شتا : الثورة الايرانية . الجذور والايديولوجية ، بيروت ١٩٧٩ .

والمستقبل . و « اليسار الاسلامى » مساهمة فى هذا الحدث ، ومحاولة لنقل المسلمين من قرن الى قرن ، ومن مرحلة الى مرحلة ، من التخلف الى التقدم ، ومن الاستعمار الى التحرر ، ومن اســتغلال الموارد ونهبها الى سيطرة جماهير المسلمين عليها ، ومن الاقطاع العشائرى ورأسمالية الطبقات المتوسطة الى اشتراكية جماهير الامــة . ومن القهر والتسلط الى الحرية والديمقراطية . ان بداية القرن الخامس عشر لتحمل دلالة جديدة بالنسبة للمسلمين ، وهو دخولهم فى حركة التاريخ بعــد الثورة الاسلامية الكبرى فى ايران واثبات جمــاهير المسلمين لنفسها ، وأخذها حقوقها بأيديها . وفى نفس الوقت تكمن ثروات المسلمين فى أيدى الاغنياء . فاذا ما حصــل المسلمون على الثورة والثروة فان العالم يكون لهم . حينئذ ، لا يمن الله على الذين استضعفوا فى الارض ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين . وقد يكون من بيننا مجدد القرن الخامس عشر طبقا لحديث المجددين « ان الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » .

٣ — احياء تراثنا القديم :

ويتأصل « اليسار الاسلامى » فى الجوانب الثورية فى تراثنـــا القديم ، وبالتالى تكون مهمته احياء هذه الجوانب وابرازها وتطويرها وتصفية ما دونها حتى تتأصل ثورة المسلمين وتزول عقبات تقدمهم . يجمع تراثنا ثلاثة أنواع من العلوم : العلوم النقلية العقلية مثــل علم أصول الدين وعلم أصول الفقه وعلوم الحكمة وعلوم التصوف ، والعلوم العقلية وحدها مثل علوم الرياضة والفلك والطبيعة والكيمياء والطب والصيدلة والاحياء ، والعلوم النقلية وحدها مثل علوم القرآن والحديث والسيرة والفقه والتفسير .

ففى علم أصول الدين « اليسار الاسلامى » تيار اعتزالى فى الفكر الدينى يرى أن المعتزلة كانت تمثل ثورة العقل وعالم الطبيعة وحرية الانسان ، وأن التوحيد أقرب الى المبدأ العقلى الخالص من الكائن الحى المشخص كما تصوره الاشاعرة ، وان التنزيه يعبر عن طبيعة العقل أكثر من التشبيه ، وأن التوحيد بين الذات والصفات أقرب الى العدالة من التمييز بينهما • كما يرى أن الانسان حر مسئول صاحب أفعاله ، له استطاعة قبل الفعل ومع الفعل • ويرى أن العقل يحسن ويقبح ، وأن الحسن والقبح ذاتيان فى الشىء قائمان بالافعال ، وأن العالم يسير نحو غاية ، ويتبع قانون الصلاح والاصلح ، وأن الجزاء قدر الاعمال ، وأن الايمان يقرن بالعمل ، وان امامة المسلمين بالاختيار ، وأن الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض على المسلمين • يتفق « اليسار الاسلامى » اذن مع أصول المعتزلة الخمسة ، لذلك يحاول احياء التراث الاعتزالى بعد أن تم القضاء عليه منذ القرن الخامس الهجرى ، منذ هجوم الغزالى على العلوم العقلية وسيادة التصوف وازدواجه مع الاشعرية حتى حركاتنا الاصلاحية الاخيرة ووضع بدائل جديدة أمام الاشعرية السائدة • فنضع الاعتزال ونحن ندعو الى العقلانية والحرية والسيادة على الطبيعة والديمقراطية • كما نضع الخوارج ونحن ندعو لثورة المسلمين وعدم التفريط فى نيل حقوقهم واستعادة ثرواتهم ، وندعو الى أن العمل شرط الايمان حتى يعمل المسلمون ويتحقق نداء الاصلاح « ما أكثر القول وأقل العمل »(١٠) ، وندعو الى المساواة وأنه لا فضل لعربى على عجمى

---

(١٠) تاريخ الاستاذ الامام ، الجزء الثانى ص ٩٨ — ١٠٣ .

الا بالتقوى ، ونضع الشـيعة أيضا فقد حاورهم أهل السنة بالرغم من أننا لم نعرف عقائدها الا من خلال كتب أهل الســنة التى لم تكن مجردة عن الهوى والتعصب ، ونعيد فهمنـا لهم بعد أن قاموا بالثورة الاسلامية الكبرى فى ايران ودعوا الى اثبات الهوية الأسلامية ومقاومتهم الاستعمار والصهيونية ورفضهم التخريب والعلمانيـة . واقتربوا من أهل السنة وتركوا المغالاة القديمة فى عقائد الشيعة(١١) . نضع أمام العقل الاسلامى كل البدائل حتى أبعدها كما كنا نفعل قديمـا فى عصرنا الذهبى فى القرن الرابع الهجرى وحتى لا تظـل الاشعرية مفروضة علينا تاريخيا أكثر من تسعة قرون وواقعيا حتى الآن كأنها هى الفكر الدينى الوحيد فى تراثنـا وكأن التخلف الذى ســادنا منذ القرن السابع الهجرى حتى الآن ليس هو المسئول عن هذه السيادة للفكر الاشعرى حتى أصبح فكرنا الدينى أحادى الطرف تتمثله السلطة السياسية . فأى خروج عليه هو خروج على النظام ، كفر والحاد ، عمالة وخيانة . « اليسار الاسلامى » اذن اتجاه اعتزالى فى العقيدة بل أنه ينتسب الى أصـحاب الطبائع معمر بن عباد ، وثمامة ابن الاشرس ، والجاحظ ، والنظام الذين ردوا الى الطبيعة اعتبارها ، وأثبتوا قوانينها ، وجعلوا الاعراض فيها لا تنفك عن جواهرها لان ما يعيب عصرنا انكار الطبيعة ، وادانتها ، وخرق قوانينها ، وجعلهـا مطيـة للقوى الخارجية ، ننتظر المعجزات ونتلمس خوارق العادات . « اليسار الاسلامى » اتجاه اعتزالى جذرى وليس اتجاها اعتزاليا

---

(١١) أنظر مقدمتنا لكتاب الامام الخمينى : الحكومة الاسلامية ، القاهرة ١٩٧٩ . وكذلك مقدمتنا لكتاب « جهاد النفس أو الجهاد الاكبر » القاهرة ١٩٨٠

تشوبه الاشعرية سواء عنـد المعتزلة الاوائل (البغداديون) أو عند المعتزلة الاواخر (الماتريدية) ، يرد للمعتزلة اعتبارهم التاريخى ، ويرفع عنهم تهم الكفر والالحاد .

و « اليسار الاسلامى » اتجاه مالكى فى الفقه والاصول وذلك لان ما نوعد اليه من مصـالح مرسلة ودفاع عن مصالح المسلمين قد أكدته المالكية التى خرجت من عبد الله بن مسعود الذى خرج بدوره من عمر بن الخطاب امام المجتهدين والمدافع عن مصـالح المسلمين والعارف بها حتى قبل نزول الوحى ثم يأتى الوحى لتصديق رؤيته للواقع الاسلامى . ليس « اليسـار الاسلامى » مدرسة فقهية جديدة بل يعيد الاختيار بين المدارس الفقهية القديمة فيرى أن المالكية أقرب الى الواقع ، وتستطيع أن تعطى مجتهد اليوم جرأة على التشريـع دفاعا عن مصالح الناس دون الفقه الحنفى الذى غلبت على بعض جوانبه المسائل الافتراضية ودون الفقـه الشافعى الذى عليه أهل مصر لانه محاولة للجمع بين المالكية والحنفية ، بين أهل الحجاز وأهل العراق ، فنصفه مالكى — « واليسار الاسلامى » يذهب الى الاصل ذاته أى المالكية ذاتها ـ ودون الفقـه الحنبلى الذى ارتبط بالاصول الاولى معتمدا على قوتها ونحن أقرب الى اساءة استعمال النصوص فى غـير مواضعها ، ولا نحسن تخريج مناطها أو تنقيحه . ومـع ذلك لا يفرق « اليسار الاسلامى » بين مذهب فقهى ومذهب آخر ، ونرجع بالمسلمين الى أصـول الاسلام الاولى . لقد اجتهد القدماء ونحن نجتهد ، فهم رجال ونحن رجال . جرأتنا على الواقع ودفاعنا عن مصـالح المسلمين أسوة بمالك ، واعتزازنا بالعقل والاستدلال أسوة بأبى حنيفة ، وجمعنا بين العقل والواقع أسوة بالشـافعى ،

وارتباطنا بالاصول أسوة بأحمد بن حنبل ، ترى فى النص بداهة العقل ورؤية الواقع . مهمة « اليسار الاسلامى » أيضا اعادة النظر فى كل التشريعات الموروثة . فما كان فى الكتاب والسنة الصحيحة قبلناه لان الشرع يقوم على المصلحة ، وقبوله هو قبول لمبدأ المصلحة ، وما سوى ذلك اجتهدنا فيه . فاجماع كل عصر قد لا يكون ملزما للعصر الذى يليه نظرا لتجدد الظروف والاصول ، واجماع كل عصر ملزم لعصره فقط ، والاجتهاد مفتوح فى كل العصور . اننا فى قضايانا الشرعية خاصة فى قانون الاحوال الشخصية نرجح القانون على الواقع ، ولا نحكم بالمصلحة وهى أساس التشريع . ومن هنا كان التزامنا بمالك بن أنس وبمبدأ المصلحة كأساس لنصوص القرآن والحديث ولاجماع الامة واجتهاد الفقهاء . نجعل الاجتهاد ، وهو الاصل الرابع ، أصلا أولا يلحق بالاصل الاول ، وهو القرآن « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق » (٤٥ : ٢٩) .

و « اليسار الاسلامى » اتجاه رشدى فى الفلسفة لان ابن رشد هو الفيلسوف الذى لم يساوم على العقل من أجل الاشراق كما نفعل نحن فى أيامنا هذه ، ولم يستسلم لخرق قوانين الطبيعة من أجل اثبات قوى خارجية كما يحدث فى جيلنا هذا . لقد بدأت الفلسفة القديمة عند الكندى عقلية علمية ترى الفلسفة أساس الدين ، تسيطر على قوانين الطبيعة وتسخرها لمصلحة الانسان ، فنشأت الاتجاهات العقلية والعلمية والطبيعية وهى أساس نهضة المجتمعات . ولكن لسوء الحظ تحولت الفلسفة الى اشراقية طوباوية عند ابن سينا والفارابى ، وأصبح العقل قاصرا عن ادراك حقائق الامور ، يحتاج الى مدد من السماء والى الاتصال بالعقل الفعال . وأصبح الوحيد القادر

على ذلك هو الرئيس الملهم الذى يطيعه باقى الناس وينفذون أوامره • وتم تقسيم العالم الى قسمين : ما فوق فلك القمر وما تحت فلك القمر وللاول سلطة على الثانى • وكل شىء يحدث على الارض تحدده دورات الافلاك وحركات النجوم • وتمت قسمة الانسان أيضا الى قسمين : بدن فان موضوع الطبيعيات وروح خالد موضوع الالهيات ، وضاعت وحدة الانسان الحى الواقعى فى العالم • ومشاكلنا نحن ، مشاكل الغذاء والاسكان والمواصلات والامراض والنظافة والكساء تأتى كلها من البدن الفانى ، وكسلنا وتواكلنا ورضانا وعزاؤنا كل ذلك يأتى من الروح الخالد • أصبحت الفضائل النظرية أعلى وأشرف من الفضائل العملية ، فالتأمل والنظر أفضل من العمل والانتاج وهو ما نشكومنه فى مناهج تعليمنا ومن تحرجنا من المدارس الفنية والمعاهد العملية وعدم تقديرنا للعمل اليدوى • ضاعت الفلسفة فى سبيل التصوف عند الفارابى وابن سينا حتى أتى ابن رشد وأعاد الى العقل مكانته والى الطبيعة استقلالها ، وهاجم علم الاشعرية وعلوم التصوف ولكنه كان صحوة مؤقتة لم تتلها يقظة دائمة ، ولم تستمر محاولته فى ايجاد بديل لعلم الاشعرية ، وظل وعينا الحضارى أحادى الطرف ، نمطى الاتجاه • ومازلنا فى جيلنا هذا نكفر ابن رشد ! وهنا يأتى « اليسار الاسلامى » ليربط نفسه بالتيار العقلى العلمى فى الفلسفة الاسلامية الذى بدأه الكندى وسار فيه ابن رشد •

ويرفض « اليسار الاسلامى » التصوف ويعاديه ويرى أنه أحد أسباب انحطاط المسلمين كما لاحظ ابن تيمية والكواكبى والامام الخمينى عندما سماهم بالمتقدسين • فقد نشأ التصوف كحركة سلبية ضد تيار البذخ والترف والتكالب على السلطة والصراع على الدنيا

بعـــد أن فشلت المقاومة الفعلية من فرق المعارضة من أئمة آل البيت ابتداء من على والحسين سيد الشهداء • فلما استتب الامر للدولة الاموية وتم استشهاد آلاف من المسلمين بقيادة الائمة والصحابة رفض المخلصون الانغماس فى الدنيا التى سببت الفرقة وسالت دماء المسلمين بسببها ، فتركوا العالم لمن يريده ، وتركوا الدنيـــا بمن فيها على من فيها ، وحاولوا انقاذ النفس ان لم يستطيعوا انقاذ الآخرين ، وأبقوا على نقاء الروح الباطنية ان لم يستطيوا المحافظة على النظام الشرعى فى العالم الخارجى • فتحول الاسلام لديهم من حركة أفقية فى التاريخ الى حركة رأسية خارج العالم ، وبدل أن يكون الاســلام غاية فى التاريخ أصبح غاية خارج التاريخ ، وبدل أن يكون الاسلام شريعة ينفذها المسلمون جميعا أصبح حقيقة لاصحاب الطرق وحدهم • وقد انقسم هذا الطريق الى ثلاث مراحل : الاولى الاخلاق التى تظهر فى القيم السلبية مثـــل الزهد والفقر وما سمى المقامات ، والثانية مرحلة النفس التى يتحول فيها الصراع الخارجى الى صراع داخلى بين الاحوال مثـل الخوف والرجـــاء ، الصحو والسكر ، الغيبـــة والحضور ••• الخ ، والثالثة مرحلة الفناء والاتحـــاد بالله عن طريق الخيال والوهم وهنا ينتهى الطريق الصوفى ، والعالم باق لم يتغير ، وكأن النصر قد تم ، والدولة الاسلامية قد قامت • أما حالنا اليوم فان الامر يختلف تماما • فالمقاومة ليست أمرا ميئوسا منـــه ، وأغلبنا من القاعدين الذين فضل الله عليهم المجاهدين ، وانقـــاذ النفس دون الآخر أنانية وتخلى عن الرسالة ، وخلاص النفس دون العالم عجز وهروب • والمسلمون اليوم جزء من حركة التـــاريخ ونضال الشعوب • كما أننا نعانى من القيم السلبية مثل الفقر والخوف والجوع فكلنا فقراء وخائفون وجياع • أزمتنا الفقر ، وبليتنا الخوف ، ولا أمان

لنـــا من الجوع ، ولیس لدینا ما نزهد فیه • والصبر جعلنا ساكنین فی كل شیء ، والرضا جعلنا راضین بكل شیء ، والتوكل جعلنا نترك التخطیط والاعـــداد للمستقبل • أما الفنـــاء والاتحاد فقد أغرقانا فی الخیـــال ، فعشنا عالما من الامانی والمنی والاحلام ، نری أننـــا خیر أمة أخرجت للناس ، وأننـــا أزهی حضارة ظهرت فی التاریخ ، وأننا أفضل شـــعوب الارض قاطبة • والواقع مختلف تماما فلا نحن نأمر بالمعروف وننهی عن المنكر حتی نكون خیر أمة ، ونحن أمة یحتل أرضها الاجنبی ، وینهب ثروتها الملوك والامراء • ان الفنـــاء یعنی الفناء فی العمل والتضحیة فی سبیل الرسالة ، والاتحـــاد یعنی تطبیق شریعة الله ، وحكم الله ، وتحویل الوحی الی نظام للعالم بالفعل وبالجهد ومن خلال حركة المسلمین فی التاریخ •

ویجد « الیسار الاسلامی » مصادره أیضا فی العلوم العقلیـــة الخالصة فی تراثنا القدیم • فقـــد قامت هذه العلوم بفضل العقل ، واستطاع التنزیه أن یعطی العقل دافعـــا نحو اللانهائی ، فاكتشف القدماء كثیرا من النظریات الریاضیة فی الحساب والجبر والهندســـة والفلك • كما استطاعوا بفضل احترام الطبیعة واطراد قوانینهـــا الكشف عن كثیر من النظریات العلمیة فی الطبیعة والكیمیاء وعلوم البحار والارض والاحیاء والطب والصیدلة والتی ظلت الی عهد قریب مســـاویة لحضارة العـــالم ومادة العلم الحدیث • یود « الیســـار الاسلامی » أن ینقل علمنا القدیم من مرحلة الی مرحلة حتی لا نظل ناقلین اكتشافات الغـــیر ، فالعلم هو اعمال للعقل ونظرة للطبیعة ، ولیس هو نتاج العلم وتطبیق قوانینه ونقل أســـالیبه من بیئة الی بیئة • كما یرتبط « الیسار الاسلامی » بالعلوم الانسانیة التی أسسها

القدماء مثل علوم اللغة والاداب والجغرافية والتاريخ وعلم النفس والاجتماع خاصة ونحن مازلنا فى عصرنا نكرر ما قاله القدماء فى اللغة دون معرفة أسسها وأبنيتها النظرية • نحاول الكشف عن التاريخ من خلال الرواية فى علم الحديث ، وشرع من قبلنـــا فى علم الاصول ، والنبوة والمعاد والامامة فى علم أصـــول الدين ، والمراتب الالهية فى علوم التصوف ، ومراحل التاريخ فى كتب الطبقات أو تاريخ السنين • ونضع قانونا جديدا لتاريخ الشعوب الاسلامية خـــلاف قانون ابن خلدون الذى وصف فيه دورة الشعوب الاســـلامية الاولى من نشأة وتطور واكتمال وانهيار فى مراحلها الاربعة • فقد عاصر ابن خلدون نهاية الدورة الاولى للشعوب الاسلامية ونحن نعاصر بدايات الدورة الثانية التى ظهرت منذ القرنين الماضيين فى الاصـــلاح الدينى • مهمتنا تحويل الاصـــلاح الى نهضة حضارية شاملة لاحياء تراثنا القومى ، وتحريك الشـــعوب الاسلامية حتى تأخذ مصائرها بيدها وتكون جزءا من حركة التاريخ ، تصب ماضيها فى حاضرها نحو مستقبلها(١٢) •

ويرتبط « اليسار الاسلامى » أيضا بالعلوم النقلية الخالصة علوم القرآن والحديث والتفســـير والفقه ، وهى العلوم الاولى التى نشأت حول الوحى • ويجد الدلالات المعاصرة لبعض فروع علـــوم القرآن مثل « أسباب النزول » التى تعنى أولوية الواقع على الفكر ، وعلم « الناسخ والمنسوخ » الذى يعنى التطـــور فى التشريع طبقا للاهلية والقدرة ، وعلم « المكى والمدنى » الذى يعنى التصـــور

---

(١٢) انظر مقالنا : جمال الدين الافغانى، قضايا معاصرة (١) ص ٩١ ـــ ١١٠ دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٧٦ •

والنظـــام ، العقيدة والشريعة ، النظر والعمل • وهى العلوم التى يمكن لنا تطويرها الى علوم الواقع مثل الاحصاء والعلوم الاجتماعية ، وعلوم التاريخ ، والايديولوجيات والنظم السياسية والاقتصادية •

وفى علم الحديث يهمنا اعطاء الاولوية للمتن على السند • فقد بلغ القدماء مبلغا من العلم بالرجال لم نبلغه نحن ولكننا نستطيع أن نتفوق عليهم فى نقد المتن بحيث يتفق مع العقل والبداهة ومجـــرى العادات والمشاهدة وهى بعض شروط التواتر • نستطيع أن نقـــوم بالنقد الداخلى بعد أن أبدع القدماء فى النقد الخارجى ، خاصـــة وأن شعورنا القومى قد تشكل فى معظم مادته من الاحاديث دون أى نقد داخلى والتى تعتمد فى معظمها على المشهور أو المرسل أو المقطوع أو الضعيف أو أخبار الاحاد • والمتواتر منها موجود أصله فى القرآن • يهمنا أيضا اعطاء الاولوية لمعانى الحديث على شـــخص المتحدث ، وبالتـــالى الرجوع بعلم السيرة من شخص الرسول الى أقوال الرسول حتى لا نقلد أهل الكتاب فى كتاباتهم سير أنبيائهم حتى نسوا تعاليمهم فأخذوا الاشخاص وتركوا الكلمات •

أما علوم التفسير فان « اليسار الاسلامى » يتجاوز التفســـير التاريخى الذى وقع فيـــه أغلب المفسرين وكأن القرآن يتحدث عن وقائع مادية فى زمان ومكان معينين عن طريق جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات حول حوادث ماضـــية • بل نؤسس التفسير « الشعورى » الذى يجعل القرآن وصفا للانسان وعلاقاته بالآخرين ووضـــعه فى العالم ومكانه فى التاريخ ، يقيم مجتمعا ، ويؤسس دولة طبقا لما وصل اليه جيلنا من علم وخبرة ، نخاطب به عصرنا ، ونســـير اثر تفسير الامام الشهيد سيد قطب فى « ظلال القرآن » • ونتجاوز أيضـــا

التفسير « الطولى » سورة سورة وآية آية فنتفرق الموضوعات وتتكرر ، ونؤسس التفسير الموضوعى بضم الآيات كلها حول موضوع واحد ثم بناء الموضوعات كلها حتى يمكن بناء التصور الشمولى الاسلامى العالم حول الانسان ونظام المجتمع وكيان الدولة • ونقيم التفسير الثورى للقرآن ، ونحول علم العقائد الى أيديولوجية ثورية ، ونجد الصلة بين الله والارض كما يعرفها القرآن فى « اله السموات والارض»، « رب السموات والارض » ، « وهو الذى فى السماء اله وفى الارض اله » (٤٣ : ٨٤) حتى نستطيع تحرير أراضى المسلمين باسم الله فى مواجهة صهيونية ربطت بين الله والارض فى عقيدة « أرض الميعاد »، وبعد أن أسس أهل الكتاب فرعا فى لاهوتهم سموه « لاهوت الارض »(١٣) • نربط بين علم العقائد وثقافة الجماهير ، ونجد الصلة بين التوحيد ووحدة الامة ، وبين النبوة وحركة التاريخ ، ونكتشف فى الوحى الاسلامى الانسان والتاريخ ، الثورة والارض ، الحركة والزمان حتى لا يعيب علينا أحد سكوننا وتخلفنا ، ويجعل حضارته وحدها حضارة الانسان والزمان ، والتاريخ والحركة •

أما علوم الفقه فاننا نعطى فيها الاولوية للمعاملات على العبادات• لا نهتم بأحكام الظراط وحلق عانة الميت فلسنا فقهاء الحيض والنفاس كما يقول الامام الخمينى • بل نهتم بأحكام البيع والشراء ، بالجهاد والقتال ، وبنظم الاجتماع والسياسة والاقتصاد ، ونزيد عليها أحكام الاسلام ومواقفه فى مواجهة الاستعمار والصهيونية والرأسمالية

---

(١٣) انظر مقالنا : « لاهوت الارض » فى كتابنا « الحوار الدينى والثورة » (بالانجليزية) ص ١٢٥ — ١٧٣ مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٧٧ .

والتخلف • كما أننا نعيد تفسير العبادات وبيان الحكمة منها اذ أننا نمارسها كطقوس ، ونقوم بها وكأنها غايات فى ذاتها فى حين أنها وسائل تتحقق منها غايات ، ومن يأتى الوسيلة دون أن يحقق الغاية فكمن لا صلاة له ولا صوم ولا حج ولا شهادة • فالشهادة عندنا لا تعنى تمتمة الشفتين بأنه لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله وكأنها قضية عددية فى عدد الآلهة وعدد الانبياء بل الشهادة لدينا شهادة على العصر أى رؤية أحداثه ثم الاعلان عنها والحكم عليها من خلال منظور الشرع ، فالشهادة من المشاهدة وليس من التخفى والتعمية والتستر على ما يدور فى واقعنا أو شهادة الزور خوفا وجبنا أو طمعا ورغبة كما يحدث فى أيامنا هذه ، وغالبا ما تؤدى هذه الشهادة بمعنى مشاهدة ما يجرى حولنا الى الشهادة الفعلية ، ويكون صاحبها شهيد قوى الظلم والطغيان • وتبدأ الشهادة بالنفى « لا اله » ، نفى قوى الطغيان والآلهة المزيفة ومتكبرى العصر ثم الاثبات « الا الله » وحده قاصم الجبارين • أما الصلاة فهى تعطى الاحساس بالوقت والعمل فى الزمان على الفور وليس على التراخى أو قضاء ونحن شعوب تتهم بأنها لا تعرف للزمان قيمة وتعيش خارجه • أما الزكاة فهو الاشتراك فى الاموال بين من يملك ومن لا يملك فى شعوب مأساتها غنى الاقلية وفقر الأغلبية • أما الصوم فهو الاحساس بالآخر وبآلام الجوع والعطش وليس بأوجاع الشبع وبآلام التخمة • أما الحج فهو اشتراك المسلمين جميعا مرة كل سنة على الاقل لتدارس أمورهم ، فهم أمة واحدة كما أن ربهم واحد لا أمة متفرقة ذات أرباب متفرقة ، ينهش بعضها لحم بعض •

ان ما نبغيه اذن هو نهضة حضارية شاملة تبرز جوانب التقدم

فى تراثنا القديم وتستبعد منه معوقاته • « فاليسار الاسلامى » ليس مقولة سياسية على ما يبدو لفظ « اليســار » ولكنه مقولة حضارية على ما يبدو من لفظ الاسلام • يعنى « اليسار الاسلامى » ابراز مواطن التقدم فى التراث من عقلانية وطبيعية وحرية وديمقراطية وهو ما نحتاجه فى قرننا هذا ، ويكشف عن بعدين غابا عنا فى تراثنا القديم وسببا أزمتنا فى وعينا المعاصر أعنى الانســان والتاريخ • فقد غلفنا الانسان واستلبناه خارجا عنا فى كائن مشخص أو قانون مجرد فعشنا الآخر خارج عالمنا وفقدنا أنفسنا ودنيانا(١٤) •

٤ ــ تحدى الحضارة الغربية :

ويمثل « اليسار الاسلامى » تحديا للحضارة الغربية وبديــلا عنها • فان كان الافغانى قد نبه من قبل على الاستعمار العســكرى المتمثل فى الاحتلال وكنا فى أوائل القرن قد أدركنا مخاطر الاســتعمار الاقتصادى المتمثل فى شركات الاحتكار الدولية كما حاولنا التنبيه على مخاطر الاستعمار الثقافى بلفظ كل شىء ســوى مقولات الدين فان « اليسار الاسلامى » ينبه على مخاطر الاستعمار الحضارى أى تفريغ الحضارة من داخلها عن طريق القضاء على انتســاب الامة لها حتى تجتث جذورها التى تمدها بأسباب حياتها وبدوام اســتمرارها • « اليسار الاسلامى » يدافع عن جماهير الامة الاسلامية من داخلهــا

---

(١٤) انظر مقالنا : ماذا تعنى شهادة أن لا اله الا الله محمدا رسول الله فى الجزء السابع : اليمين واليسار فى الفكر الدينى . وأيضا : لماذا غاب مبحث الانسان فى تراثنا القديم ، قضايا عربية ، أكتوبر ١٩٧٧ . وأيضا فى « دراسات اسلامية » . ودراستنا : الاغتراب الدينى عنــد فيورباخ ، عالم الفكر ١٩٧٩ وفى « دراسات فلسفية » .

ومن تراثها ويقف فى وجه التغريب الذى يهدف أساسا الى القضاء على الثقافات الوطنية وزرع أخرى بديلا منها حتى تتم الهيمنة الحضارية للغرب على الشعوب التاريخية التى ان كانت متخلفة اليوم بمقاييس التنمية الغربية فانها مازالت تحتفظ بعناصر قوتها بمقاييس حضارتها الخاصة •

مهمة « اليسار الاسلامى » تحجيم الغرب أى رده الى حدوده الطبيعية والقضاء على أسطورة عالميته بعد أن جعل نفسه مركز الثقل الحضارى فى العالم ، وأراد توريد نمط حضاراته لغيره من الشعوب تنسج على منوالها ويكون نموذج تقدمها كوسيلة للسيطرة عليها والقضاء على استقلال شخصيتها حتى لا تسيطر على مقدراتها ومواردها وتتركها نهبا للشعوب الاوربية • مع أن الحضارة الغربية تراكم حضارى طويل من كل الشعوب التاريخية انصب فيها فى النهاية وورثتها ثم حولتها الى عنصريتها الدفينة فجعلت حضارتها النموذج الاوحد وما سواها تخلف وبدائية لابد من القضاء عليها حتى تلحق جميع الشعوب بنموذج الحضارة الاوحد هذا • أصبحت عصور الحضارة الغربية عصور كل حضارة • يبدأ الغرب بحضارة اليونان التى نهل منها ويقتص كل ما سبقها من حضارات شرقية فى الصين والهند وايران ومصر • ويعتبر عصره الوسيط عصر ظلام وتخلف ويحكم عليه بالجذب والتوقف وهو أزهى عصورنا الاسلامية ، وعصرنا الذهبى فى دورتنا الحضارية الاولى • ويسمى العصور الحديثة ، القرون الخمسة الاخيرة ، ويعتبرها قمة الحضارة من عصر احياء فى القرن الرابع عشر ، واصلاح دينى فى الخامس عشر ، ونهضة فى السادس عشر ، وعقلانية فى السابع عشر وتنوير فى الثامن عشر وعلمية فى التاسع عشر الى أزمة حضارية فى

العشرين • هذه العصور الحديثة بالنسبة لنا تمثل فترة ركودنا وتوقفنا وازدواج الاشعرية والتصوف فى وعينا(١٥) • وقد تكون أزمة القرن العشرين بالنسبة لنا بداية نهضتنا الثانية وبدايات احيائنا واصلاحنا الدينى • مهمة « اليسار الاسلامى » رد الحضارة الغربية داخل حدودها الطبيعية وبيان محليتها ونشأتها طبقا لظروفها الخاصة وتاريخها الخاص ونوعية دينها وطبائع شعوبها حتى يمكن فك الحصار حول حضارات الشعوب غير الاوربية وبيان خصوصيتها واثبات هويتها حتى تتعدد نماذج الحضارات وتتنوع طرق التقدم •

مهمة « اليسار الاسلامى » رد الحضارة الغربية داخل حدود الغرب بد أن انحسر الاستعمار وارتدت قواد العسكرية أيضا داخل حدوده ، وجعله موضوع دراسة خاصة من الحضارات غير الاوربية بل وانشاء علم جديد مقابل « الاستشراق » القديم (دراسة علماء الحضارة الغربية للحضارات غير الاوربية) يكون هو « الاستغراب » أى أخذ الحضارة الاوربية موضوع دراسة مستقلة كموضوع • بل ان « الاستشراق » ذاته يعبر عن طبيعة العقل الاوربى ونظرته للعالم والبواعث الدفينة فى الوعى الأوربى أكثر مما يكشف عن الحضارات موضوع الدراسة هندية أو صينية أو فارسية أو اسلامية أو افريقية• ولقد أضعنا كثيرا من الجهد والوقت فى تفنيد أحكام المستشرقين على الحضارة الاسلامية مدافعين عن أنفسنا وعن أصالة تراثنا فى حين أنه يمكن هدم الاستشراق كله من أساسه بارجاعه الى الوعى الاوربى

---

(١٥) انظر مقالنا : موقفنا الحضارى ، قضايا معاصرة (١) ص ٤٦ — ٥٠ ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٧٦ •

وأخذه « موضوع دراسة » بدل أن يكون هو « دراسة موضوع »(١٦)، واسترداد حضارتنا الاسلامية من نتيجة التراكم الحضارى لديهم فى العصور الحديثة • فربما الاصلاح الدينى والنهضة والعقلانية والتنوير والعلمية ربما كان هذا هو الاسلام كما يبحثون عنه بجهدهم الانسانى الخاص والذى تراكم لديهم اثر ترجمات الحضارة الاسلامية ابان العصر الوسيط والذى نحاول نحن أن ننقله أحيانا أو نعاديه أحيانا أخرى دون أن نعيد اكتشافه فى تراثنا أو نشأته فى تراثهم •

يمكن اذن دراسة الحضارة الاوربية كموضوع خاص مستقل من ناحيتين : تطورها وبنائها • ولما كان التطور عادة نتيجة للبناء ، فالتطور يكون تطور الشىء الا أن الحضارة الاوربية بدأت تطورها قبل بنائها وأصبح بناؤها نتيجة لتطورها • واذا كانت الحضارات نوعان : مركزية تدور العلوم فيها حول مركز واحد مثل الحضارة الأسلامية ، وطردية تخرج العلوم منها رد فعل على المركز ونفيا له ، فان الحضارة الاوربية تكون من النوع الثانى •

يبدأ الغرب بتحديد نشأة وعيه فى أصلين اثنين : الاصل اليونانى الرومانى والاصل اليهودى المسيحى وينسى الاصل الثالث وهو البيئة الاوربية ذاتها بكل ما فيها من معطيات جغرافية وبشرية وحضارية والذى يضم عادات الشعوب وتقاليدها وجغرافية المكان ونوعية

---

(١٦) انظر رسالتنا « مناهج التفسير فى علم أصول الفقه » (بالفرنسية) انظر أيضا كتاب ادوارد سعيد « الاستشراق » . وكتابنا « التراث والتجديد » ، أزمة المناهج فى الدراسات الاسلامية ص ٧٥ — ١٠٨ .

المعطيات الدينيـــة • مهمتنا نحن اذن تكمن فى البحث عن الاصول التى تكتم عليها الغرب مثل الاصل الشرقى القديم فى الهند والصين وايران ومصر بعد أن جعل الوعى الاوربى الحضارة الشرقية مجرد تمهيد له وبدايات للحضارة الانسانية التى يمثلها الغرب دون أن تبلغ حتى بداياتها عند اليونان وكأن الانسانية كانت لا تزال فى مرحلة الولادة أو حتى المخـــاض دون أن تولد بعد ، وكأن الانسانية قد شبت فجأة عـــن اليونان والرومان • مهمتنا بيان فائض القيمة التـــاريخى(١٧) الذى دخل فى هذا الاصل الاول وبيان قدر التراكم الحضارى فى نشأة الوعى الاوربى عند اليونان والرومان •

أما الاصل اليهودى المسيحى فقد طمست فيه المسيحية ، البشارة الجديدة ، لصالح اليهودية ابتداء من بولس بالرغم من تحذيرات سلس• كما طمس اليونانى لصالح الرومانى بفضـــل البيئة الاوربية نفسها وطبائع شعوبها الهمجية التى كانت أقرب الى الطبع الحسى المادى عند الرومان منهـــا الى الطبع العقلى المجرد عند اليونـــان • وتحولت العنصرية اليهودية التاريخية الى الوعى الاوربى وغذت فيه عنصريته الحضارية ، وأصبح الكتاب المقدس بعهديه مصدرا للوعى الاوربى اليهودى والمسيحى على السواء • واتحدت مصالح الوعيين على حساب الشعوب غير الاوربية بالرغم مما بينها من حقد دفين وتنافس على الاختيار وعدم اعتراف متبادل ففى الوعى الاوربى المسيحى تكتمل النبوة فى ظهـــور المخلص ، السيد المســـيح ، وفى الوعى الاوربى

---

(١٧) هو التعبير المفضل لدى صديقنا د. أنور عبد الملك فى دراساته الجديدة عن « الاستراتيجية الحضارية » .

اليهودى تكتمل النبوة بتأسيس الدولة الصهيونية والعـودة مـن الشتات الى أرض الميعاد(١٨) • مهمتنا بيان تداخل هذين الاصلين وحقدهما الدفين ضد أى معطى دينى آخر خاصة الوحى الاسلامى الذى لا يعترف الوعى الاوربى اليهودى المسيحى به بل ويحاول السيطرة على شعوبه ونهب مواردها •

أما الاصل الثالث ، وهو البيئة الاوربية نفسها ، فهو الاساس المحلى لخصوصية الحضارة الاوربية ويضم طبيعة شعوبها الهمجية ومزاجها الحسى المادى ، ووحشيتها وعنصريتها • كما يشمل بيئتها الجغرافية ورغبتها فى الخروج من المناطق الباردة فى الشمال الى المناطق الدافئة فى الجنوب ، والبحث عن الثروات الطبيعية خارج حدودها ، ونقل المعارك القبلية داخل أوربا الى كشوف جغرافية وحركات توسعية وحروب استعمارية خارج حدودها • ويشمل أيضا طبيعة معطياتها الدينية التى أمرتها « بملكوت السموات » فردت عليه « بملكوت الارض » حتى تم التوحيد بين المعطى الدينى الخاص « اليهودى المسيحى » وكل معطى دينى آخر ، وأصبح تاريخ الدين وماهيته فى الحضارة الغربية هو تاريخ الدين وماهيته فى كل حضارة أخرى •

وقد تطورت الحضارة الاوربية فى ثلاثة عصور : عصر آباء الكنيسة ، والعصر المدرسى ، والعصر الحديث • ويهمنا العصر الاول

---

(١٨) انظر دراستنا عن « التاريخ والتحقيق ، رأى القرآن فى الكتب المقدسة » فى « الحوار الدينى والثورة » (بالانجليزية) ص ٢١ — ٥٥ .

لانه العصر الذى ظهر بعده الاسلام ينقد النصوص الدينية ويحكم عليها بالتحريف ، زيادة ونقصانا ، اخفاء واظهارا ، وينقد العقائد الدينية وسوء تأويلها : التثليث والخطيئة الاولى والخلاص بالنسبة للمسيحية ، وشعب الله المختار والميثاق الابدى بالنسبة لليهودية كما ينقد عبادات أهل الكتاب ومعاملاتهم كالرهبنة فى المسيحية والنفاق والربا والعصيان والكفر فى اليهودية • مهمتنا دراسة هذه الفترة لبيان الوقائع التى يتحدث عنها الاسلام والتيارات الدينية التى يشير اليها حتى نبين أن نصوص القرآن لا تتحدث فى فراغ ، ويكون هذا نوعا من « تحقيق المناط » الذى دعا اليه الاصوليون(١٩) • كما تهمنا دراسة العلاقة بين الدين الجديد والفلسفة اليونانية والرومانية وكيف أن الحضارة القديمة تغلبت على الدين الجديد وتغلغلت الى مضمونه وأصبحت بديلا عنه فى حين أن الوحى الاسلامى استطاع تمثل نفس الفلسفة فيما بعد واحتواها وأخذها وسائل للتعبير دون أن يفقد جوهره ومضمونه • لقد شكلت الفلسفة القديمة الدين المسيحى تشكلا حقيقيا فى حين أنها شكلت الوحى الاسلامى تشكلا كاذبا •

أما العصر المدرسى بالنسبة للغرب فانه يمثل بالنسبة لنا عصرنا الذهبى فى دورتنا الحضارية الاولى • وهى تتضمن موضوعيا كيف بدأ الوعى الاوربى فى الخروج من بوتقة العقائد الى رحاب الحضارة والعقل والعلم بفضل ترجماته لحضارتنا وما أنتجناه من فلسفة وعلم من خلال أسبانيا وايطاليا وتركيا ، فقد كنا روادا للوعى الاوربى فى

(١٩) وقد قمنا بذلك فى رسالتنا الثانية « فينومينولوجيا التفسير ؛ محاولة فى التفسير الوجودى ابتداء من العهد الجديد (بالفرنسية) ١٩٦٦ .

نشأته وبلورته واظهار اتجاهاته ، العقل والحرية ، وبواعثه الاساسية فاتجه العقل نحو الطبيعة مباشرة حتى استطاع أن يستقل فى عصر الاحياء فى القرن الرابع عشر فأحييت الآداب من أجل بدايات اكتشاف الانسان وهو العصر الذى عشناه نحن منذ قرنين من الزمان منذ انشاء مطبعة بولاق لنشر التراث القديم والترجمة عن الغرب والذى مازلنا نسير فيه حتى الآن . كما استطاع القيام بالاصلاح الدينى فى القرن الخامس عشر ورفض سلطة الكنيسة ، ونظام الرهبنة ، والتوسط بين الانسان والله ، والطقوس التى لم يؤسسها المسيح ، والايقونات والتماثيل ، وحياة البذخ والترف واعتبار الكتاب وحده مصدر الايمان دون الكنيسة أسوة بما نادى به الاسلام من قبل وتحت تأثيره . وهو العصر الذى بدأناه أيضا منذ القرن الماضى لاعادة اكتشاف الاسلام فى أصوله الاولى بعد أن ساد وعينا فى عصور التخلف والانهيار الحضارى فى القرون السبعة الماضية ، نفس ما رفضته البروتستانتية ، والذى لم يكن من الاسلام فى شىء . كما استطاع عصر النهضة فى القرن السادس عشر الاستمرار فيما بدأته الحضارة الاسلامية ، واستشهد من أجله المفكرون والعلماء فى نضالهم ضد السلطتين الدينية والسياسية ، فتجرأ الوعى الاوربى على نقد الموروث والى التخلص من التقاليد والاتجاه نحو الانسان والطبيعة وهو ما لم نبدأ بعد بصورة منظمة وأساسية بالرغم مما نقوله من رغبتنا فى اقامة نهضة .

أما العصور الحديثة فانها تبدأ فى الغرب بالقرن السابع عشر ، عصر العقلانية وبداية الاعلان عن سلطان العقل ، ونقد الكتب المقدسة أسوة بما قام به علماء الحديث لدينا من قبل ، وبداية اللاهوت العقلى ، ورفض كل مظاهر التشبيه والتجسيم فى الالوهية .

عرف الفلاسفة صفات الله المطلقة ، واقتربوا من التنزيه الاعتزالى بعد ما يقرب من عشرة قرون . كما استطاع الاتجاه التجريبى العامى اكتشاف الطبيعة ومعرفة النشأة الحسية للمعارف والعلوم ، والتجربة كمقياس للصدق ، وايثار الحقائق التجريبية اذا ما تصادمت مع الحقائق النقلية ، ورفض جميع الاوهام فى المعارف الانسانية ، فأصبح العقل والطبيعة مصدران للمعرفة فى الوعى الاوربى وليس الايمان والمنقول . كما استطاع الوعى الاوربى وضع الانسان كبؤرة العالم ، ذاتا للمعرفة ، ونموذجا للوجود ، وقيمة فى ذاتها من حيث هو عقل وحرية . فبدا الوعى الاوربى انسانيا خالصا ، عقلا وطبيعة وحرية ، وأصبح الانسان قادرا بعقله على ادراك الحقائق ، وقادرا بارادته على تحقيقها ، وأصبحت الانسانية كاملة لا تحتاج الى أية وصاية خارجة عليها فى المعرفة أو السلوك ، فى النظر أو العمل ؛ ولا تحتاج الى أى الهام من خارج العقل والطبيعة أو الى أية معجزة تقوم بدل الارادة الانسانية(٢٠) . وبالتالى أمكن اكتشاف الاسلام تلقائيا بفعل التراكم الحضارى الانسانى الذى أعطته الحضارة الاسلامية الى الوعى الاوربى فى بدايته . ثم انفجر العقل فى القرن الثامن عشر فى « فلسفة التنوير » ، وتحول الى ثورة اجتماعية وسياسية لدى المفكرين الاحرار الذين فجروا بدورهم الثورة الفرنسية، وظهرت الحرية فى نظريات العقد الاجتماعى ونشأة الدولة على أساس الحق الطبيعى للافراد . ثم استطاع السيطرة على الطبيعة

---

(٢٠) انظر ترجمتنا لكتاب اسبينوزا « رسالة فى اللاهوت والسياسة » الطبعة الثانية ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٨ ، وأيضا أنظر : « ازمة العقل أم انتصار العقل » فى قضايا معاصرة (٢) ص ٣٤ — ٦٠ .

حتى القرن التاسع عشر ، ونشأ العلم ، وظهرت المكتشفات العلمية تعلن عن سيطرة الانسان على الطبيعة ومعرفته بقوانينها • وأخيرا ظهر الانسان فى القرن العشرين وبدأت أزمة الحضارة كلها تتكشف وكأن كل انتشار للوعى يحتوى فى جذوره على جرثومة عدمه اذا ما كانت البواعث الاساسية فى الوعى قاصرة محدودة ، فتمنعه من الاستمرار مدة أطول ، فيبدأ الوعى فى هدم ما بناه ، ويعيش على ذاته حتى يأكل نفسه •

فالحقيقة أنه بالرغم من انتصارات العقلانية الاوربية فقد أصابها كثير من الشروخ التى قضت عليها حتى تحولت الى نقيضها فى اللاعقلانية المعاصرة • فقد وقعت أولا فى التجريد ، واعتنت بالشكل دون المضمون حتى ولدت رد الفعل عليها فى التجريبية الاوربية التى آثرت المضمون فى التجسيم أو التشبيه الذى اتسم به المعطى الدينى • ثانيا ، تحولت العقلانية الى نقد جذرى ، والنقد الى رفض مبدئى ، والرفض الى هدم مستمر ، فأصبحت بطبيعتها هادمة رافضة وليست بانية مؤسسة • وكان من الطبيعى أن يحدث ذلك نظرا لهشاشة الموروث وعدم ثبوته أمام النقد • ولكن هذا الظرف الخاص أصبح عاما وأصبحت وظيفة العقل أن يلتهم موضوعه ولا يقوى عليه أحد • ثالثا ، وقعت العقلانية أحيانا فى التبرير وتحويل المعطى الدينى من مستوى السر والايمان الى مستوى العقل والبرهان • فظهر التوسط بدل المسيح ، والجماعة المثالية بدل الكنيسة ، والشر بدل الخطيئة الاولى ، والمطلق بدل الله ، والغائيـة بدل الخلق ، فأصبحت العقلانية الاوربية نوعا من المسيحية العقلانية الجديدة أكثر قبولا لدى الفلاسفة من المسيحية العقائدية • وأصبح ديكارت وكانط وفشتة مسيحيين جدد يبشرون بالمسيحية العقلانية المثالية الاخلاقية الشاملة على طريقة المعتزلة •

رابعا ، ارتبطت العقلانية الاوربية بالجسم البشرى الاوربى وتمركزه على ذاته فأصبحت تعبر عن انسانية محدودة هى الانسانية الاوربية ، وأنكرت العقل على غيرها من الشعوب ، وبالتالى قامت العقلانية الاوربية على أساس عنصرى دفين ، وأصبحت باقى الشعوب تتصف بعقل بدائى لا يعرف قوانين المنطق ويقوم على السحر والخرافة . خامسا ، لم تحدث العقلانية الاوربية أثرا فعالا فى حياة الشعوب الاوربية ولم تتغير النظم السياسية وفقا للعقل الا فى الظاهر والشكل . ظلت الشعوب الاوربية رومانية فى جوهرها تبحث عن المصلحة والمادة والعالم بعد أن تأكدت رومانيتها كرد فعل على « ملكوت السموات » الذى نادت به المسيحية الاولى ولم يرض بها أحد . سادسا ، تحول العقل الى نشاط حر وأدى الى اقامة نظام ليبرالى كان هو دعامة النظام الرأسمالى الذى يقوم على المنافسة والربح مما أدى الى الاحتكار والاستغلال . فالعقل كان خاليا من القيمة ، والنشاط الاقتصادى الحر ضحى من أجل الربح بالعدالة الاجتماعية داخل أوربا مما فجر الثورات فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

وأيضا لم تستمر التجريبية الاوربية بالرغم من انتصاراتها العديدة . فأصبحت أولا تجريبية حسية صرفة ، فالمادة فيها بلا عقل ، وكأنها معرفة بذاتها دون تدخل للوعى والادراك . وكان من الطبيعى أن يحدث ذلك بعد اكتشاف أن كل معطى سابق دينى أو حضارى مناقض لحقائق التجربة فأصبحت التجربة قائمة بذاتها ، وأصبحت الحقيقة أحادية الطرف . فكل مرئى حقيقى وكل لا مرئى خرافة ، لا يوجد فى العقل الا ما يوجد فى الحس أولا . أصبحت التجربة

معارضة للعقل ، بينهـــا نزاع دائم ، بينها انفصام ورفض متبادل دون أن تكتمل الحقيقة ، وظلت نصف الحقيقة وكأنها الحقيقة كلها مما طبع العقل الاوربى بطابع التحيز والتجزئة بالرغم من ظهـــور بعض نزعات الشمول والمذاهب الكلية • ثانيا ، تحولت التجريبية من مجرد نظرية فى المعرفة الى نظرية فى الاخلاق وأصبحت المادة مصدرا للقيم ومعيارا لها ، فلا يوجد الا هذا العالم ، والقيمة ذاتها لا تكون الا مادية ، وهو ما سمى فيما بعد بالمادية الاوربية ، وأصبحت المادية فى المعرفة والمادية فى الاخلاق يغذيان بعضهما البعض فى مادية الوعى الاوربى • ثالثا ، عبرت هـــذه المادية عن جبلة الشعوب الاوربيـــة ومزاجها الطبيعى الرومانى القديم ، وتأصلت جذورها فى وجودها التاريخى عند القبائل الجرمانية والانجلوسكسونية وشعب الغـــال ، وبالتالى لم يفلح المعطى الدينى ولا المثالية العقلية فى ايجاد التوازن مع هذه المادية الطبيعية • رابعا ، وقعت حروب عدة بين الشـــعوب الاوربية من أجل المادة ، ففرقتها أكثر مما جمعتها ، وأصبحت مصدرا للجشع والطمع فيما بينهـــا ، وبالتالى لم تتخل عن حروبها القديمة عندما كانت قبائل متوحشة فوق الثلوج • خامسا ، تحول حب المادة الى استعمار خارجى واشباع الجشع والطمع خارج الحدود الاوربية • فنشأت أكبر جريمة فى تاريخ البشرية وهو استعمار الشعوب الذى ورث تجارة الرقيق • سادسا ، انتهى المشروع القومى الأوربى ، أكبر قدر ممكن من الانتاج لاكبر قدر ممكن من الاستهلاك من أجل أكبر قسط ممكن من الرفاهية الى فشل تام بعد أزمة الطاقة ، وبداية سيطرة الشعوب غير الاوربية على مواردها الطبيعية ، وقيام الصناعات الوطنية فى أسواقها ، وظهور أزمة القيم والولاء وجماعات الرفض فى المجتمعات الاوربية •

أما العلوم الانسانية فظلت حيرى بين الاتجاهين العقلى والتجريبى مرة تقلد العلوم الرياضية فتقع فى الصورية وتغفل الجانب التجريبى المادى ، ومرة تقلد العلوم الطبيعية تحول الظاهرة الانسانية الى ظاهرة مادية خالصة ، ومرة تحاول الجمع بين الاثنين فتقع فى الثنائية وتقضى على وحدة الظاهرة الانسانية ، أو تقع فى الخلط بين المستويين لحساب أحدهما على حساب الآخر . وبدأت الازمة فى النزعة الانسانية الاوربية التى يعتبرها الوعى الاوربى أثمن ما لديه وأعز ما أنتج وهى النزعة التى دافعت عن الحرية الانسانية وعن الانسان كقيمة فى ذاته . بالرغم من انتصاراتها العديدة وما تمثله من حقوق الانسان ، وهى أزهى ما تفتخر به ، أصبحت الانسانية الاوربية محدودة الاثر نظرا لنقائضها الدفينة . فالانسان الاوربى أولا هو الانسان الارادى لا العقلى تدفعه المصلحة أكثر مما يدفعه العقل ، هو الانسان الوجودى الجسمى بلحمه وعظمه ودمه وليس بعقله وحكمته وبصيرته . ثانيا ، هو الانسان النسبى المحدود الذى يتغير طبقا للظروف والاحوال بالرغم من ادعاءات الشمول وتمثيل الانسانية جمعاء . فالانسان هو انسان بروتاجوراس وليس انسان سقراط . ثالثا ، الانسان الاوربى هو فى حقيقة الامر الانسان الفردى الانانى لا الاجتماعى الغيرى ، يبغى مصلحته ضد مصلحة الجماعة . رابعا ، ظل المذهب الانسانى نظريا لا عمليا ، يعبر عن أمانى الوعى الاوربى ومثاليته ولكن الواقع الاوربى تسوده الطائفية والقبلية . خامسا ، الانسان الاوربى هو الشعوبى ، الفرنسى أو الالمانى أو الايطالى أو الانجلوسكسونى أو الامريكى ، كل يعتبر نفسه ممثل الانسان الاوربى ، وما الحربان العالميتان الا حربان أوربيتان بين القوميات والاجناس المتصارعة داخل أوربا . سادسا ، الانسان هو فى حقيقة الامر الابيض العنصرى فى مقابل الشعوب

الاوربية التى لا انسان لها ، وبالتالى فهو الانسان ، على حين قامت الشعوب غير الاوربية فى عصرنا هذا بتقديم نموذج آخر للانسانية التى تسعى نحو التحرير والعدالة وبالتالى تكون ممثلة لنوع جديد من الانسانية الشاملة .

وبالنسبة لنا ، يتسم الوعى الاوربى بعدة أشياء : أولا أن الوعى الاوربى قد اكتمل دورته الثالثة فى العصر الحديث بعـد الدورتين السابقتين فى عصر آباء الكنيسة وفى العصر المدرسى . كانت بدايته فى الكوجيتو عند ديكارت ونهايته فى الكوجيتو عند هوسرل . ثانيا ، لقد جـرب الوعى الاوربى كل شىء ، وافترض كل الفروض ، واعتصر الذهن ، ولكنه ظل متأرجحا بين مكتشفاته ، مترددا بينها لا يسـتقر له حال يقبل اليوم ما يرفضه بالامس ، ويقبل غدا ما يرفضه اليوم ، وأصبح يتنقل من الفعل الى رد الفعل الى الجمع بين الاثنين خالطا أو قالبا . فتوالت المذاهب ، وانتشرت المدارس ، وعمت الاتجاهات ، مما يوحى بالغنى والوفرة على مستوى الابداع . ثالثا ، ضاعت بؤرة التركيز ، وأصبح غير قادر على توجيه نفسه نحـو مركز يمكن من خلاله ابداع المذاهب والاتجاهات ولكنه يعود اليه حتى لا يفقد النظرة الشاملة . ولكنه أصبح أحادى الطرف ، وفقد الرؤية الشمولية المحايدة بالرغم من المذاهب الشمولية التى قامت سواء فى الفلسفة أو الاقتصاد أو التربية أو علم النفس أو الفن . رابعا ، وبعد طول التجـارب والرفض ، رفض الوعى الاوربى كل شىء ، وانتهى الى العدمية التامة وذلك لان كل مذهب لم يشبع مطالبه حتى سئم الكل ، وآثر الرفض ، واستقر على السلب والعدم . خامسا ، اكتشف العالم الخارجى حوله ، وأحس برياح الشرق Eastwind ، واكتشف حضارات الصـين والهند بعد أن حاول تشويهها فى الماضى وهو فى ابان عنفوانه ، كما

يشعر بيقظة الاسلام بعد الثورة الاسلامية الكبرى فى ايران ، وأحس بقوة الدول المتحررة وبالعالم الاسيوى الافريقى، وبثقل القارات الثلاث ، آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، وأدرك قيمة عدم الانحياز ، وأصبحت الشعوب غير الاوربية حاملة لوعى جديد ، يرث أروع ما أنتجه الوعى الاوربى أعنى « فلسفة التنوير » • سادسا ، بينما الوعى الاوربى يصل الى نهايته ، ويشعر بأزمته فى القيم وفى النظم الاجتماعية وفى العلوم الانسانية وتبدأ مظاهر فشل المشروع القومى الاوربى فى الانتاج والاستهلاك ومجتمع الوفرة ، يبدأ فلاسفة الغرب فى الاعلان عن انهيار الغرب ، قلب القيم ، خواء الروح ، الوهيـة المادة ، العدمية المطلقة ، وتظهر مقولات الانتحار واليأس والتناقض والعبث واللامعقول ونسمع صرخات الفضيحة والعار والمصيبة • نبدأ نحن حياة جديدة نسميها الاصلاح ، والاحياء ، والتنوير والنهضة، والتغير الاجتماعى ، والثورة ، وندافع عمايا عن الاستقلال الوطنى وحرية الشعوب ، ونصيغ أيديولوجيات التحرر وعدم الانحياز ، مكونين ثلاثة أرباع البشرية • واذا كان للوعى الاوربى الريادة فى القرون الخمسة الماضية فقد تكون لنا الريادة فى القرون الخمسة القادمة • وكما بدأت الحضارة قديما فى الشرق فى الصين والهند وفارس ومصر ثم انتقلت الى اليونان والرومان وأوربا فقد تعود فى عصرنا هـذا الى الشرق من جديد وتكتشف الحضارة الاسلامية رسالتها نحـو الشرق كما انتشر الاسلام قديما نحو الشرق فى آسيا على شواطئها الجنوبية وفى سهولها الوسطى •

واذا كنا قد أكملنا دورتنا الحضارية الاولى من القرن الاول حتى القرن السابع الهجرى ، كما أكملنا دورتنا الثانية من القرن الثامن حتى القرن الرابع عشر ، فاننا نبدأ الآن دورتنا الثالثة من بداية القرن

الخامس عشر وفى القرون السبعة القادمة كما بدأ الوعى الاوربى دورته الثالثة ابتداء من القرن الخامس عشر الميلادى وقارب على نهايتها فى القرن العشرين . لقد بدأنا اصلاحنا الدينى منذ القرن الماضى ولم يكتمل بعد ، وبدأنا عصر نهضة أيضا قبل ذلك ولم يكتمل بعد . مهمة جيلنا هى اذن اكمال الاصلاح الدينى واستمرار النهضة حتى تبدأ عصورنا الحديثة . حينئذ تبدأ الاجيال القادمة فتقيم العقلانية ، وتأتى أجيال أخرى فتحدث التنوير ، وتأتى أجيال ثالثة فتقيم العلم . ان ذلك لا يعنى تقليد الغرب فى مراحل تطوره الحديث بل هو احساس بتنمية مجتمعاتنا من خلال فلسفة فى التاريخ تقوم على ادراك فى أية مرحلة من التاريخ نحن نعيش حتى لا نعيش مراحل تركناها وراءنا أو نحاول تحقيق مراحل أخرى لم نصلها بعد(٢١) .

ليس اليسار الاسلامى اذن مجرد نظرة سياسية للواقع أو نظرة تراثية للماضى بل هى نظرة حضارية لتاريخ الشعوب . لا يعتمد على أساليب الخطابة والبيان بل ينهج منهج التحليل العلمى الاكاديمى الرصين ، ويعالج قضايا التراث الغربى من أجل تخليص الامة كما فعل أئمة السلف القدماء بالنسبة للحضارات الغازية القديمة .

٥ — واقع العالم الاسلامى :

و « اليسار الاسلامى » يعطى صورة لحال العالم الاسلامى دون اتباع أساليب الوعظ والارشاد ، فيجعل الوقائع تكشف عن نفسها والارقام تتحدث عن نفسها . لقد اعتمد فكرنا الدينى حتى الآن على

---

(٢١) انظر مقالنا « موقفنا من التراث الغربى » (٢) ، ص ٣٣ — ٣٣ . انظر أيضا كتابنا : لسنج : تربية الجنس البشرى ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ١٩٧٧ .

المنقول ، واستعمل أسلوب الانتقال من النص الى الواقع وكأن النصوص الدينية وقائع تتحدث بذاتها • ومنهج النص له عيوب أساسية • أولا ، أن النص ليس واقعا بل مجرد نص ، والنص عبارة لغوية تصور الواقع ولا تكون بديلا عنه • والحجة لا تكون الا أصلية ، وبالتالى لا يكون النص حجة دون الرجوع الى أصله فى الواقع • ثانيا ، أن النص يتطلب الايمان به مسبقا بعكس العقل أو التجربة التى يمكن لكل انسان أن يشارك فيها ، وبالتالى لا يمكن استعمال حجة النص الا لمن يؤمن به • فهى حجة خاصة وليست عامة • ثالثا : النص يعتمد على سلطة الكتاب ، وليس على سلطة العقل ، وحجة السلطة ليست حجة لان هناك كتبا مقدسة كثيرة فى حين أنه يوجد واقع واحد وعقل واحد • رابعا ، النص برهان خارجى يأتى من خارج الواقع وليس برهانا داخليا يأتى من داخله ، واليقين الخارجى أضعف فى البرهان من اليقين الداخلى • خامسا ، النص يحتاج الى تخريج مناطه أى الى ايجاد الواقعة التى يشير اليها ، ودون هذا المناط لا يكون للنص مضمونا صحيحا وبالتالى يتم توجيه النصوص الى غير مراداتها ، ويحدث الخلط وسوء الفهم واستعمال النصوص فى غير مواضعها • سادسا ، النص أحادى الطرف ويعتمد على كثير غيره من النصوص ، ولا يجوز الايمان ببعض الكتاب والكفر بالبعض الآخر والا وقع التعارض بينها أو وقع المفسر فى النظرة الجزئية • سابعا ، النص يعتمد على الاختيار ، والاختيار يتبع الهوى والمصلحة كما هو الحال فى علوم الجدل • فالرأسمالى يختار نصوصا تؤيده ، والاشتراكى يفعل بالمثل مع نصوص أخرى تؤيده ، ويكون المحك ليس هو النص بل اختيار المفسر المسبق ، والنص يؤيد ما هو معروف من قبل • ثامنا ، الوضع الاجتماعى للمفسر هو أساس اختياره للنص وبالتالى يكون صراع المفسرين واختلافاتهم هو أساسا صراع اجتماعى

فى الواقع بناء على صراع القوى بين الاطراف . تاسعا ، يتوجه النص الى ايمان الناس والى تملق مشاعرهم الدينية واستحسان بلاغة المجادل ولا يتوجه الى عقول الجمهور أو الى واقعهم المباشر ، فمنهج النص ليس منهجا علميا لتحليل واقع المسلمين بل هو منهج جدلى للدفاع عن مصالح فئة أو نظام ضد نظام ، والجدل أقل من البرهان . عاشرا ، منهج النص أقرب الى الوعظ والارشاد منه الى البرهان والتحقيق ، يدافع عن الاسلام كمبدأ أكثر من دفاعه عن المسلمين كأمة . وأخيرا ، فان منهج النص أقصى ما يستطيعه لو تحققت مواضعه وتوجه الى الواقع مباشرة أنه يعطينا الكيف ولكنه لا يعطينا الكم ، ونحن نهدف الى تحديد الواقع كما نعرفه من خلال من يملك ماذا . منهج « اليسار الاسلامى » هو منهج التحديد الكمى بالارقام والاحصاء حتى يتحدث الواقع عن نفسه . وقد ارتبط النص فى أصله بأسباب النزول ونحن نرجع الى أسباب النزول ذاتها ونحددها كما . وقد كان التحديد الكمى فى تاريخ العلم أكثر دقة من مجرد الوصف الكيفى . وقد كان العقل والمشاهدة دليلان عند الاصوليين القدماء كما أن العقل أساس النقل عند ابن تيمية ، ومن يقدح فى العقل يقدح فى النقل . ونحن نزيد المشاهدة والتجربة والواقع الاحصائى ونستعمل لغة الارقام خاصة فيما يتعلق بتوزيع ثروات المسلمين على جماهير الامة الاسلامية .

نحن علماء اجتماع واقتصاد وتاريخ وجغرافيا وقانون ، ندرس العالم الاسلامى كما يدرسه العلماء ، ولا نعتمد على سلطة الكتاب وحدها أو على النصوص النقلية وحدها ، فحجة النص شىء وحجة العقل شىء آخر . وقديما قال علماء أصول الدين : ان كل الحجج

النقلية حتى ولو تضافرت على اثبات شىء على أنه حق لا يكون ذلك الا بحجة عقلية ولو واحدة . فنحن فقهاء بالمعنى القديم ، فقد كان الفقهاء هم العلماء ، يعلمون الواقع ويشرعون له ، ونعتمد على طرق البحث عن العلل وأنواعها ، من علة مؤثرة ومناسبة وملائمة ، ونستعمل السبر والتقسيم ، ونعتمد على قياس الاولى . فنحن أصوليون وفقهاء ولكن لعصرنا هذا . نعبر عن الاسلام من خلال أوضاع المسلمين الحالية فى أوائل القرن الخامس عشر ، ولا ندرى ماذا ستكون عليه الامة الاسلامية فى العصور التالية . ما يهمنا هو روح العصر ، وما نهتم به هى مشاكل العصر ، ومانتحمله هى رسالة جيلنا لا رسالة كل الاجيال . لذلك نهتم بالامثال العامية وبسير الابطال وبالملاحم الشعبية والتى تعبر من خلالها الشعوب عن طبائعها وآمالها وأخلاقها وعاداتها ، وذلك لان شعوبنا مازالت تستشهد بها ، وتأخذها نبراسا لحياتها ومصدرا لقيمها كما نفعل تماما مع النصوص الدينية . ونهتم بالاغانى الشعبية التى يرددها الملايين من جماهير المسلمين والتى تؤثر عليهم وتوجه سلوكهم ويترنمون بها أثناء الليل وأطراف النهار . انا نهتم أساسا بعوامل التأثير على نفوس المسلمين وبموجهات سلوكهم وبمصادر قيمهم ، وبالتالى فنحن علماء مأثورات شعبية وعلماء نفس اجتماعيين ، نصف سلوك الناس اليومى ، ونحدد رؤيتهم للعالم ، ونلتقط أبنيتهم النفسية وقوالبهم الذهنية . فالغرض هو حماية المسلمين ، وتنقية الاسلام فى وعيهم ، وتجنيد جماهير الأمة للدفاع عن مصالحها ، فتراثها مازالت تحياه لكن اختلط عليهم ، فخلطوا بين العناية الالهية وبركة آل البيت ، بين الاعداد والصبر ، بين الرسول والولى ، بين الايمان والاستكانة ، بين على بن أبى طالب وأبى زيد الهلالى ، بين المقرىء وأم كلثوم ... الخ .

ويوجه « اليسار الاسلامى » قوته الى التصدى لمشاكل العصر الاساسية وعلى رأسها : الاستعمار ، والصهيونية ، والرأسمالية ، وهى المخاطر التى تهددنا من الخارج ، والفقر ، والقهر ، والتخلف ، وهى المخاطر التى تهددنا من الداخل .

فالاستعمار هو أهم المشاكل التى تواجه العالم الاسلامى منـذ الافغانى حتى الآن بل منذ الحروب الصليبية وأشكالها المتنوعـة . فالاستعمار فى النهاية هو الصليبية الجديدة . بل ان الاستعمار ذاته منذ القرن الماضى أخذ أشكالا عدة ، عسكريا عن طريق الغزو والاحتلال المباشر ، وسياسيا عن طريق الحماية والانتداب والوصاية والاشراف الدولى والاحلاف . واقتصاديا عن طريق الشركات المتعددة الاجناس ، وثقافيا عن طريق التغريب ، وحضاريا عن طريق قتل روح الابداع لدى الشعوب واستئصالها من جذورها التاريخية . واذا كان الافغانى قـد ناضل ضد الاستعمار فى شكليه العسكرى والسياسى فان مهمـة أجيالنا هو النضـال ضد الاشكال الباقية للاستعمار أعنى الاقتصادى والثقافى والحضارى . فبالرغم من الاستقلال السياسى الذى حصلت عليه كثير من الشعوب الاسلامية وجلاء الجيوش الاجنبية عن أراضيها الا أن القواعد العسكرية الاجنبية مازالت فى كثير من أنحائها من أقصى المغرب الى أقصى المشرق . كما أن بعض الشعوب الاسلامية مازالت داخلة فى أحلاف أو تقع تحت مناطق نفوذ القوى الكبرى . أمـا الاستعمار الاقتصادى فكثير من ثروات العالم الاسلامى مازالت بأيدى الشركات الاحتكارية الكبرى ، موارده الاولية منهوبة ، وأسـواقه مفتوحة ، وأمواله مردودة الى البلاد الاستعمارية تستثمر فيها وبلادنا أحوج الى الاستثمارات ، واقتصادنا قائم على الاستيراد أكثر منـه على التصدير ، ونمط حياتنا يقوم على الاستهلاك أكثر منه على الانتاج

حتى يظل المستعمر هــو المنتج الوحيد • والاستعمار الثقافى مازال ساريا حينا فى مظاهر التغريب فى حياتنا الثقافية فجعلنا الغرب مصدر كل علم ومعرفة ، نستورد منــه الخبرات العلمية طبقا لما تعودنا عليه من عون خارجى سواء من الارادة الالهية أم من تكنولوجيا الغرب • ولكن أخطر ما يهدد المسلمين الآن هــو الاستعمار الحضارى اذ يود الغرب تفريغ هــذه الشعوب التاريخية من مصادر قوتها الرئيسية فى تراثها حتى يأمن يقظتها ، ويأسر روحها ويحاصر ابداعها ، ويحولها الى حضارات متحفية تدرس فى متاحف الانثوبولوجيا ونصبح نحن جزءا من تاريخ الانسان • يريد الاستعمار الآن أن يأمن الشــعوب الاســلامية ، ويضمن السيطرة على مستقبلها • فبــدل أن يعارض الثورات التحررية فى العالم الاسلامى على أساس أنها خطر شيوعى يحاول الآن أن يقبلها على أساس أنها الضمان الوحيد ضد الخطــر الشيوعى •/وهو فى كلتا الحالتين لا يؤمن بمصالح الشعوب ولكن يغير أساليبه وطرق تعامله • وتظل أفكار الحرية والديمقراطية والعــدالة صالحة داخل أوربا فحسب وليس خارجها عند باقى الشعوب الهمجية• مهمة « اليسار الاسلامى » هو الاستمرار فى التنبيــه على أساليب الاستعمار الجديدة ، وعنصرية الغرب الدفينة ، وصليبيته التاريخية ، بأسر روحها ، وقطع ماضيها عن حاضرها حتى يتبخر مستقبلها فتندثر الشعوب • وتصبح أقليات فى الشتات ، تلحق بركب الغرب ، وتستعين به كى تقيم أود حياتها • ونصبح جميعا عبيدا سودا فى مجتمع السادة البيض(٢٢) •

---

(٢٢) انظر مقالنا « اجهاض العقول » الفكر المعاصر ، العدد الثانى ، القاهرة ١٩٨٠ • وأيضا فى الجزء الاول : الدين والثقافة الوطنية •

ومازالت الصهيونية خطر داهم على الاسلام والمسلمين منذ نشأتها ، وجذورها فى قبائل العبرانيين القديمة حتى الصهيونية السياسية فى قرننا هذا . لم يعد هدفها الآن احتلال الارض فقد احتلت أكثر مما كانت تطمع فيه فى بدايتها منذ قرار التقسيم حتى ابتلاعها أرض فلسطين كلها واحتلال أراضى سوريا ولبنان ومصر بل وقادرة على احتلال مزيد منها . ومازالت أطماعها فى التوسع حتى يستوطن أربعة عشر مليونا ، وهم يهود العالم ، فى فلسطين . لم يعد هدفها حتى محو اسم « فلسطين » على فندق أو منظمة أو هيئة أو بيان أو شعار أو علم أو نشيد بل أصبح همها هو تصدير الفكرة للذهن العربى والاسلامى ، وقبولها كنموذج للحديث ، وبفضلها يتحول جهلنا الى علم ، وصحراؤنا الى أرض خضراء ، وتخلفنا الى تحضر ، وكسلنا الى عمل ونشاط . لدينا الاسواق الفسيحة والسواعد الفتية وعائدات البترول ولديهم العلم والمعرفة والتكنولوجيا . لديهم العقل والخبرة ولدينا العمالة الوافرة . وبالتالى تستولى الصهيونية ليس فقط على ثرواتنا ومصادر رزقنا كما كان يفعل الاستعمار التقليدى بل تستولى أيضا على أرواحنا ، وتتم صهينة العالم العربى قلب العالم الاسلامى ومركزه . ثم تصبح بديلا عن القومية العربية والوحدة الاسلامية ، وتصبح الحضارة اليهودية هى الحضارة الام ، والحضارة العربية والاسلامية رافدا منها ، وتكون هى النموذج الاوحد للحضارات السامية قديما وحديثا(٢٣) . وقد حرم الاسلام علينا بنص القرآن موالاة بنى اسرائيل « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فانه منهم ، ان الله

---

(٢٣) انظر مقالنا : مخاطر السلام ، قضايا عربية ، مارس ١٩٨٠ . وأيضا الجزء الثالث : الدين والنضال الوطنى .

لا يهدى القوم الظالمين » (٥ : ٥١) • ووصفهم فى القرآن بأنهم كافرون بالحق ، يؤثرون الحياة الدنيا ، لا يريدون الا نعيم الحيـــاة دون شكر أو ايمان ، ينقضون عهد الله ، ويغلون فى الدين ، ويقتلون الانبياء • وقد لعنهم أنبياؤهم ، وحكم عليهم موسى بالتيه • لقــد رفض القرآن تصورهم للميثاق ، ميثاق الحب الابدى والنصر الذى يهبهم الارض بعد عصيانهم الانبياء ، ووضع القرآن بدلا عنه ميثاق الطاعة والفضيلة والعمل الصالح لكل فرد • وهنـــا يتفق « اليسار الاسلامى » مع « الاخوة فى الله » على مواصلتهم الكفاح ضـــــد الصهيونية كعقيدة ورفض جميع مظاهر موالاتهم من المسلمين وذلـــك من منطلق شرعى خالص وهو أنه لا يجوز شرعا الصلح مع بنى اسرائيل، ونقول ذلك كفقهاء للاسلام وبمسئولية الفقهاء الذين لا يخشون فى الله لومة لائم(٢٤) •

والخطر الخارجى الثالث الذى يواجه المسلمين هو الرأســمالية ليس فقط بالنسبة لاهلها ولكن بالنســبة لنا فى مجتمعاتنا الاسلامية • فالرأسمالية تقوم على النشاط الاقتصادى الحر وما يتبع ذلك من منافسة وربح وفوائد وربا • كما تؤدى الى الاستغلال والاحتكار ، وتغرز فى المجتمعات قيم الاستهلاك والتمتع بالوفرة • وتنتهى الى المجتمعات الطبقية والتفاوت فى الدخول بين الناس ثم تصبح السلطة بين يدى من يملك رأس المال ، فيدير دفة الحكم لصالحه • ولا يرى حرجا فى شن الحروب وصناعة الاسلحة المدمرة مادام كل ذلك يؤدى

---

(٢٤) انظر دراستنا « لاهوت الارض » ، « الله والشعب والارض » ، « الصهيونية كثورة مضادة » فى « الحوار الدينى والثورة » (بالانجليزية) ص ١٢٥ — ١٩٧

الى الدفاع عن المصالح الخاضعة لرأس المال الحاكم • وكل ذلك بالنسبة لنا يعنى فقر الفقراء واثراء الاغنياء • ففي مصر مثلا يبلغ متوسط الدخل الفردى سنويا مائة وعشرون جنيها سنويا وذلك لا يسمح بأى نظام اجتماعى يقوم على التفاوت الطبقى أو على النشاط الاقتصادى الحر القائم على الاستغلال والاحتكار والا ماتت الملايين منا جوعا وبؤسا • هذا بالاضافة الى أن الاسلام ذاته ضد تجميع رأس المال فى أيدى القلة « كى لا يكون دولة بين الاغنياء منكم » (٥٩ : ٧) ، ويرفض الملكية الخاصة ، ويقول بالاستخلاف ، ويرفض المجتمع الطبقى ، ويقول بالمساواة ، ويرفض الاستغلال والاحتكار ، ويقول بالشركة والتعاون والتكافل ، ويرفض الربا ، ويعطى الامام حق التأميم والمصادرة للمال المستغل لصالح المسلمين • ولقد روجنا للاسف ما سميناه « اشتراكية الاسلام » بعد آن تبنت مجتمعاتنا الاسلامية الاشتراكية مروجين لنظام قائم ومبررين لقراراته دون أن نأخذ زمام المبادرة ، ولكننا الآن ننادى بالاسلام كمناهض للرأسمالية العالمية والمحلية ، ونطالب بالمزيد من حقوق الفقراء فى أموال الاغنياء ولتنمية مجتمعاتنا وتوزيع ثرواتنا على أساس من المساواة والعدالة الاجتماعية • بالنسبة لنا الاشتراكية قضية مبدأ دائم وليست قضية نظام عابر يتغير بتغير الحكام ، وتظل الجماهير الاسلامية فى كلتا الحالتين فاترة لا يعنيها الامر فى شىء •

أما بالنسبة للمخاطر الداخلية ، الفقر والقهر والتخلف ، فان الشعوب الاسلامية من أفقر شعوب الارض • يضرب بها المثل فى سوء التغذية والمجاعة والقحط • وفى نفس الوقت من أغنى شعوب الارض يضرب بها المثل فى الغنى وتكدس الاموال والفورة والترف والبذخ وبناء القصور وشراء الجزر وسواحل المحيطات واللعب على موائد

القمار واحضار نساء العالمين • ومع أننا بنص القرآن أمة واحدة ولكننا في الواقع أمتان ، أمة الفقراء وأمة الاغنياء ، وبالرغم مما نقوله في مواعظنا وتقريظنا للاسلام وذكرنا لآية « والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » (٧٠ : ٢٤ — ٢٥) • والاسلام يقرر من حيث المبدأ أننا أمة واحدة ، نتمثل مبدأ واحدا ، وأننا جميعا اخوان ، سواسية كأسنان المشط ، وأن المال مال الله استخلفنا فيه ، لنا حق الانتفاع والتصرف والاستثمار ، وليس لنا حق الاستغلال أو الاحتكار أو الاكتناز • ان كل السياسات التى تتبعها نظمنا الحالية من تدعيم المواد الغذائية ، وفرض ضرائب على القادرين ، ورفع مرتبات صغار الموظفين ، وتثبيت الأسعار ، واعطاء المنح والعلاوات ، كلها تغير من هذا التفاوت بين الفقراء والاغنياء • مهمة « اليسار الاسلامى » اعادة توزيع ثروة المسلمين بين المسلمين كما شرع الاسلام ، طبقا للعمل والجهد والعرق ، واليد العاملة التى يحبها الله ورسوله ، وليس من المضاربات والسمسرة والعمولات والرشاوى والسرقات • وان كان ما يقال عن ضرورة تحديد النسل كحل لفقرنا لهو قول يردده الاستعمار والصهيونية • فبدل أن نكيف مواردنا البشرية طبقا لتوزيع الثروة الحالى بين القلة الغنية والاكثرية الفقيرة فاننا نكيف ثرواتنا طبقا لمواردنا البشرية • فجماهير الامة مصدر قوتها ، ولديها الثروة في صورة المال السائل من عوائد النفط وفي صورة الثروات المعدنية الطبيعية والصحراء الشاسعة غير المستغلة • المهم هو أخذ حقوق الفقراء من الاغنياء كما يأمر الاسلام وبنص القرآن ، واعادة توزيع الثروة في البلاد الاسلامية بين من يملك كل شىء ومن لا يملك شيئا ، وقيام الدول الاسلامية بواجبها وما شرعه الاسلام لها ، فالامام آخر

من يأكل وآخر من يسكن وآخر من يسكن وآخر من يلبس بعد أن تجد جماهير الامة الاسلامية كفايتها •

ولا توجد أمة تعانى من القهر والتسلط والطغيان كما تعانى الامة الاسلامية • وبالتالى تؤكد حياتنا ما قاله الغرب عنا وسماه « نظام الاستبداد الشرقى » حيث يوجد واحد فقط هو الحر يفعل ما شاء ، وهو الرئيس ، وما سواه مجبور ومقهور لا حرية له كما يقول هيجل • يضرب بنا المثل لغياب النظم الديمقراطية والحريات العامة ، وسيادة الاحكام العرفية والقوانين الاستثنائية ، وترسل لدينا لجـان حقوق الانسان للاستفسار عن أحوال مسجونينا ، وتحل لدينا الاتحادات ، وتزور الانتخابات ، وتقوم الانقلابات العسكرية ، ويسـيطر الرأى الواحد ، ويحكم الحزب الاوحد ، ويقتل بعضنا بعضا • الوطنى من فى السلطة ، والخائن من يكون خارجها ، وبعد الانقلاب يكون بطل الامس خائن اليوم ، وخائن اليوم بطل الغد • غابت مقاييس الوطنية والحرية وأصبح من فى السلطة هو الوطنى الاوحد • تسيطر القيادات على كل شىء وتوجه الوعى القومى من خلال أجهزة الاعلام حتى لم تعد للشعوب الاسلامية أية قدرة على التعبير عن الرأى الآخر ، فأمحت المعارضـة ، وان ظهرت تحت الاضطهاد والقهـر ، اتهمت بالخيانة والعمالة ، ولصقت بهم تهم الكفر والالحاد • أصبحت الشـعوب الاسلامية كلها تعيش مجتمعات الرأى الواحد ، وفى نفس الوقت نتغنى بالشورى وبديمقراطية الحكم فى الاسلام ونستحسن قول عمر ابن الخطاب لامرأة مسلمة فى المسجد « أصابت امرأة وأخطأ عمر » ، ونذكر على الاشهاد فى كتبنا التعليمية وأمام الاجانب قول عمر لابن الاكرمين « لماذا استعبدتم الناس وقـد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » ،

فنفخر بنور الامس واليوم مظلم ، ونتشدق بالمبادىء وواقعنا مزرى • مهمة « اليسار الاسلامى » هو الدفـــاع عن حرية الرأى لجميـــع الاتجاهات ، وتأكيد ديمقراطية الحكم ، وأن للجميع الحق فى المساهمة فى توجيه أمور البلاد ، لا خائن ولا عميل ، الكل مواطنون يبغون الخير • وبالتالى لن تكون « اسرائيل » وحدها هى واحة الديمقراطية فى المنطقة كما تدعى ويروج اثرها الغرب ، ولن تأتى لجان « حقوق الانســـان »لتقصى أحوال المسجونين لدينـــا • يمارس « اليســـار الاسلامى » الامر بالمعروف والنهى عن المنكر والذى لاجله أصبحنا خير أمة أخرجت للناس(٢٥) •

والعجيب أن تكون خير أمة أخرجت للناس هى التى يقصد بها البلاد المتخلفة فى افريقيا وآسيا • والحقيقة أن « التخلف » يعبـــر عن الطابع العام لمجتمعاتنا • والتخلف لا يعنى فقط نقص موارد التنمية أو انخفاض معدلاتها بل يعنى التخلف الشامل سواء فى الابنية الاجتماعية أو فى رؤى شعوبنا لانفســـها ولواقعها وللعـــالم الذى تعيش فيه • فان مجتمعاتنا الاسلامية مازالت تعيش فى بعض منهـــا حياة قبلية مثل السودان وباكستان وايران والعراق وتركيا وكأننا لسنا أمة واحدة وحد الأسلام فيها بين القبائل والشـــعوب من خلال التوحيد والعمل الصالح « يأيها الناس ، اناخلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقـــاكم » (٤٩ : ١٣) وهو التخلف البشرى • ويضرب بمجتمعاتنا المثل فى عدم

---

(٢٥) أنظر مقالنا بجريدة « الاهالى » الاسلام والمعارضة العدد (١٠) ١٩٧٨/٤/٥ • وأيضا الجزء السابع : اليمين واليسار فى الفكر الدينى •

استغلال الثروات ، وعدم ترشيد الاستهلاك ، وسيادة الجهل ، وانتشار الامية ، وتفشى الامراض نتيجة للقذارة فى مجتمع يقوم الدين فيه على الطهارة والغسل . والتخلف فى المسكن والملبس والمأكل والمشرب وأساليب الحياة العامة . ولكن أخطر من ذلك كله هو التخلف الثقافى أو الحضارى فيما يتعلق بنظرة الناس للعالم وفى سلوك الشعوب وفى الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية . ويمثل التخلف فى الفكر نظريتنا الثنائية للعالم أو وضعنا له على طرفين غير متكافئين ، نعطى الاول ما نسلبه من الثانى حتى أصبحنا نجد فى الاول الثابت عزاء لنا عن ضياع الثانى الهش ، وأزمتنا كلها فى الطرف الثانى فى حين أن النظرة الواحدية والتى أثبتها التوحيد هى التى ترد الى العالم اعتباره وثقله وتجعلنا عاملين فى الدنيا لا هاربين منها(٢٦) . كما تمثله نظرتنا الهرمية للعالم التى تجعلنا ننظر اليه متفاوت المراتب ، كلما صعدنا إلى أعلى وصلنا الى الكمال وكلما نزلنا الى أسفل وصلنا الى النقص ، هذه النظرة هى أساس البيروقراطية والطبقية فى مجتمعاتنا(٢٧) . كما يمثله أيضا غياب النظرة العقلانية للعالم وتفسيرنا الظواهر بقوى خفية أو ارادات مشخصة من خارج العالم دون ربط الظواهر فيما بينها بقوانين العلية . ويمثل التخلف أيضا فى تراجع العقل أمام المحرمات أو المقدسات « التابو » التى لا يقترب منها وجداننا القومى : الله ، والسلطة ، والجنس . مع أننا نفكر فيها ليل نهار ، ونعيشها بوجداننا

---

(٢٦) « انظر التفكير الدينى وازدواجية الشخصية قضايا معاصرة (١) ص ١١ — ١٢٧ .

(٢٧) أنظر « الدين والراسمالية » قضايا معاصرة (٢) ص ٢٧٣ — ٢٩٤ .

من أجل الاشباع وتعويضا عن الحرمان(٢٨) •

ويبغى « اليسار الاسلامى » اكتشاف رسالة الامة الاسلامية فى التاريخ ، وتحويل جماهيرها من كم الى كيف • فمازلنا نعجب كيف ينتصر ثلاثـــة ملايين من اليهود على أكثر من مائة مليـــون عربى ، ويستولون على القدس من ثمانمائة مليون مسلم وكأن صرخة الافغانى من قبل فى الامة الاسلامية « لو كنتم وأنتم تعدون بمثابة الملايين ذبابا لكان طنينكم يصم آذان بريطانيا العظمى ••• ولو كنتم مئات الملايين من الهنود وقد مسخكم الله فجعل كلا منكم سلحفاة وخضتم البحر وأحطتم بجزيرة بريطانيا العظمى لجررتموها الى القعر وعدتم الى هندكم أحرارا » •

ويحدد رسالة « اليسار الاسلامى » فى أوائل القرن الخامس عشر كالآتى :

(أ) تحقيق العدالة الاجتماعية فى الامة الاسلامية ، وتكوين مجتمعات لا طبقية تذوب فيها الفوارق بين الفقراء والاغنياء بنص القرآن •

(ب) اقامة مجتمع حر ديمقراطى يكون فيه لكل فرد الحق فى التعبير عن الرأى ، واسداء النصح ، والامر بالمعروف والنهى عن المنكـــر •

---

(٢٨) انظر مقالنا « المحرمات الثلاث » الجمهورية ١٩٧٦/٦/٩ • وأيضا الجزء الاول : الدين والثقافة الوطنية •

(ج) تحرير أراضى المسلمين من بقايا الاستعمار الاستيطانى فى فلسطين ، وتصفية القواعد العسكرية فى العالم الاسلامى ، واستعادة ثروات المسلمين بعد استنزاف مواردهم الطبيعية ونهب ثرواتهم من الاستعمار الخارجى •

(د) اقامة وحدة اسلامية جامعة نبدؤها بوحد الامة فى مصر ثم وحدة وادى النيل ، ثم وحدة مصر والشام ، ثم وحدة المغرب العربى ، ثم وحدة الأمة العربية ، ثم وحدة الامة الاسلامية « ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » (٢١ : ٩٢) •

(هـ) انتاج سياسة وطنية مستقلة عن القوى الكبرى ومناطق النفوذ ، « لا شرقية ولا غربية » بنص القرآن ، وهى سياسة عدم الانحياز ، وتقوية أواصرنا بشعوب آسيا وافريقيا وهى الشعوب الاسلامية ودول العالم الثالث وهى التى تشارك فى أهداف الاسلام فلن يرضى عنا أحد حتى نتبع ملته •

(و) تدعيم ثورة المضهدين فى كل مكان ، وتقوية ثورة المستضعفين فالاسلام جاء لهم ، وثورتهم ثورته ، وليس عذرهم ان لم تبلغهم رسالة الاسلام بل عذرنا فى أننا لم نقدمه لهم •

٦ ـ الدين والثورة :

ومهمة « اليسار الاسلامى » الكشف عن العناصر الثورية فى الدين أو ان شئنا بيان أوجه الاتفاق بين الدين والثورة أو بلغة ثالثة تأويل الدين على أنه ثورة • فالدين هو ما لدينا بالاصالة والثورة هى مكتسبات عصرنا • فكما حاول القدماء التوفيق بين الحكمة والشريعة

على ما يقول الفلاسفة المسلمون ، الشريعة ما لديهم بالاصالة والحكمة مكتسبات عصرهم نحاول نحن أيضـا نفس الشيء ، وهى عمليـة طبيعية تدل على حيوية الحضارة الاسلامية واستمراريتها فى التاريخ . وهو ليس توفيقا خارجيا تعسفيا فالدين فى ذاته ثورة ، وكان الانبياء ثوارا مصلحين ومجددين . فقد مثل ابراهيم ثورة العقل ضد التقاليد وثورة التوحيد ضـد التجسيم . ومثل موسى ثورة التحرر ضـد الطغيان . وكان عيسى يمثل ثورة الروح ضد المادة . وكان محمد ثورة الفقراء والعبيد والمضطهدين ضد الاغنياء وسادة قريش وطغاتها من من أجل اقامة مجتمع حرية واخاء ومساواة . ويؤرخ القرآن للنبوة على أنها ثورة ضد المفاسد الاجتماعية والخلقية . فقد قـاوم لوط الشذوذ الجنسى كما حذر النبى عاموس فى العهد القديم الاغنيـاء ونبههم الى قرب سقوط الدولة ان لم يأخذ الفقراء حقوقهم . لذلك كان مصير الانبياء القتل والسجن والتعذيب والاضطهاد . ولكن كان النصر للثورة فى النهاية ضد قوى الظلم والطغيان . كان للتوحيد وظيفة عملية فى توليد السلوك القويم ، وكانت العقيـدة تهدف الى تغيير حياة الناس وأساليب معيشتهم ونظم مجتمعاتهم . فلا يوجد نبى واحد قد أتى لتثبيت الوضع القائم بل ليثور عليه وليناى بوضـع أفضل . حركة النبوة فى التاريخ حركة اصلاحية تهدف الى احداث تغيير اجتماعى وانقلاب ثورى فى حياة الناس ومعتقداتهم وسلوكهم . لم يأت الانبياء لمباركة رجال الدين القائمين أو لتأييد رجال السياسة بل تصدوا دائما للسلطتين الدينية والدنيوية ، الزمنية والروحيـة ، لتجار المعبد ولرجال العرش . فالانبياء هم مربوا الانسانية ومساعدوها ودافعوها نحو التقدم والكمال . وتعنى نهاية النبوة أن الانسانية قد سارت فى طريق التقدم واستطاعت أن تقود نفسها بنفسها بعد ذلك .

أصبحت مستقلة العقل ، حرة الارادة ، تستطيع أن تسير فى طريق التقدم ، والرقى بجهدها الخاص(٢٩) . لقد توطر الوحى مع الانبياء واكتمل حتى انتهى الى مجموعة من النظم والمبادىء العامة تعطى الانسانية حصيلة تراكمها الحضارى الطويل ومكتسبات نضالها فى عصور التاريخ .

وقد زخر التاريخ الاسلامى بالثورات الدينية الاجتماعية والسياسية مثل ثورة القرامطة وثورة الزنج فى تاريخنا القديم ، والحركات الاصلاحية الثورية مثل المهدية فى السودان ، والسنوسية فى ليبيا ، والاسلام فى الجزائر ابان حركة التحرير الوطنية ، وعبد الحميد بن باديس وعبد القادر المغربى وعمر المختار فى شمال افريقيا ، وعثمان دنقة فى وسط افريقيا ، وأمة الاسلام فى أمريكا ، وجهاد « الاخوان المسلمين » فى فلسطين وفى القتال والا فماذا كان يعنى الجهاد وماذا تعنى الشهادة ؟ مهمة « اليسار الاسلامى » ابراز هذه الثورات والكشف عن الحركات الثورية العلنية منها والسرية فى مقابل ما هو شائع عن استتباب الدولة السنية ، وقبول الامر الواقع ، والقبوع تحت سلطوية التصور ، والخنوع تحت القضاء والقدر(٣٠) . ولكن لسوء الحظ ساد الفكر الذى روجت له السلطة السياسية القائمة والذى أخفى الفكر الدينى الذى كان وراء كثير من حركات المعارضة ومازال الامر قائما حتى الآن .

---

(٢٩) انظر كتابنا : لسنج : تربية الجنس البشرى ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ١٩٧٧ .

(٣٠) د. محمود اسماعيل : الحركات السرية فى الاسلام

كما يتأصل « اليسار الاسلامى » فى ثورات الاديان فى التاريخ البشرى . فتاريخ اليهودية ملىء بالثورات الدينية مثل ثورة ابن عقيبة ضـد الرومان . وتاريخ المسيحية أيضا زاخر بالثورات مثل ثـورة الفلاحين فى ألمانيا فى القرن السادس عشر بقيادة المصلح الدينى توماس مونزر ، وثورة القساوسة الكاثوليك فى أمريكا اللاتينية ، وثورة الكنيسة السوداء فى أمريكا الشمالية . ولم تقتصر ثورات الاديان على ديانات التوحيد الثلاث بل ظهرت أيضا ثورة البوذية فى فيتنام ، وثـورة الكونفوشيوسية فى الصين ابان المسيرة الكبرى ، وثورة بعض الديانات الافريقية فى جنوب أفريقيا ضـد المستعمر الابيض مثل « أنبيـاء البانتو »(٣١) .

وقد أصبحت ثورة الاديان موضوعا رئيسيا فى علم الاديـان وفى علم الاجتماع الدينى وفى علم السياسة . وتم تصنيف الحركات الثورية الدينية فى أنماط مثل المخلصية Messianism التى تعتمد الثورة فيها على ظهور المخلص مثل المسيح أو المهدى ، والالفيـة Millinairianism التى يظهر فيها المخلص كل ألف سنة ، والكاريسمية Charisma التى يظهر فيها البطل أو الزعيم ليقود الشعب . ولكن كل هذه الانماط مازالت تدور فى الفلك المسيحى والوثنى ولم تستطع بعد أن تصل الى نمط ثورة الاسلام ، وثورة التوحيد ، أو ثورة الفقـراء والمستضعفين من خلال العقيدة دون ما حاجـة الى

---

(٣١) أنظر كتابنا : الحوار الدينى والثورة ، القسم الثانى من الثورة (بالانجليزية) .

تشخيص التحرر فى صورة مخلص ، وهو ما يحاول اليســار الدينى ابرازه .

وقد نشأ تيار جديد فى علم « اللاهوت » الغربى الذى يعــادل لدينا علم أصول الدين أو علم العقائد يأخذ « الثورة » موضوعا له فيما يسمى « بلاهوت الثورة » الذى يجمع « لاهوت الارض » و « لاهوت التنمية » و « لاهوت التغــير الاجتماعى » و « لاهوت التقدم » . وأصبح فى الفكر الدينى المعاصر من أهم فروع اللاهوت ان لم يكن أهمها على الاطلاق(٣٢) . وعاد لاهوت الذات والصفات أو لاهوت الماهية والوجــود التقليدى الى بطون الكتب القديمــة . وتشعب هذا اللاهوت فأصبح لدينا « لاهوت الالم » أو « لاهوت المعاناة » عند بونهوفر و « اللاهوت العلمانى » أو « لاهوت المدينة العلمانية » عند ألتزير وكوكس وفان بيرن ، و « لاهوت التقدم » عند بانبرج ، و « لاهوت العمل » ، « لاهوت التاريخ » و « لاهوت موت الاله » عند نيتشة وفهانيان . وخرجت لذلك المجلات المتخصصة وظهر اللاهوتيون الجدد مثل هوتار وجان بابتس ميتز يؤصلون التيار الجديد عند اسبينوزا عامة وفيورباخ خاصة . وظهرت الدراسات عن « التعاليم الاجتماعية للكنيسة » ، وأخذ الرهبان أدوارا جديدة كعمال فى حركة « العمال الرهبان » . اللاهوت الآن أصبح علم الجماهير ، وعلم الثورات الشعبية فى المجتمعات التى مازالت تستمد قيمها وأنماط سلوكها من تراثها الدينى مثل المجتمعات فى افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ،

---

(٣٢) انظر مقالنا : كاميلو توريز ، القديس الثائر ، قضايا معاصرة (١) ص ٢٨١ — ٣١٨ .

واتحد بعلم الاجتماع السياسى وبعلم الاجتماع الدينى . لقد فرض الواقع الثورى للمجتمعات الدينية نفسه على علماء اللاهوت ، ولم يتركوا ثورة الجماهير ليعالجها رجال الشرطة والجيش وحدهم بأمر السلطات القائمة بل تناولوها هم كموضوع للعلم ومنهم من انضم اليها ، فالدين علم وعمل ، توحيد واستشهادا !

٧ — الوحـــدة الوطنيـــة :

ويرمى « اليسار الاسلامى » الى عقد حـــوار بين الاتجاهات الاسلامية كلها فى العالم الاسلامى دون الدخول فى جدل أو مهاترات ودون اثارة لاحقاد أو بث لضغائن أو لاحداث فرقة بين المسلمين . ليس « اليسار الاسلامى » مذهبا جديدا فى الاســـلام ، وليس فرقـــة كلامية ، وليست مدرسة فقهية بل محاولة للتوحيد بين المسلمين طبقا لحاجات عصرهم ومتطالباته من حرية وعدالة وتقدم بعد أن شتتهم المذاهب وتفرقوا شيعا « كل حزب بما لديهم فرحون ». (٣٠ ، ٣٢) ، وتمكن الاستعمار منهم طبقا لشعاره « فرق تسد » . فوحدة الفكر الشرط الاول لوحدة الامة .

يوجه « اليسار الاسلامى » أولا نداء الى « الاخوة فى الله » القائمين على مجلة « الدعوة » الاسلامية ، ويذكر لهم جهادهم فى مصر والعالم الاسلامى . صحيح أن بعض كتابها قد زاد وعيه بالقضـــية الاجتماعية ولكن ظل ولاء معظمهم للاصل قائما . نعقد الحوار بيننا وبينهم ، فيم نتفق وفيم نختلف ، نتوحد على نقاط الاتفاق ، ويحترم بعضنا بعضا فى نقاط الاختلاف . قد يكون اختلافنـــا فى الشكل لا فى الجوهر ، فى الصورة لا فى المضمون ، فى اللغة لا فى المعنى ، فى المنهج والوسيلة لا فى الهدف والغاية . ومع ذلك فان اختلاف الائمة رحمة

بينهم . وقد رأى جمهور الامة أنه فى ميدان الاجتهاد لا يكون الحق واحدا بل تتعدد الحقائق مادام فيها جميعا نفع عملى لجماهير المسلمين . و « الاخوان المسلمين » داخل مصر وخارجها يمثلون تيارا أصيلا فينا ، لهم جهادهم الذى تذكره لهم مصر والعالم الاسلامى كله فى صراعهم ضد الملكية والاستعمار ، وجهادهم فى فلسطين وفى القنال . وقع صدام بينهم وبين الثورة المصرية ، وهو أقسى ما وقع من صدام فى حياتنا المعاصرة ، حدث أليم حز فى نفوسنا جميعا ، وعارض تاريخى خسرت مصر من جرائه الكثير ، فقد كان بامكان الاخوان أن يكونوا السند الشعبى للثورة ، وهى التى ظلت حتى الآن بلا تنظيم سياسى شعبى قادر على تجنيد الجماهير . وكان يمكن للثورة أن تكون تحقيقا لاهداف الاسلام لولا أنها ظلت على مستوى الشعار فى غالب الاحيان ، لم تتجاوز العلمانية والوطنية الى تراث الأمة وروحها تعيد تفسيره بحيث يكون محققا لاهدافها ومطالبها القومية فى الحرية والعدالة . ومنذ ذلك الصدام لم يبق الاخوان فى الساحة لتربية النفوس فخربت الذمم وفسدت الضمائر ، وتهرأ الناس ، وضاع الولاء(٣٣) . لا نكفر أحدا ونرجو ألا يكفرنا أحد بل ندعو الناس الى كلمة سواء بيننا وبينهم يكون فيها الحد الادنى من وحدتنا الوطنية . نتجاوز الشعار الى الواقع ، ونترك الشكل الى المضمون . وقد استطاع النبى بحواره مع الناس واقناعه لكافة الاتجاهات استمالتهم للاسلام أيام الحجيج ومقابلته لوفود القبائل .

---

(٣٣) انظر مقالاتنا الثلاث : « ماذا خسرت مصر بالقضاء على الاخوان » « ماذا كسبت مصر من جماعة الاخوان » « كيف يمكن تطوير فكر الاخوان » الجمهورية ، ٧٦/٣/٢٠ ، ٧٦/٥/١٠ ، ٧٦/٥/١٩ . وايضا فى الجزء السادس : الاصولية الاسلامية .

كما استطاع زسل على الى الخوارج اقناع الآلاف منهم بعدم الخروج على على وارجاعهم اليه • ولكنا حتى الآن لم نجرب الحــوار فى حياتنا بين القوى الوطنية • فيرى الحكام أن فريقا واحدا هو الوطنى والباقى خونة عملاء • فحديث الفرقة الواحدة الناجية وضلال جميع الفرق الاخرى مازال يفعل فى ثقافتنا الوطنية ، ويوجه سلوكنا اليومى، ويحدد رؤيتنا للعالم • وأن جميع المحاولات التى نشأت فى حياتنا المعاصرة باستثناء تلك التى كانت تقوم بحركة تحرر وطنى ضــد الاستعمار الغربى ، من أجل قيام وحدة وطنية كانت مجرد ائتلاف سياسى له نفع عاجل وهو معارضة النظام القائم أو ستارا يخفى وراءه القبلية الفكرية أو التعصب الايديولوجى ، يحاول كل فريق أن يستأثر بأكبر قدر مكن من المناصب القيادية حتى تكون له الغلبة على الاخرى ، صراع مكتوم داخل بوتقة الوحدة(٣٤) •

ونتوجه ثانيا بنداء الى « الاخوة فى الوطن » الماركسيين والناصريين والليبراليين أن يتحاوروا مع « اليسار الاسلامى » بالحسنى • فان كنا نتفق فى الاهداف : الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية الا أن وسائلنا قد تكون أنجع وأسرع وأبقى باللجوء الى تراث الامة وتأصيل أهدافها فيها ، وجعل مستقبلها استمرارا لماضيها ، ووضع حاضرها فى مسار تاريخها • فقد ساهموا جميعا فى تاريخنا الوطنى

---

(٣٤) انظر مقالنا السابق : الجذور التاريخية لازمة الحرية والديمقراطية فى وجداننا المعاصر ، المستقبل العربى ، يناير ١٩٧٩ ، وأيضا الجــزء الثانى : الدين والتحرر الثقافى ..

الحديث ، ومسكوا بزمام السلطة قبل الثورة المصرية أو بعدها ، فى تآلف حزبى أو بمفردهم خارج مصر فى عالمنا العربى والاسلامى • لقد أسس الليبراليون بدايات الاقتصاد الوطنى فى مواجهة الاستعمار الاقتصادى كما دافعوا عن حرية الفكر ، وأذكوا الروح الوطنية ، وبدأوا حركة التحرر الوطنى • كما ساهم الماركسيون فى الصراع ضد الاستعمار ومقاومة أعوانه فى الداخل وتقوية الوعى الطبقى لـدى العمال ، وتكوين طليعة ثورية من الطلبة ، والقيام ببدايات الوحـدة الوطنية فى لجنة الطلبة والعمال فى ١٩٤٧ • وقام الناصريون بأكبر انجاز اجتماعى فى تاريخنا الحديث منذ محمد على بتطبيق المبادىء الست الشهيرة : القضاء على الاقطاع ، والقضاء على رأس المال ، والقضاء على الاستعمار ، وتحقيق العدالة الاجتماعية ، وتكوين جيش قوى ، واقامة حياة ديمقراطية سليمة • وقد تم بالفعل تطبيق قوانين الاصلاح الزراعى الاول والثانى والثالث ، وأممت قناة السويس ، ومصرت الشركات الاجنبية ، وتكون القطاع العام ، وصدرت قوانين يوليو الاشتراكية فى ١٩٦١ • واستطاعت الناصرية تأسيس حركة ثورية منذ دحر العدوان الثلاثى على مصر فى ١٩٥٦ ، وتكوين حركة عدم الانحياز منذ مؤتمر باندونج فى ١٩٥٥ ، وتدعيم الحركات الثورية فى العالم الثالث ، والدفاع عن الاستقلال الوطنى والارادة المستقلة للشعوب وتحويل مصر الى مكانها الطبيعى كمركز ثقل فى العـالم العربى والاسلامى • فتآمر الاستعمار العالمى عليها وألحق بهـا الهزيمة فى عدوان ١٩٦٧ حتى اختفت الناصرية كزعامة سياسية فى سبتمبر ١٩٧٠ وان ظلت حية فى وجدان الشعوب تظهر من جديد أو فى الانتفاضات الشعبية فى الثورة الاسلامية العظمى فى ايران •

ان « اليسار الاسلامى » يمكن أن يلتقى عليه الاتجاهات التحديثية « الاخوة فى الله » « الاخوان المسلمون » لا يرفضون ابراز الجوانب التقدمية فى تراثنا وديننا • والتقدم مطلب العصر لدى شعوبنا المتخلفة • يجمعنا الاسلام ، ونلتقى على الوحى ، ونستقى من نبع واحد • لا ينكرون علينا دفاعنا عن فقراء الامة وأخذ حقوق مستضعفيها وقد كانوا هم البادئون بلسان الامام الشهيد سيد قطب بالحديث عن « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » و « معركة الاسلام والرأسمالية » • وكتاباتهم فى الفقر والمال والمصارف والثورة فى الاسلام عديدة • فنحن منهم وهم منا لو صفت القلوب ، وخلصت الضمائر ، واستنارت العقول ، وخفت حدة القبلية والعشائرية ، وعدنا جميعا أبناء وطن واحد لا يتهم بعضنا البعض بالكفر والالحاد أو العمالة والخيانة • ولماذا يكون كل من يركز على الفقراء والمستضعفين ماركسيا ؟ ولماذا يكون كل من يدعو للحرية والديمقراطية شيوعيا ؟ اننا بذلك نعطى المذاهب الغربية أكثر مما تستحق، ونترك لها جزءا من الاسلام ونفرغه منه • بل اننا نكون بذلك أكبر مانع أمام ترويج المذاهب التقدمية الغربية التى يرفضها الاخوة فى الله لاننا نأخذ حقوق الفقراء من أموال الاغنياء باسم اله ، ونثور على الطغيان باسم الله • نرجو من اخواننا فى الله ألا يكفروننا وألا يلعنوننا ، فنحن منهم ، ننضم تحت لوائهم • انما نحن فقهاء وهم متكلمون ، نحن نركز على الشريعة وهم يركزون على العقيدة ، وكلانا يكمل بعضنا بعضا • كلانا أصوليون ، نحن أصوليو فقه وهم أصوليو دين •

أما « الاخوة فى الوطن » (الماركسيون) فانهم لا يرفضون « اليسار الاسلامى » اذ يجمعنا واياهم الوطن ، فكلنا ثوريون وطنيون

ولكنا ثورة وطنية لها جذورها فى ثقافة الامة فى تراثها الوجدانى الذى مازالت تعيشه ، ويمدها بتصوراتها للعالم ، ويحدد قيمها ، ويوجه سلوك أبنائها ، وقادر على تحريك الجماهير وحشدها . لا نحتـاج الى ثقافة غربية أو مصطلحات فلسفية ، ولا نجد عناء فى التثقيف السياسى للامـة من خلال الخلايا الحزبيـة والمعاهد الاشـتراكية والمنشورات الثورية والمطبوعات السياسـية والاقتصادية . كلانـا يتنافس من أجل الدفاع عن المستضعفين ، والتنافس فى الخـير ، ولنحتكم فى النهاية الى جماهير الامة أينا أكثر تعبيرا عن حاضرها وماضيها : الثورة العلمانية أم ثورة الاسلام ؟ ان الثورة العلمانية التي يقودها الاخوة فى الوطن هى جزء من ثورة الاسلام كما أن ثورة الاسلام هى التى تجمع بين الفريقين ، لانها الثورة الشاملة ، الثورة الام ، ثورة الحضارة والتاريخ ، ثورة الامة بكافة طبقاتها ، ثـورة الهوية الصدئة .

أما « الاخوة فى الثورة » (الناصريون) فانهم لا يرفضـون « اليسار الاسلامى » . فقد قامت الثورات العربية لسـوء الحظ واصطدمت بالاخوة فى الله صراعا على السلطة فى غياب الوحـدة الوطنية ، والعمل فى سبيل أهداف قومية واحـدة . ولكن مشروع الثورات العربية فى معاداة الاستعمار والصهيونية ، والقضـاء على الرجعية والتخلف ، وتحقيق مجتمع الحرية والاشتراكية والوحدة هو فى صميمه مشروع « اليسار الاسلامى » . لقد حاولت الثورات العربية تأييد مشروعها بالاسلام فيما سمى بالاسلام والاشتراكية أو الاشتراكية فى الاسلام ولكن الرباط بين الاثنين كان مفتعلا ، خارجيا ، خطابيا ، دفاعا عن النظام القائم ، وتأييدا لقرارات السلطة الثورية دون طلب

المزيد ، ودون البداية بالدفاع عن مطالب الجماهير ، دون أخذ زمام المبادرة . وبالتالى تساوت اشتراكية الاسلام مع رأسمالية الاسلام كلاهما دفاع عن نظامين قائمين ، والاسلام ضائع فى ركاب الحكام . لم يكن الاسلام الا وسيلة لتبرير النظم القائمة ، ولم يتجاوز وضع أجهزة الاعلام ، وعمل مثقفى السلطة ورجال الدين المحترفين(٣٥) . ولكن « اليسار الاسلامى » هو القيام بنفس المشروع من داخل الاسلام ذاته يبدأ بالدفاع ، وينقد النظم القائمة ، ويقدم أكثر البرامج تطورا وشمولا ، يقوم به فقهاء الامة أى طليعتها الثورية فى استقلال تام وليس تأييدا لاحد انما رعاية لصالح الامة واستمرارا لتاريخها .

أما « الاخوة فى الحرية » (الليبراليون) فانهم يعتزون بنا « اليسار الاسلامى » كجزء من تراث الامة حفاظا على روحها وحضارتها وهويتها فى التاريخ . بل ان الطهطاوى مؤسس النهضة الليبرالية الحديثة كان من علماء الدين ، يكتب فى سيرة الرسول ، ويتحدث عن الامة والحرية والدستور بآيات الله وسنة النبى . وظل الاسلام مصدرا أساسيا فى كتابات الليبراليين (لطفى السيد ، طه حسين ، العقاد) ، وتحدثوا عن المعذبين فى الارض وعن الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية فى الاسلام ، ودافعوا عن نهضة الامة الاسلامية ، وارتبطوا بالاصلاح الدينى وباحياء الترث الاسلامى،

---

(٣٥) أنظر مقالنا : عبد الناصر والدين ، مجلة سفير ، عدد خاص بمناسبة الذكرى التاسعة لوفاة عبد الناصر ١٩٧٩/٩/٢٩ . وأيضا الجزء الثالث : الدين والنضال الوطنى .

ودخلوا فى المعارك الوطنية ضد الاستعمار ، واعملوا العقل فى التراث ، ونقدوا الحضارة الغربية ، وأبانوا أخطاء الاستشراق • وهذه كلها عناصر منذ القرن الماضى لم تتحول بعد الى تنوير شامل ، قادر على التصدى للموروث ، واعمال العقل والتحرر من التقاليد ، والاعتزاز بقدرة الانسان على اكتشاف قوانين الطبيعة وتأسيس العلم ووضع الانسان كبؤرة للكون • و « اليسار الاسلامى » يهدف الى اكمال ما بدأته الليبرالية ، ونقل الامة من الليبرالية الى التنوير حتى تتبوأ ثوراتنا الاجتماعية على ثوراتنا الفكرية وحتى لا تتعرض نهضتنا الحديثة الى انتكاسة أخرى(٣٦) •

ولا يرى « اليسار الاسلامى » أى حرج فى أن يعتبر نفسه اسلاميا أو عربيا أو عالميا أو قوميا ، دينيا أم علمانيا ، فالاسلام دين وقومية ، عربى وعالمى ، دين ودولة • فقد خرجت الحركات الوطنية فى مصر من ثنايا الاصلاح الدينى • وكان الافغانى هو رافع شعار « مصر للمصريين » ، ومفجر الثورة العرابية ، وداعية للعرب وللعروبة • وكان مصطفى كامل وطنيا مسلما • وكان سعد زغلول وقاسم أمين وغيرهم من تلاميذ محمد عبده • وقد رفع الطهطاوى من قبل شعار « حب الوطن من الايمان » • فالمسألة ليست أكاديمية نظرية أو مماحكات سياسية أو ادعاءات البلاغة والدقة بل هى من نقص فى الوعى الوحدوى ومن بقايا الاستعمار لبث الفرقة والتشتت من أجل السيادة والسيطرة • ان الوحدة الوطنية التى يمثلها « **اليسار**

---

(٣٦) انظر مقالنا : الضباط الاحرار أم المفكرون الاحرار ، قضايا عربية سبتمبر ١٩٧٩ • وأيضا الجزء الثانى : الدين والتحرر الثقافى •

الاسلامى » تضم فى ثناياها هذه الدوائر المتداخلة التى لا تعارض بينها الا فى الذهن العشائرى .

و « اليسار الاسلامى » لا يعبر عن ثورة المسلمين وحدهم بل هو أيضا ثورة أهل الكتاب الذين يمثلون جزءا من تراث الامة وتاريخها الوطنى ونضالها ضد الاستعمار . بل أن الطليعة الثورية فيهم تعتبر الاسلام تراث الامة وتسميه « الاسلام السياسى » وتربطه بنهضة مصر ، وبحضارة الشرق ، ولا فرق فى ذلك بينه وبين الكنيسة الشرقية فى مواجهة الاستعمار الغربى . يحافظ على أبداع الشعوب التاريخية ، ويسترد من الغرب « فائض القيمة التاريخى » ، ويرفض الهيمنة الحضارية للغرب(٣٧) . ومنهم من يكشف عورات « الحوار بين الاديان » ، وسيطرة الاستعمار على مؤتمراته من أجل احتواء الشعوب الاسلامية وخداعها بالاخاء الدينى ، ووقوعها تحت براثن الاستعمار الجديد من خلال الحب الالهى فى مواجهة الخطر الالحادى ومن أجل البقاء على النظم التقليدية فى البلاد الاسلامية ، والوقوف كبديل أمام الشعوب ضد التحركات الثورية وحركات التغير الاجتماعى ، وبيان مواقف الكنيسة الوطنية فى مواجهة الاستعمار الغربى ، ووحدة الامة فى لحظات الخطر ومواقف النضال المشترك(٣٨) .

---

(٣٧) ويمثل هـذا التيار صديقنا د. أنور عبد الملك فى دراساته ومقالاته وأثاره العديدة .

(٣٨) ويمثل هذا التيار د. وليم سليمان فى كتبه ومقالاته .

٨ ــ شبهات ومخاطر :

و « اليسار الاسلامى » مستقل تماما عن الغرب أو الشرق ، لا هى ماركسية جديدة ولا هى ليبرالية ثورية ، ولا هى حركات خوارج أو شيعة ولا هى هرطقة قرامطة أو زنج • يمثل تيارا فكريا حضاريا ، ويعبر عن واقع الامة ، ويؤصل حركة اجتماعية سياسية فى تراثها القديم • يمتد جذوره فى الكتاب والسنة ولا يبغى الا مصلحة جماهير المسلمين •

وتخرج هذه الكتابات عن « اليسار الاسلامى » فى مصر قلب العروبة ، ومركز الثقل فى العالم الاسلامى ، ورائدة الثورات العربية المعاصرة ، وباعثة النهضة منذ القرن الماضى ، ولماذا تظل مصر قفزا وتخرج الدراسات والابحاث فى العواصم العربية والاسلامية ؟ فمصر قلب الاسلام ، وجندها خير أجناد الارض ، وباعها فى النهضة والبعث والاحياء طويل ، وأصالتها وحفاظها على تراث الاسلام يشهد له الجميع ، فهى مصر المحروسة •

ليس « اليسار الاسلامى » حزبا سياسيا ، ولا يمثل معارضة حزبية ، ولا يتوجه ضد أحد • يرى السياسة فى ثقافة الامة ونهضتها • ليس موجهة ضد حكومات أو نظم • ولا يثير فتنا فى امارات أو دول ، ولا يحدث قلاقل فى ملكيات أو جمهوريات ، فالمعارك أساسا فى ثقافة الامة وداخل وعيها الحضارى • وليس مقياس النجاح لاية حركة هو الوصول الى السلطة ، فقد وصل الكثير منها اليها ولكنه فشل فى احداث التنوير الشامل • وقد لا يصل البعض منها الى السلطة ويكون له أبلغ الاثر فى حياة الامة واستنارة الشعوب ، وربما حكمت أحزاب

دون أن تحدث أى تغيير فى حياة الشعوب ، وربما لم تحكم تيارات وأحدثت أعظم الاثر فى عدة أجيال .

لا يهدف « اليسار الاسلامى » الا استنفار أحد أو الاستعداء على أحد بل يرمى الى يقظة الامة ، واستئناف نهضتها الحديثة ، وطرح البدائل أمام الناس ، والاحتكام الى جماهير الامة ، وتجاوز الحلول الجزئية والنظرات الفردية الى تصور كلي وشامل لوضع الامة فى التاريخ وتحديد دورها مع نفسها ومع غيرها .

ليس « اليسار الاسلامى » مجرد اثارة للحمية الاسلامية فى قلوب الناس ، فهذه الوحيدة الباقية كرصيد للامة وكمعين لا ينضب بل الهدف هو تحويل ذلك الى عقل وحوار ، واستنارة وتوعية حتى تتوجه هذه الحمية للدفاع عن مصالح الاسلام ، وليس فى الصراخ والعويل أو فى الشعائر والطقوس ، واطالة اللحى والتسبيح فى الطرقات ، وقراءة القرآن فى المركبات العامة ، وبناء المساجد وانارة المآذن ، وكتابة الآيات القرآنية بالنور على دور العبادة أو الشعارات الدينية على جدران الابنية .

ولا تمثل هذه الكتابات تيارا واحداً . اذ يضم « اليسار الاسلامى » مجموعة من الكتابات والآراء المتعددة ، وكل كاتب مسئول عن فكره ولكن تجمعها جميعا الرغبة فى ابراز الجوانب التقدمية فى الاسلام وعناصر الثورة فى تاريخنا . قد يقترب بعض الكتاب من « الاخوة فى الله » ، وقد يقترب البعض الآخر من « الاخوة فى الوطن » ، وقد يقترب فريق ثالث من « الاخوة فى الثورة » ، وقد يقترب فريق رابع من « الاخوة فى الحرية » ولكن يجمعهم البحث والاجتهاد ، وللمخطىء

أجر وللمصيب أجـران • واختلافنا كاختلاف الائمة ، وكاختـلاف الصحابة • كلنا يبغى الحق ويعمل له ويشهد عليه • ولا يدعى أحد أنه الحق ودونه الباطل بل يجتهد الرأى ويرشد الى الحق ، ويسدى النصـح •

أما شبهات الالحاد والكفر فهى شبهة تنم عن الضعف ، وقلة الحيلة ، وسوء النية ، والتزلف الى الحكام والدفاع عن المصـالح الشخصية • وسيلتنا البرهان ، وحجتنا الدليل • نحن مجتهدون كما اجتهد القدماء ، لا نكفر أحد ونرجو ألا يكفرنا أحد • نسير فى نفس التيار الذى سار فيه علماء الامة الاجلاء الذين لاقوا صنوف العذاب من جراء قولهم الحق ، ورفضهم اصدار الفتاوى لتأييد السلطان • طريقنا هو الصمود فى الحق ضد توازع الهوى • وما من فقيه أو عالم حاول ذلك الا وكانت نهايته السجن والتعذيب أو الموت والاستشهاد. منذ الامام أحمد بن حنبل فى محنته حتى الامامين الشهيدين حسن البنا وسيد قطب •

ليس « اليسار الاسلامى » اسلاما فى ثوب الماركسية فذلـك تفريغ للاسلام من مضمونه الثورى واعطـاء الماركسية أكثر ممـا تستحق ، وانكار لمصالح المسلمين وواقعهم ومطالبهم للتحـرر من الاستعمار ولتحقيق المساواة والعدالة الاجتماعية • وليس ماركسية فى ثوب الاسلام فتلك سوء نية وخوف وجبن وانتهازية لا يتسم بها فقهاء الاسلام وينأى علماؤه عنهـا • وليس توفيقا بين الاسـلام والماركسية أو بين الماركسية والاسلام فالتوفيق ليس فكرا ، ولا يمثل ارتباطا بواقع ، وليس تأصيلا وبحثا فى الجذور • انها تهمة المستشرقين

دائما للقضاء على حيوية الحضارة الاسلامية وقدرتها على التجديد والتمثل والابداع من أجل انكار قدرة الاسلام ذاته على أن يكون نظاما للمسلمين فى كل عصر ولكل جيل . ليس فى « اليسار الاسلامى » أى أثر ماركسى لا فى الشكل ولا فى المضمون بل فيها تعبير عن واقع المسلمين وتأصيلا لثورتهم المعاصرة فى تاريخهم وحضارتهم وفى أصولهم الاولى فى الكتاب والسنة . وليس فيها أى أثر غربى على الاطلاق بل انها تمثل أساسا تحديا للغرب . وليس التنوير قاصرا على الغرب بل انها مرحلة تمر بها كل حضارة ، وقد مررنا بها نحن أولا عند المعتزلة القدماء .

ان « اليسار الاسلامى » انما يعبر عن حاجة المسلمين اليوم الى فكر ونظام ، الى حركة وتغير ، الى قديم وجديد ، الى أصالة ومعاصرة ، ولا يدعمه الا الجهد الفردى حتى يحافظ على استقلاله وبالتالى تحيا الامة من خلال تاريخها . ويكون « اليسار الاسلامى » من جديد هى « العروة الوثقى » التى حددت مشروع المسلمين فى مقاومة الاستعمار ، ومناهضة اليسار الاسلامى مظاهر الظلم والطغيان ، وتحرير المسلمين وتوحيدهم . فنحن تلاميذ الافغانى ، نشارك فى الثورة العرابية ، ولا نندم بعدها حتى ولو فشلت الثورة ، ولا نحولها الى مجرد حركة سلفية بل نطورها ونقدمها ثورة للخلف . ومازال الافغانى بالنسبة لنا ، وكما هو منقوش على قبره بجوار جامعة كابول بأفغانستان « رائد الحركة الثورية الاسلامية » .

حوار حول الوحدة الوطنية

لقد آن الاوان أن نفكر في وحدتنا الوطنية بعد احتدام الصراع طويلا بين تيارين أساسيين فيها : السلفية والتحررية ، المحافظة والتقدمية ، الاسلامية والاشتراكية . ولا أقول بين اليمين واليسار . يحدث هذا الحوار بين مجلة « الدعوة » ومجلة « روز اليوسف » كي نعرف أوجه الاتفاق والاختلاف بينهما . هل هناك اختلاف جوهري في الظاهر والباطن أم أن هناك اتفاقا باطنيا وخلافا ظاهريا ؟ لقد آن الاوان أن نعرف الحد الادنى من الاتفاق بين مدارسنا الفكرية المختلفة حتى لو كان بين أكثرها تباينا . ومن يدري؟ فربما عادت الى ثقافتنا الوطنية وحدتها . وبالتالي تقوم وحدة عملنا السياسي على أساس فكري واضح كما يقوم التحالف بين قوى الشعب العامل على أساس مبدئي وليس مجرد تجمع فئوي مظهري . فالوحدة الوطنية ليست مجرد شـــعار أو دعوة أو تمثيل نسبي لها في المؤسسات القومية ، بل هي وحدة تبنى بالحوار بين التيارات الفكرية المختلفة التي هي في

كتب هذا الحوار في الوقت الذي شعرت فيه أن مجلة « روز اليوسف » ومجلة « الدعوة » في أعوام ١٩٧١ — ١٩٨٠ يقولان نفس الشيء من حيث المضمون وان اختلفتا في المنطلق والمنهج . واحترت أن ابدأ هذا الحـــوار ابتداء من « الدعوة » أو ابتداء من « روز اليوسف » . ولكن لم ير المشروع النور وظلت الدعوة الى الحوار بين الفريقين مجرد نداء . وهو السبب الذي من أجله انشأت فيما بعد مجلة مستقلة لذلك هي « اليسـار الاسلامي » عام ١٩٨١ وقد كتبت هذه الصياغة عام ١٩٨٨ ابتداء من المسودة الاولى في السبعينات .

جوهرها تيارات سياسية ، لكل منها جماهيره • وطالما لم يعقد هــذا الحوار فستظل مصر مشطورة الى قسمين ، يتنازعها ربانان ، كل منهما يريد أن يذهب بها الى اتجاه ، خطوة الى الوراء وخطوة الى الامام • ثم توقف عن السير حتى تهوى الى القاع أو يضيع العمر ولم يتحقق شيء • وقد ضاعت الوحدة الوطنية التى قامت به لجنة الطلبة والعمال فى ١٩٤٧ لنفس السبب • ولا نريد أن يكرر التاريخ نفسه •

ان حديث الفرقة الناجية القديم « ســتفترق أمتى الى ثلاث وسبعين فرقة ، كلها فى النار الا واحدة » وهم أهل السنة والحديث أى فرقة السلطان ، انما هو حديث ضعيف يشكك فى صحته ابن حزم لانه ضد روح الامة التى لا تفترق على ضلالة والتى فيها اختلاف الائمة رحمة بينهم • وان الصياغات المتعددة لهذا الحديث بين العام والخاص ، بين الاطلاق والتقييد لتدل على وضع هذا الحديث ضد فرق المعارضة الخوارج والشيعة والمعتزلة لصالح فرقة السلطان أعنى الاشعرية(١) • وفرق اليوم أربعة : الاخوان المسلمون أو الجماعات الاسلامية أو الحــركة الاسلامية أو التيار الاسلامى بوجه عــام ، والشيوعيون أو الماركسيون ، والليبراليون ، والناصريون أو القوميون أو الاشتراكيون • وفى حقيقة الامر يمكن رد هذه الفرق الاربعة الى اتجاهين رئيسيين : الاخوان والشيوعيون • فالليبراليون قد يتحالفوا

---

(١) انظر تحليلا وافيا لهذه الصياغات فى « من العقيدة الى الثورة » ، المجلد الخامس « الايمان والعمل ــ الامامة » ، خاتمة : من الفرقة العقائدية الى الوحدة الوطنية ص ٣٩٣ ــ ٤٠٧ ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ١٩٨٨ .

مع الاخوان . والناصريون قد يتحالوفوا مع الشيوعيون . وبصرف النظر عن امكانيات التحالف من الناحية السياسية الصرفة ، مع أن ذلك واقع فى جيلنا ، الا أن التحالف النظرى وارد نظرا لوحدة الرؤية لكل من فريقى التحالف ، الاقتصاد الحر بين الاخوان والليبراليين ، والاقتصاد الموجه بين الشيوعيين والناصريين .

ولكن يظل السؤال : من الذى يبدأ بالحوار وأين ؟ من الذى يمد يده للمصافحة وفى أى دار ؟ « الدعوة » أم « روز اليوسف » ؟ والحقيقة أن ثورة ٢٣ يوليو مازالت هى المنوط بها عقد هذا الحوار باعتبارها الداعية الى الوحدة الوطنية ، وللتحالف القومى ، وباعتبارها هى القادرة على صهر هذين التيارين ، وباعتبارها هى المعبرة عن مصر وشعبها . فمازال الشعب يذكر نداءها الاول ومبادئها الستة ، وصدها للعدوان الثلاثى ، ووحدتها مع سوريا ، وبناءها الاشتراكى ، ومساندة اليمن ، ومقاومة الاحلاف ، والصمود بعد الهزيمة ، واعادة بناء الجيش، وحرب الاستنزاف ، والاعداد للعبور . وبالرغم من تعثرها بعد ذلك الا أنه لا يصعب اقالتها من عثرتها مادامت قد قامت فى مصر ، واستمرت فى مصر ، وعملت لشعب مصر ، واستلهمت روح مصر .

ويبدو الخلاف بين هذين التيارين الاساسيين فى ثقافتنا الوطنية فى النقاط العشرة الآتية :

١ — القديم أم الجديد ؟ : يبدو الخلاف بين هذين التيارين فى موضوع اللغة . اذ يستعمل كل فريق لغة يرفضها الآخر . ويتم الرفض أساسا من الفريق الاسلامى الذى يرفض أية لغة خارج لغة

العقائد والشعائر • ولا يدرك أهمية ألفاظ الحرية والعدالة الاجتماعية بالنسبة لوجدان العصر • فهو يتحدث ، ويعبر عما يجيش فى نفسه بلغة الدين • ولغة الدين متغيرة حسب العصور • فيمكن أن أعبر عن لفظ « الله » بلفظ العقل ، والمطلق ، واللانهائى ، والصورة كما فعل الحكماء القدماء أو الوجود ، والنور ، والحق ، والحبيب كما فعل الصوفية أو الخالق ، والقديم والواحد كما فعل علماء أصـــول الدين أو الشارع كما فعل علماء أصول الفقه • وكلها ألفاظ للاستعمال • ولما كانت المعركة فى تراثنا القديم مع الملل والنحل القديمـــة فقـــد اضطر القدماء للرد عليها ، واستعملوا لغة العقائد القديمة التى مازلنا نستعملها حتى الآن فى عصر لم يعد عصر الملل والنحل بل فى عصر التحرر والاستقلال والعدالة الاجتماعية • ومن ثم كان أقرب إلى الطبيعة أن تتغير اللغة أيضا وتصبح لغة العصر • فعندما يستعمل الفريق الاول لفظ « الله » مشيرا الى أغلى ما لديه وأعلى قيمه عنده فان الفريق الثانى يستعمل لفظ « الحرية » باعتبارها المطلب الاول للعصر • خطأ الفريق الاول اذن أنه يستعمل لغة قديمة دون أن يبرز فيها مطلب العصر • وقد استطاع سيد قطب فى « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » تجاوز هذا الخطأ وتفسير التوحيد باعتباره تحرر الوجدان الانسانى ، والمساواة الانسانية ، والتكـــافل الاجتماعى ، أى أنـــه استطاع أن يعطى اللفظ القديم المضمون الجديد من مقتضيات العصر ، ومستعملا لغته • ولكن لسوء الحظ لم يكمل أحد من جيلنا ما بدأه سيد قطب • فاذا ما تحدث الفريق الاول عن الدين فان ذلك يعنى الايديولوجية التى يتحدث عنها الفريق الثانى • واذا ما تحدث الفريق الاول عن أمور المعاد أو ما يسمى بالاخرويات ، ما يحدث فى نهـــاية

العالم بعد الموت ، فانه المستقبل عند الفريق الثانى وما سيحدث فى العالم فيما بعد . واذا ما استشهد الفريق الاول بقصص الانبياء فانه هو ما يفعله الفريق الثانى باستشهاده بالتاريخ . واذا ما تحدث الفريق الاول عن الايمان والعمل فهو ما يقصده الفريق الثانى بالحديث عن النظر والعمل . واذا ما تحدث الفريق الاول عن الامامة والخلافة فانه هو ما يقصده الفريق الثانى بحديثه عن الدولة والسلطة . واذا ما تحوث الفريق الاول عن النبوة فان هذا ما يعنيه الفريق الثانى بحديثه عن الزعامة ، وتجنيد الجماهير ، وقيام الثورة ، وبناء الحزب ، وتأسيس الدولة . ولا يعنى ذلك أن المعنى عند الفريقين واحد ، ولكن يعنى فقط أن موضوع الحديث واحد ولكن بلفظين مختلفين . فلا فرق بين أن يقول الفريق الاول « محمد رسول الله » وبين أن يقول الفريق الثانى « محمد رسول الحرية » . فالله هو الحرية . انما الخلاف فى اللفظ « الله » لفظ قديم و « الحرية » لفظ جديد .

تتحقق وحدتنا الوطنية اذن بأن يتخلى الفريق الاول عن اللغة الدينية التاريخية القديمة التى ورثناها من تاريخنا القديم والتى تطلبتها ظروف العصر القديمة ، وبأن يتبنى لغة العصر الحديث والالفاظ التى تثير وجدان الشباب مثل الحرية ، والعدالة الاجتماعية ، والتقدم ، والثورة ، والتغير ، والتنمية ، والاستقلال ، والعالم الثالث ، وعدم الانحياز ، والشعب ، والجماهير ، والتحالف . فهى القادرة على التعبير عن مضمون الاسلام بهذه اللغة ، وهى الاقدر على التعبير عن مصلحة الجماهير خاصة وأن الفريق الاول هو المؤهل لقيادتها .

فهو موضع الثقة من الناس ، يتكلم لغتها • وليس نخبويا يحـدث الناس بما لا يفهون مجتث الجذور ، ألفاظا جوفاء كقرع الطبول •

٢ ـ الاستنباط أم الاستقراء ؟ ونقطة الخلاف الثانيـة تتعلق بالمنهج • اذ يستعمل الفريق الاسـلامى ما يمكن تسميته بالمنهـج النازل • وهو المنهج الذى يبدأ من النص الى الواقعة • وهو ما عرف بطريقة « قال الله » و « قال الرسول » • فالنص حجة للاقناع ، وحكم للتنفيذ • ولكن عيوب هذا المنهج هو أنه يبدأ من خارج الواقع أى لا يتعرض لمشكلة واقعية تحدث فى حياتنا • كما أنه يعتمد على السلطة ، سلطة الوحى ، وليس على العقل • وفى غياب العقل يسود الانفعال • كما أن هذا المنهج كثيرا ما يسىء تفسير النص ، ويخرجه عن سياقه • كما أن اختيار النص يقوم على ما يريد المحاور اثباته ، والمحاور الآخر يجد أيضا نصا فى صفه ، يفسره لصالحه ، ويخرجه أيضا عن سياقه • وينتهى الامر الى معركة بين النصوص وبخلاف فى التفسيرات ، ويصبح واقعنا فيه قولان ! لذلك جعل القدماء كل الحجج النقلية ظنية ، وأن كل النصوص مهما تضافرت على شىء فانها تظل ظنية ، ولا ترتقى الى مرتبة اليقين • فاليقين لا يحدث الا بالعقل •

أما المنهج الثانى الذى يستعمله الفريق المتهم فهو مـا يمكن تسميته بالمنهج الصاعد •وهو المنهج الذى يبدأ من الواقع وبالمصلحة العامة ثم يختار النصوص طبقا لها أو لا يشير الى النصوص بتاتا لما كانت المصلحة العامة هى أساس النص • وقد حدد القدماء مقاصد الشريعة الكلية بأنها تقوم على المحافظة على الدين ، والحياة ، والعقل ، والعرض ، والمال • ولما كنا فى كل يوم نعانى من قضايا مصيرية ثلاثة :

الاحتلال ، والتخلف ، ولامبالاة الجماهير • فان الفريق الثانى يتحدث باستمرار عن تحرير الارض ، وعن القضاء على مظاهر التخلف مثل الفقر فيعمل على تذويب الفوارق بين الطبقات ، والجهل فيعمل على محو الامية ، والمرض فيدعو الى التأمين الصحى • كما يحاول القضاء على سلبية الجماهير وذلك بتبنى مصالحها الاساسية ، والدفاع عنها حتى تعود الى الجماهير ثقتها المفقودة فى العمل السياسى وجدواه • وقد حاول القدماء الجمع بين الحجة النقلية والحجة العقلية • ولكننا نحن مازلنا نتصارع ونختلف ، كل فريق يأخذ بقسم ، ويعارض الفريق الآخـــر •

والخلاف حول المنهج خلاف طبيعى • اذ يتحمس الفريق الاول للنص ، ويتحمس الفريق الثانى للواقع • وقد وقع ذلك أيضـــا بين الصحابة عندما كان أبو بكر يتحمس للنص ، وعمر يتحمس للواقع • وكان الرسول يدعو أبا بكر للنزول قليلا ، وكان يدعو عمر للصعود قليلا • فائدة النص الالتصاق بالجماهير ، وجذب انتباهها ، وشحذ هممها ، والوصول الى قلبها ، واستلهام تراثها • وفائدة الواقع مخاطبة الخاصة بلغة الاحصاء ، وتوجيه العلماء نحو التحليلات الكميـــة • وسبر العلل وتقســـيمها على ما يقول الفقهاء ، وضبط النصـــوص المتشابهة وتأويلها طبقا لاحتياجات الواقع هو الوسيلة للتوحيد بين المنهجين كما فعل الاصوليون القدماء فى القياس الشرعى استنباط العلة من الاصل وهو النص ، واستقراء نفس العلة من الفرع وهو الواقع حتى يمكن تعدية حكم الاصل على الفرع • وقديما حاول الفارابى ذلك بين الفلاسفة فى « الجمع بين رأيى الحكيمين أفلاطون الالهى

وأرسطو طاليس الحكيم » . وهذا هو روح الشافعية الذى يجمع بين أصل الحنفية وواقع المالكية .

٣ — الله أم الانسان ؟ ويحدث خلاف آخر حول الغاية . اذ يصر الفريق الاول على الدفاع عن الاسلام . ويتصور أن الله هو الهدف الاسمى من هذا الدفاع . فيدافع عن حقوق الله ، وعن شريعة الله ، وعن عقيدة الله ، وعن وجود الله ، وعن صفات الله ، وكأن الله فى حاجة الى من يدافع عنه ، وكأنه الله لم يذكر عن نفسه « ان الله غنى عن العالمين » . فيضحى بالانسان وبالواقع كله من أجل الدفاع عن الله فى حين أن الله لا يحتاج الى دفاع ، بل الانسان هو الذى فى حاجة الى دفاع ، وواقعنا هو الذى فى حاجة الى رعاية ، وأمتنا هى التى فى حاجة الى حماية ، وأرضنا هى التى فى حاجة الى نضال . وكثيرا ما يتم الدفاع عن الله بمزايدة فى الايمان . يظن المدافع أنها تعطيه تفوقا على الآخر منذ البداية . وكثيرا ما تخفى اما ضعفا فى الايمان أو نقصا فى العلم أو أخذا بأسهل طرق الحديث . ما أسهل الدفاع عن الله الذى يؤمن به كه الناس ، وما أسهل الحديث فى البديهيات التى لا يعارضها أحد . ونحن نعلم أن الله لم يجعل نفسه موضوعا للحديث أو للدفاع بل تحدث الى الانسان وجعله موضوع حديثه فى الوحى الذى أرسله على لسان الانبياء . فكيف يأتى الفريق الاول ، ويقلب مقاصد الله ، ويغير اتجاه الوحى ، ويأخذ الله موضوعا لحديثه بالدفاع عنه مع أن الله لم يأخذ نفسه موضوعا للحديث بالدفاع عن نفسه ؟ بل ان حديث الله عن نفسه فى الوحى كان من أجل تعريف الانسان به ، وتحرير وجدانه ، واعطائه بعد الشمول ، وكشفه له وجود القيم ، وتمثل المبادىء .

أما الفريق الثانى فانه يبدأ خلافا لذلك بحديثه عن الانسان ، وعن واقع الانسان ، ويحلل الموقف الانسانى فى كل أبعاده الفردية والاجتماعية ، النفسية والجسمية ، السياسـيـة والاقتصادية ، دون مزايدة فى الايمان • فمن له ايمان لا يزايد على ايمان الآخرين ، دون احساس بالنقص • من يعيش فى الواقع وليس خارجا عنه ، ومن يعلم قدراته وامكانياته ، ومن يقوم بواجبه الوطنى لا يشعر بنقص ازاء الآخرين ، بل يكون موضع ثقة من نفسه ومن مجتمعـه على السواء • والانسان لدينا هو الذى فى حاجة الى دفاع • فهو المطحون فى أنظمتنا الوضعية ، وهو المقهور فى نظمنا السياسية ، وهو المستغل فى أوضاعنا الاقتصادية • واقعنا هو الذى فى حاجة الى دفـاع • فالارض محتلة ، والموارد الطبيعية فى حاجة الى استثمار ، والمجتمع فى حاجة الى تنمية • وبالتالى يكون منهج الفريق الثانى أقرب الى منهج الوحى الذى هو أساسا دفاع عن الانسان • فلو أعاد الفريق الاول صياغة منهجه لالتقى بالفريق الثانى ، ولتحققت وحدة المنهج فى ثقافتنا الوطنية بدل هذه الثنائية بين الجامعة الازهرية والجامعة الوطنية ، وبدل هذا الفرق بين علوم الدين وعلوم الدنيا ، بين علوم الغايات وعلوم الوسائل • وبالتالى يبطل اتهام الفريق الاول بالكهنوتية كما يبطل اتهام الفريق الثانى بالعلمانية • فلا كهنوتية ولا علمانية فى الاسلام • لا يمكن الحديث عن الله بدون الانسان ، كما أن الحديث عن الانسان هو فى حد ذاته حديث عن الوحى وهو كلام الله •

٤ — الصورة أم المضمون ؟ وقد يكون الخلاف حول نظريـة التفسير • اذ يفسر الفريق الاول النصوص الدينية تفسيرا صوريا

خالصا وكأن الدين موضوع مستقل بذاته خارج الزمان والمكـــان • وبالتالى تكثر الاحاديث الدينية ، وتزدهر المجلات الايمانية ، ويتبارى الشراح والخطباء فى فهم الدين ، يظهر كل منهم براعته فى الحديث ، وقدراته فى اللغة ، وحفظه للقرآن ، ووعيه بالتاريخ ، ودرايته بالسيرة• ولكن لا توجد اشارة واحدة الى مضمون معاصر أو الى قضية من القضايا المصيرية التى تواجهها البلاد ، وكأن هذه القضايا أقل بكثير مما يثيره الشيخ المفضال •

أما الفريق الثانى فانه يتعامل مع المضمون دون الصورة ، ويعطى تحليلات للواقع ، واحصاءا لمشاكله ، ورصدا لحلوله ، معتمدا فى ذلك على الاحصاء ، وهو علم الواقع • فالواقع مضمون الدين • ويكون الخلاف بين هذا الفريق هو فى مدى التزام كل منهم بالواقع ومدى دفاعه عن الطبقات الدنيا فى مواجهة الطبقة العليا •

هناك اذن خلاف بين الفريقين • وبلغة الاصوليين نقول : اذا كان القياس الاسلامى يقوم على ركائز أربعة : الاصل ، والفرع ، والعلة ، والحكم ، فان الفريق الاول يمكث مع الاصل أى النصوص الدينية التى حوت كل الاحكام وعللها فى حين أن الفريق الثانى يبرز الفرع ، ويبحث عن العلة المؤثرة أو المناسبة أو الملائمة • فالتفســير الصورى لن يغير شيئا لانه لا يتحدث عن واقع معين بل يظل يشرح النص ، ويجعل النص صورة ومضمونا فى آن واحد • أما ابراز المضمون وفهمه فهو الذى يعطى النص مادته وواقعه ومناطه • وبالتالى كان التفسير بالمضمون هو وسيلة تحقيق وحدتنا الوطنية • فكل نص لا يهدف الى معالجة مشكلة واقتراح حل لها يكون تفسيرا صوريا خالصا •

وكل ابراز لمضمون دون ربطه بالصورة الثقافية أو القالب النظرى الشعبى يكون دعوة للعلم فى مجتمع مازال يرى فى التراث علمه وفكره. فالشعارات الدينية وحدها مثل « الله أكبر ، ولله الحمد » ، « الله أكبر ، والعزة لله » ، « لا حكم الا لله » ، « قرآنية اسلامية » صورة بلا مضمون ، يطلقها الفريق الاول دون أن يعطيها مضمونا من واقع المسلمين . « الله أكبر ، ولله الحمد » تعنى لبلد محتل تحرير الارض ، و « الله أكبر ، والعزة لله » تعنى لبلد متخلف التنمية والتقدم ، و « لا حكم الا لله » تعنى لبلد يسوده حكم الفرد ، الحكم الديمقراطى ونظام الشورى ، و « قرآنية اسلامية » تعنى لبلد مشكلته وجود فائض المال فى أيدى الاغنياء وسط أغلبية مقيرة كادحة ، تعنى مساواة اجتماعية ، وعدالة فى توزيع الدخول . فاذا ما ركز الفريق الاول على الشعار ، واذا ما ركز الفريق الثانى على المضمون فان تفسير الشعار بالمضمون هو الذى يحقق وحدتنا الوطنية .

٥ ــ الاطلاق أم التقييد ؟ وهناك اختلاف آخر من حيث الفهم . فالفريق الاول يفهم الاسلام خارج الزمان والمكان . وفى نفس الوقت يوحد بين فهم معنى للاسلام وهو الاسلام التاريخى كما ورثناه من أهل السنة وبين الاسلام العام . وبالتالى يرتكب خطأين . فالاسلام ليس دعوة خارج الزمان والمكان بل دعوة فى زمان معين بعد اليهودية والمسيحية فى أول القرن السابع الميلادى فى الجزيرة العربية حيث تتناحر القبائل وبين امبراطوريتى الفرس والروم المتداعيتين واللتين أنهكتهما الحروب ، تهدف الى تحرير الشعور الانسانى . وبالتالى ما كان يمكن للاسلام أن يظهر بدل اليهودية فى وقتها أو بدل المسيحية فى زمانها . ووجود الناسخ والمنسوخ هو اثبات آخر لعامل الزمان

والتطور • هذا هو الفرق بين الوحى والرياضيات • فالوحى مبادىء عامة لكنها تظهر فى الزمان فى حين أن المبادىء الرياضية صـورية خالصة لا تحتاج الى زمان • والخطأ الثانى هو التوحيد بين هـذا الاسلام العام وبين الاسلام التاريخى الذى ورثناه من أهل السنة والذى تمت صياغة عقائده وشرائعه على يد الاشاعرة • فظهر التركيز فى العقائد على الالهيات نظرا لان المعركة قديما كانت فى الالهيات • فقد ظهر الاسلام فى عصر ازدهرت فيه الملل والنحل والفرق الدينية القديمة • فكان لابد للاسلام أن يدخل معركة العقائد • وقد دخلها بالفعل ، وانتصر فيها باعلان التوحيد الصافى الخالص الذى لا تشوبه شائبة من تجسيم أو تشبيه • ولم تكن هنـاك حاجة الى تأسيس « لاهوت الارض » فقد كانت الامة الاسلامية منتصرة ، وكـانت الجيوش الاسلامية تجوب البلاد شرقا وغربا • ولم تكن هناك حاجة الى تصور « لاهوت التنمية » أو « اللاهوت السياسى » لان النظام الاجتماعى السائد كان على أعلى درجة من الترشيد للحياة الاقتصادية• وكانت الجماهير غازية فى سبيل الله ، ليست بحاجة الى تأسيس حزب لها • ولم تكن هناك حاجة الى وضع « لاهوت الثورة » لان المسلمين كانوا ثوارا بالفعل ، ولا يؤسس الانسان الا ما يحتاجه ، ولا يفكر الا فيما يطلبه •

أما الفريق الآخر فانه يركز على ضرورة صياغة دعوة لزمـان معين ومكان معين • فهو يريد نظاما لمصر تحل فيه قضايانا المصيرية : الاحتلال ، والتخلف ، وسلبية الجماهير • يريد حل اشكال جيلنا • وبالتالى ظهرت نزعته التاريخية ، وذكر التطور والتقدم ودور الاجيال ، وحصر المشاكل ، وقدم الحلول • لا يعنى ذلك شيوعية أو الحادا أو

مادية ، ولا يعنى انكار الاسلام العام ولكنه يرتبط بالواقع . ويريد تحديد مهمة الجيل الحاضر ، كما يحدد دور الاسـلام التاريخى فى المرحلة الحاضرة ، وكيفية معالجته لقضايا العصر الاساسية ، وتميزه عن أيديولوجياته ، وقدرته على صياغة قضاياه وأيدولوجيته دون أن يأخذ موقف الدفاع عن الذات أو الهجوم على الآخرين . فما يتركه الفريق الاول على مستوى المبدأ يحققه الفريق الثانى على مستوى الواقع . وما يتركه الفريق الثانى على مستوى الواقع يحققه الفريق الاول على مستوى المبدأ .

إن ما يهمنا الآن هو قضايا عدم الانحياز ، والتحرر ، والتنمية ، والعدالة الاجتماعية ، وتذويب الفوارق بين الطبقات . ليس المهم أن تبدأ النظريات السياسية ولا يكون الاسلام الا تابعا ومقارنـا ومكتشفا لذاته بل أن يكون بادئا وواضعا ومؤسسا . لقد ظل الفكر الدينى متهما دائما بأنه يتسلق باستمرار على أكتاف الآخرين . تتم الوحدة الوطنية اذن اذا ما حصر الفريقان مشاكل العصر فى الزمان والمكان ، وقدما الحلول ، دون الاكتفاء بالاعلان عن المبادىء أو تسجيل المواقف .

٦ ــ النظر أم العمل ؟ ويبدو الخلاف بين الفريقين فى أن الاول لا يميز بين العقيدة والشريعة ، ويجعل الاختلاف فى العقائد أى فى النظريات أساس الاختلاف فى العمل . وبالتـالى حدثت الاختلافات عللى المستوى النظرى وتركنا واقعنا كما هو بمشاكله وبأزماته لنتناقش فى المادية والالحاد ، والعلم والايمان ، والاشتراكية والرأسمالية ، ونتكلم عن النظريات ونختلف فيها والاحتلال قائم ، والتخلف سائد ،

والجماهير سلبية . وغالبا ما تكون هذه النظريات مشوهة فى الثقافة الشعبية من خلال أجهزة الاعلام تحت سيطرة نظم الحكم ، يساء فهمها عمدا أو عن غير عمد . تقوم على الافكار الشائعة التى تروجها النظريات المضادة . فنقع فى حبائل الاستعمار الثقافى ، والتشويه الفكرى المقصود . فى حين يركز الفريق الثانى على أهمية العمل وعلى احتمال اختلاف الاطر النظرية مع وحدة العمل حتى عرف عنه أنـــه تيار عمل ، يؤثر العمل على النظر ، وأنه حركى نشط ملتزم بقضايا الجماهير . فاذا كان النظر يفرق فان العمل يوحد . واذا كان الفريق الاول قد خلط بين العقيدة والشريعة فان الفريق الثانى قد فصـــل بينهما . ومع ذلك تتحقق وحدتنا الوطنية على وحدة العمل واختلاف النظر . وقد عرض لذلك فقهاؤنا القدماء عندما سلموا بوجود اجتهادات كثيرة حول عمل واحد . فوحدة العمل يقابلها تعدد النظر . مقاومـــة الاحتلال لا خلاف عليها مهما تعددت النظريات . وتحقيق العـــدالة الاجتماعية لا خلاف عليه مهما تباينت النظريات . يتطلب واقعنـــا وحدة عمل أكثر مما يتطلب خلافا حول نظريات تحقق وحدتنا الوطنية اذا أمكن صياغة برنامج عمل وطنى موحد تتفق عليه كل التيارات الاساسية فى ثقافتنا الوطنية .

٧ ــ الكل أم الجزء ؟ ويبدو الخلاف بين الجناحين الرئيسيين فى حياتنا القومية فى التطبيق ، وأسلوب العمل ، وطريقة الممارسة . فبينما يريد الفريق الاول تطبيق الكل دون الجزء فانه يبدأ بادانة كل ما هو موجود مطالبا بهدمه حتى يعيد البناء كله من الالف الى الياء . منطلقه هو الكل أو لا شىء ، وقسمة العالم الى عالم الكفر

وعالم الايمان ، وقسمة الديار الى دار الحرب ودار الاسلام حتى لقد اتهم هذا الاتجاه بالعداء للواقع ، والعدوان على الناس ، والخروج على الامة ، وممارسة أساليب العنف ، وتدبير الانقلابات ، والقيام بالاغتيالات السياسية . ينشأ هذا الاتجاه من بناء نفسى لجماعة محاصرة ، لا تعمل بطريقة طبيعية ، يتربى لديها العداء لكل ما هو موجود . فى حين أن الوحى قد أخذ بأسلوب التدريج والمراحل ، وتطوير الواقع شيئا فشيئا سواء على مستوى تطور الوحى ككل من نبوة الى نبوة أو على مستوى تطور التشريع الاسلامى من منسوخ الى ناسخ . فقد ساهمت اليهودية فى تقدم الانسانية عن طريق تعود الوعى الانسانى على طاعة القانون ضد العصيان . وساهمت المسيحية فى تقدم الانسانية بتعميق البعد الروحى للانسان ضد صورية القانون اليهودى وبطش الرومان . ثم أتى الاسلام من أجل أن يحقق على مدى ثلاث وعشرين عاما بداية بتربية الرجال ، وتوسطا ببناء الحزب ، ونهاية باقامة الدولة .

أما الفريق الثانى فانه نظرا لاحساسه بالتاريخ فانه يفكر مرحليا ، ويعمل على تحقيق أهدافه جزئيا . وبالتالى فهو صديق الواقع ، وأليف الناس . يفرح بتحقيق جزء ، ويحزن لما تبقى ، لا أن يعبس دائما لان الكل لم يتحقق بعد . لذلك أمكن الفريق الثانى الحوار مع المناهج الاخرى ، والتعاون معها على تحقيق الاهداف المرحلية فى حين تصلب الفريق الاول ، وكفر كل الفرق الاخرى التى لا تشارك معه فى تحقيق الكل . فمحاولة تحقيق الكل أو لا شىء مضيعة للوقت ، وضياع العمر ، وهدم لما هو موجود ، وعدم اعطاء البديل واما الانعزال عن الواقع ، وتكوين جماعات التكفير والهجرة . فى حين أن التحقيق

المرحلى هو الموقف البنـــاء . لم يأت الاسلام هادما لليهـودية أو المسيحية أو ناقما على كل شيء فى الجزيرة العربية ، بل أتى مصلحا ومغيرا ، مثبتا ونافيا . فبين المستكين والشهيد هناك المصلح الذى لا يفسد فى الارض . ورسالة الاسلام رسالة الاصلاح . وهنا يمكن لوحدتنا الوطنية أن تتحقق .

٨ ـ الفرد أم الجماعة ؟ كما يختلف الفريقان فى منظور التطبيق ومدى ضيقه أو اتساعه . يتصور الفريق الاول أن تطبيق الاســلام يأتى أولا بتطبيق الشعائر ثم تقليصا فى قوانين الاحوال الشخصية والاحكام الفردية أو ما يسمى بمبادىء الاخلاق الاسلامية . وبالتالى يظهر النقاب كحد فيصل بين السلوك الاسلامى والسلوك غير الاسلامى. وكى تحمى الدولة نفسها من خطر هــذا الفريق ، وتزايد عليــه فى الايمان ، تكثر من بناء المساجد ، وتنشط البرامج الدينية فى أجهـزة الاعلام ، وكلها تدعو الى الفضــيلة ، والاخلاق ، وتنعى الفســاد والانحلال . وغالبا ما تتركز الاخلاق فى علاقة الرجل بالمرأة بل وفى المرأة وحدها . فالرذيلة عريها ، والفضيلة فى غطائها . وبالتالى يقوم التطبيق كله على تصور جنسى للعالم ، تعبيرا عن الكبت الذى يتحول الى اشباع بمجرد الحديث عنه والتفكير فيه حتى ولو بطريق الرفض وبأحكام التحريم . ويصاحب ذلك تحريم الخمر والقمار والاختلاط . وهكذا يركز الفريق الاول همه كله فى موضوع الجنس بوجه خاص ، وفى المحرمات بوجه عام . وبالتالى يظهر الدين على أنه فى جانب والواقع الانسانى فى جانب آخر ، وأن الدين أتى لمقــاومته وليس للتعبير عنه ، وكأن الحياة الخلقية لا تتحقق الا بهذا الصراع الداخلى بين الخير والشر أى بين الدين والغرائز ، وهو حيلة العاجز المحروم

الذى لا يرى أبعد من أنفه ، ويحقق اشباعه بالوهم والتمنى . الاسلام نظام كلى اجتماعى أساسا يهدف الى تكوين مواطن ، وتأسيس دولة . فهو أوسع رحابا وأفقا من تركيزه على الجنس والاخلاق الفردية .

أما الفريق الثانى فانه يكسر هذا النطاق ، ويفك هذا الحصار ، ويخرج من نطاق الاخلاق الجنسية الضيقة الى ميدان الاجتماع والسياسة الرحب . يتحدث عن المرأة العاملة المنتجة ، وليس عن سفور المرأة العارية . يتحدث عن الانسان من حيث هو انسان بصرف النظر عن تصنيفه الجنسى الى ذكر أو أنثى . كما يتحدث عن الميول والرغبات والغرائز باعتبارها جزءا من طبيعية الانسان خارج نطاق الحلال والحرام ، مثل الشعر والفن والادب والجمال . واذا أراد التغيير فانه يعتبر قانون الاحوال الشخصية جزءا من قانون عام آخر وهو النظام الاجتماعى السائد ، وعلاقة الانسان خارج الاسرة فى المجتمع العام وليس داخل الاسرة فى المجتمع الخاص . واذا أراد أن يفسر الظواهر فانه لا يلجأ الى التفسير الفردى الخلقى بل يلجأ الى التفسير الاجتماعى السياسى .

تتحقق وحدتنا الوطنيــة اذن اذا ما ركزنا الجهــد على تغيير أوضاعنا الاجتماعية . فالاخلاق ما هى الا سلوك اجتماعى . وقد طغت على تفسيرنا للنصوص الدينية النظرة الفردية كما نفعل فى آية « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » مع أن آيات أخرى تبدأ بالواقع وتثنى بالنفس مثل « وفى الارض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون » . ان تغيير الافراد ضرورى فى البداية من أجل بناء الكوادر السياسية والطليعية الواعية . ولكن تغــيير

الأوضاع الاجتماعية ضرورى فى النهاية فى مرحلة تأسيس المجتمع وبناء الدولة • الافراد طيبون فى مجتمعنا ولكن ما ينقصهم هو النظام الاجتماعى الذى يعملون فيه •

٩ - الواجبات أم الحقوق ؟ ويبدو الخلاف أيضا بين الفريقين فى أولويات التطبيق • اذ يركز الفريق الاول على أهمية الحدود والعقوبات ، وأن الانسان مستهدف ، معاقب ، مجازى ، يقف الله والسلطان له بالمرصاد ، بقطع اليد ، وبالرجم ، وبالجلد ، وبالتغريب • فيظل العقاب شبحا يطارد الانسان أينما حل ، وكأن الدين لم ينزل رحمة للعالمين ، وكأن الله ليس أرحم بعبده من الام بولدها • فى حين أن الشريعة قد وضعت الحدود بعد الحقوق وليس قبلها • يأخذ الانسان أولا حقه فى العمل والكسب ، فى المأكل والمشرب ، فى الملبس والمسكن ، فى الرعاية والعناية ، فى التعبير والمشاركة قبل أن تطبق عليه الحدود • لا توضع العربة أمام الحصان • قبل أن يطالب الانسان بواجباته علينا أن نعطيه حقوقه • وقبل أن تطبق الحدود والعقوبات على المحرمات علينا أولا التمتع بالمباحات ، وبيان أوجه النفع التى تعود على الانسان من القانون ، وليس وجه العقوبة فيه • العقوبة وسيلة لا غاية • وكثيرا ما تتحقق الغايات بوسائل أخرى • تتوقف الحدود ولا تتوقف الحقوق •

أما الفريق الآخر فيركز على حقوق الانسان ونضاله فى سبيلها قبل تطبيق الحدود عليه ، وعلى أن القانون تعبير عن مصالح الناس وبالتالى فلا يعصاه الانسان اذا كان معبرا عن مصلحته • وكيف نطالب بتطبيق الحدود فى مجتمع لم يحصل الانسان فيه على حقوقه ؟ فليكن

لكل انسان عمله وقوت يومه ثم بعد ذلك نفكر فى حد السارق • وليقم المجتمع على ترسيخ الفضيلة ، واشراك الجماهير فى تحقيق المشروع الوطنى ، وترك الاشارة بيده والتلويح بالعقاب باليد الاخرى • فرحابة الافق ، وسعد الصدر ، واحترام الانسان هو الموقف الطبيعى وليس ضيق الافق ، والحنق ، واحتقار الانسان ، والتمتع بتعذيب الآخرين ، وسادية دعاة تطبيق الحدود بلا شروط تتوافر أولا •

تتحقق الوحدة الوطنية اذن اذا ما أعطينا الانسان حقوقه أولا ثم طالبناه بواجباته ثانيا • وقد يطول موضوع الحقوق ، ولا نحتاج على الاطلاق لتطبيق الحدود التى كانت تهدف الى مجرد الردع • فكلما تحطمت قوة الردع كان المجتمع أقرب الى العدالة والاستبصار • ولم التخويف ؟ الافضل أن يأتى الاسلام محمولا على الاعناق وتحت الحاح الجماهير وطلبها بعد أن سمئت من الايديولوجيات العلمانية للتحديث بالطريق الديمقراطى الحر لتحقيق مصالحهم ، وتلبية حاجاتهم ، وقضاء مطالبهم وليس لقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وصلبهم على جذوع النخل وكأنهم قطاع طرق •

١٠ — التعصب أم التسامح ؟ وقد يكون الخلاف أخيرا فى روح كل فريق • فالفريق الاول يؤثر المنغلق على على المنفتح ، والتعصب دون التسامح ، والغرور بعيدا عن التواضع • هو منغلق لانه يشعر بأنه مكتمل الذات ، لا يحتاج الى الآخرين • احتوى كل شىء ، وان ما لديه هو الحق ، وليس لدى الآخرين الا الباطل • ينغلق على نفسه ، مكتفيا بذاته حتى يضمر ويتحجر ويتصلب ، فيتعصب ولا يتسامح ، ويضيق خلقه ، ويحنق ويغضب ، ويحتد ويتشنج • ولماذا لا تأخذه الحمية فى

الدين ، والغيرة على الله ؟ وهو فى هذا كله يركبه الغرور • فهو فارس الله الاوحد فى الميدان • وهو القيم على هذا الدين ، وهو الاقرب الى الله • وبالتالى ينفر الفريق الاول الناس منه مع أنه فى الوحى « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » وأيضا « أشداء على الكفار ، رحماء بينهم » •

أما الفريق الثانى فانه يؤثر المنفتح على المنغلق ، والتسامح دون التعصب ، والتواضع بعيدا عن الغرور • فهو لا يخشى الآخرين بل يعتبر تجربته تراكما لتجارب التاريخ وجزءا من تاريخ البشرية العام • يستفيد من التجربة ، ويكيف نفسه طبقا للواقع ، ولا يفرق بين مجتمع ومجتمع أو حضارة وحضارة أو تراث وتراث • يقبل الحوار والمناقشة ، ويقبل المراجعة والنقد ، لا يفرض وصاية على أحد ، ولا يعطى لنفسه دورا فى التاريخ السابق عليه واللاحق له • فلكل جيل رسالة • وتكون الجماهير وحرية الشعوب هى وحدها الباقية على مر التاريخ • وتكون هذه الحركة ذاتها هى هذا التيار المستمر الذى تساهم فيه كل تجربة تاريخية بنصيب • على هذا النحو تتحقق وحدتنا الوطنية •

وفى النهاية قد يقال ان هذا التصوير للفريقين يتضمن انحيازا لفريق دون آخر ، للفريق الثانى دون الاول ، واننى قمت برسم صورة « كاريكاتيرية » للفريق الاول أقرب الى السخرية منها الى الحقيقة واننى رسمت صورة « وردية » للفريق الثانى جعلته أقرب الى المثل الاعلى ، واننى أصدر حكما باطنيا على الاول بأنه شر وعلى الثانى بأنه خير ، وبأن الاول على خطأ والثانى على صواب ، وأن الحوار عندى يعنى أن يتنازل الفريق الاول عن موقفه ليلحق بالثانى ، وأن التنوع فى كل فريق

ووجود أجنحة فيه تجعل هذا التقابل بين نموذجين كليين غير علمى وغير صحيح ، فهناك يسار اسلامى منفتح ، وهناك يمين تقدمى منغلق ، هناك اســـلامى جديد ، وتقدمى قديم ، هناك اسلامى اســـتقرائى ، وتقدمى استنباطى ، واسلامى يدافع عن الانسان ، وتقدمى يدافع عن الحزب ، واسلامى ذو مضمون ، وتقدمى صورى ، واسلامى متعين الزمان والمكان وتقدمى مطلق طوباوى ، واسلامى عملى وتقدمى خيالى ، واسلامى فقيه يرعى مصالح الناس وتقدمى راديكالى يقع فى جدل الكل أو لا شىء ، واسلامى جماعى وتقدمى أنانى ، واسلامى يرعى الحقوق وتقدمى يلتزم بعقوبات الحزب ، واسلامى متسامح وتقدمى متشنج ، وأن الحركـــة الاسلامية متطورة فى التاريخ بدايتها المنفتحة المجددة الانسانية غـــير نهايتها المنغلقة السلفية التى تركز على الحاكمية ، ويكفى فى ذلك تطـــور سيد قطب من النوع الاول الى النوع الثانى ، وأننى ضخمت عيوب الفريق الاول وصغرت مزاياه وأننى على العكس ضخمت مزايا الفريق الثانى وقللت عيوبه ، وأننى على هذا النحو أعير بمعيارين ، وأقيس بمقياسين مما ينافى أصول العدل ونزاهة القضاء • وعلى الرغم من قوة هـــذه الاعتراضات وامكانية الرد عليها بل واجراء بعض التعديلات عليهـــا توخيا لمزيد من الدقة فى عرض كل من الموقفين الا أن الغاية من هذا التعميم هو اثارة الاذهـــان ودعوة كل فريق للرد والاعتراض على صورته المرسومة حتى يحاول تصحيحها أولا ثم رسم صورة للآخر ثانيا • فرؤية النفس ورؤية الآخر بداية لاجراء الحوار •

ان الغاية من رسم هذه الصورة العامة لكل من الفريقين على الرغم من عدم دقتها هو الدعوة الى اجراء حوار حول الوحدة الوطنية •

وأرجو أن يكون لهذا الحوار صدى فى ثقافتنا القومية ، وأن يدخل فيه كتاب مجلة « الدعوة » ومفكروها بعد أن يبدأ كتاب « روز اليوسف » • وقد يتحول الاخوة الاعداء فى النهاية الى أخوة أصدقاء ، ونكون بذلك قد أرسينا قواعد الوحدة الوطنية • فلا يوجد حوار بين طرفين الا وتتم الوحدة بينهما بالرجوع الى طرف ثالث يحتكم اليه المتحاوران • وهذا الطرف الثالث هو مصر التى منها نبدأ واليها ننتهى •

ضرورة الحوار

أولا ـــ مقـــــدمة :

نحن أمة واحدة ، ننتسب الى وطن واحد ، داهمنا الاستعمار ، احتل الارض ، ونهب الثروات ، واستلب العقول ، فخيم التشتت ، وافترقنا شعبا وأحزابا « كل حزب بما لديهم فرحون » . والسؤال : لماذا الفرقة ؟ وعلى أى شىء نختلف ؟ ومن الخاسر ومن الكاسب ؟ ألسنا كلنا خاسرين ؟

لقد كان التعدد أحد مظاهر نهضتنا الاسلامية الاولى . وكانت الفرق الاسلامية كلها ، فى الاصول أو فى الفروع ، تجتهد رأيها قبل حديث « الفرقة الناجية » وتكفير اجتهادات الامة ، وهى فرق المعارضة لحساب الفرقة الناجية وهى فرقة « الحكومة » ، فرقة السلطة القائمة . مع أنه فى أصول الفقه ، منطق الامة ومنهج فكرها ، أجمع الفقهاء على أن الحق النظرى متعدد وأن الحق العملى واحد أى أن الاجتهادات النظرية كلها ممكنة ، مادامت كلها تؤدى الى المصلحة العامة ، وأن اختلاف الاطر النظرية وارد مادامت كلها تهدف الى وضع برنـــامج عملى واحد للفرد وللجماعة . لذلك كان خبر الواحد ظنيا فى النظر ، يمكن أن تحدث فيه الاختلافات من حيث الصحة التاريخية وبالتالى

كتب ذلك عام ١٩٨٣ أثناء وجودنا بالمغرب مشاركة فى الحـــوار القومى فى مصر وفى المغرب ولكنه لم ينشر حتى الآن .

الصدق النظرى ، ولكنه يقينى فى العمل به صالح الناس فيما تعم به البلوى . لذلك أيضا كان للمخطىء أجر وللمصيب أجران ، وكانت الاعمال بالنيات .

فلماذا اذن التخوين المتبادل ؟ ولماذا اشهار سلاح التكفير فى وجه بعضنا البعض ؟ ولماذا اتهام بعضنا بعضا بالفسق أو النفاق ؟ ولماذا افتراض سوء النية فى عقل الامة وقصدها ، وأن التاريخ ما هو الا حلقة متصلة من المؤامرات التى دبرها ذوو السوء ؟ فمن منا يبغى بالاسلام أو بالمسلمين شرا ؟ أليس الاسلام تراثنا وروحنا ، ماضينا وحاضرنا ، تاريخنا ومستقبلنا ؟ ألم يشكل الاسلام حياتنا ، وكان وراء كل روافدنا الفكرية بالرغم من تباينها ؟ ولماذا لا يفترض كل منا حسن النية فى الآخر « يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم » (٢٦ : ٨٩) ؟

فيم الخلاف ، والمخاطر واحدة ، تهدد الجميع ، لا فرق بين حركة اسلامية محافظة ، وحركة علمانية ثورية ؟ وهل فرق الغزو الصهيونى للبنان بين اسلاميين وعلمانيين ، بين سنة وشيعة ، بين سلفيين وثوريين ؟ ألم يعارض كلاهما التسليم بالصهيونية والاعتراف بها والتفاوض معها ؟ ألم يصاحب ممثلوا الحركتين بعضهم بعضا فى السجون والمعتقلات ، وعانوا معا غياهب الجب ونوم الحصير ؟ ألم تختلط دماهما معا على أرض فلسطين ؟ ألم تئن الحركتان معا من سوء توزيع الثروة ، وتعمل كل منها على توزيعها بما يحقق مزيدا من العدالة الاجتماعية والمساواة ؟ ألا يبغى كل فريق وحدة الامة بشكل من الاشكال ، وحدة عربية ، وحدة اسلامية ، وحدة للمضطهدين فى كل مكان ؟ ألا يطالب كلاهما بوحدة الامة واستقلالها عن الشرق والغرب ،

حفاظا على هويتها ورفضا للدخول فى سياسة الاحلاف ومناطق النفوذ ؟ ألم يكن الشهيد « سيد قطب » محورا للحياة الوطنية ، يجتمع فيه التياران المتخاصمان ، يكتب عن « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » ويتحدث عن البطون الجائعة فى « معركة الاسلام والرأسمالية » ، ويؤسس حركة السلام العالمى فى « السلام العالمى والاسلام » ؟ وما هو العالم الافريقى الاسيوى ؟ أليس هو العالم الاسلامى ؟ وما هى شعوب العالم الثالث أو دول عدم الانحياز ؟ أليست هى الشعوب والدول الاسلامية ؟ لقد اختلفت الاسماء والمسميات واحدة . مما يدل على أن الخصام بين الاخوة الاعداء انما فى بعض حالاته قد يكون بسبب اللغة والمفاهيم أكثر منه بسبب التصورات والاشياء ذاتها . انه لا يجوز خصام الاخ لاخيه أكثر من ثلاث ليال . وها نحن جيل بأكمله يخاصم بعضنا بعضا ، ويعتبر كل منا الآخر عدوه اللدود ، ويقف له بالمرصاد ، ويجرحه ، ويتربص به ، ويرفض أى محاولة للاقتراب منه ، ولا يغفر له هفواته أو خطاياه . لا يرى كل منا من الآخر الا سلبياته وعيوبه وكأنه هو الكامل الاوحد الخالى من كل العيوب « ومن كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر ! » .

فلنرجب الحوار هذه المرة بدل التكفير والملاعنة والتخويف والشك وسوء الظن ، فلنجرب الحوار الهادىء الموضوعى الرصين . فلربما ، على أيدينا ، تندمل جراح الامة ، وتعود اليها وحدتها . وهل مازالت نار الفتنة الاولى فى قلوبنا لم تنطفىء بعد ؟ ولماذا يبقى الغل فى الصدور ؟ ولماذا لا نتمثل المؤاخاة بين المهاجرين والانصار ؟ ألا يعبد كلانا الها واحدا ؟ ألا يقرأ كل منا « وان هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون » (٢٣ : ٥٢) ؟ ألا يتلو كل منا « والهنا والهكم

واحد ونحن له مسلمون » (٢٩ : ٤٦) ؟ انه ليس عجبا أن يتوحد قصد الامة ، وتوحد فرقها ، وانه لا يدرك الوحدة الا غير المسلم الذى يقول « أجعل الآلهة الها واحدا ، ان هذا لشىء عجاب ! » (٣٨ : ٥) • وأيهما أفضل ؟ أن نتفرق شيعا وأحزابا تداعى الاعداء علينا ، هذا اليوم ، وذلك الغد ، أم نسعى الى وحدة الامة بادئين بوحدة القصد والغاية ؟ « أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ » (١٢ : ٣٩) •

اننا لا نبغى من الحوار الرد على أحد ، فالرد على الآخر هو أسوء أنواع الحوار • فمن خلال الرد يضيع الموضوع ، وتزداد الانفعالات ، وتتشخص المواقف ، وتتباعد الآراء ، وتضيق النفوس ، وتتبادل الاتهامات ، كل فريق يود الانتصار وهزيمة الآخر ، فقسمنا أنفسنا فريقين عدو وصديق • انما نعرض فكرا اسلاميا بناء على متطلبات الحاضر ، وتلبية لحاجات الامة ، قد يلقى الاتفاق من الجميع ويرضى بها جناحا الامة :الحركة الاسلامية والحركة العلمانية • حتى الآن ، لم يحاور كل منا الآخر • فقد أصبح الخصام موقفا مبدئيا أو مقدمة بديهية أو مسلمة منطقية لا تخضع للنقاش • لقد حاول كل فريق أن يرسم للآخر صورة «كاريكاتورية» حتى يسهل نقده • فالحركة الاسلامية فى ذهن التيار العلمانى رجعية سلفية محافظة ، تتجه الى الماضى ، شكلية هامشية تعطى الاولوية للشكل على المضمون ، ترفض الدخول فى تحديات العصر • والحركة التقدمية فى ذهن التيار الاسلامى الحاد وكفر وعمالة وموالاة للاجنبى ، وعلى أكثر تقدير نفاق وتشدق بالدين والباس التقدمية ثوب الاسلام ، والاسلام منها براء • وكلنا يعلم مدى خطأ هاتين الصورتين الحزبيتين ، وكأن كل فريق يحارب عدوا

خلقه بنفسه ، وشخصه بفكره والا فمن يقتل ؟ ومن يبارز ؟ وعلى جثة من يقف رافعا رأسه الى أعلى ، هازا بيده سيف الانتصار ؟

ولماذا يسىء الظن كل فريق بالآخر وجهاده فى تاريخنا المعاصر شاهد للعيان . فباسم الاسلام قامت الحركة الاصلاحية ، وشكلت أهم رافد فى النهضة العربية المعاصرة . وكانت « العـــروة الوثقى » و « المنار » مدارس لتربية أجيال من المفكرين والادباء والسياسيين . وكانت الحركات الاسلامية فى العـــالم الاسلامى كله التى ناهضت الاستعمار وعملت على استقلال الاوطان سلفية ، المهدية فى السودان ، والسنوسية فى ليبيا ، وجمعية علماء الجزائر ... الخ . فالحركـــة الاسلامية أحد منابع الحركة الوطنية . ومن ينكر ذلك ؟ كما أن الحركة التقدمية العلمانية كانت أحد جذور نضالنا الوطنى . فمن خلالها قامت الحركات العمالية والتنظيمات النقابية والاتحادات الطلابيـــة والاحزاب الوطنية بل والثورات العربية ، بل وحكمت الليبراليـــة باسمها فى الجيل الماضى . وقد كانت مرادفة أحيانا للحركة الوطنية ولتاريخنا الوطنى الحديث كله . وبالرغم من غربتها الا أنها قاومت الاستعمار ، وعلى أيديها نالت أوطانا الاستقلال فى مصر وســوريا ولبنان والعراق وتونس والجزائر والمغرب . اذن فرصيد كل فريق ضخم فى أجيالنا الحاضرة ، مما يمنع سوء النية بأحدها أو بغى الشر بها أو الترصد لها ، فشواهد التاريخ أقوى من جيل الافراد .

ومما لا شك فيه أن « الاخوان المسلمين » هى كبرى الحركات الاسلامية المعاصرة ، ان لم تكن الحركة الام التى منها خرجت ، كفعل أو كرد فعل ، كل الجماعات الاسلامية المعاصرة ، والتى مازالت تلاقى

نجاحا بين الشباب واحتراما بين المواطنين ، وتقديرا من الخصوم ، ورهبة فى قلوب الاعداء . مازالت صامدة بالرغم من قــرار الحل وما وقع لها من تعذيب واضطهاد على مدى ثلاثين عاما هو عمر الثورة العربية فى انتصاراتها وهزائمها ، ابان مدها أو جذرها . والحركــة العلمانية تتمثل فى الليبرالية والناصرية والماركسية ، لكل منها رصيده الضخم فى تاريخنا المعاصر . فقد قامت دولنا الحديثة على الليبرالية حتى قيام الثورة العربية أى الناصرية . وكانت الماركســية جناحا رئيسيا مثل الجناح الاسلامى ، يساهم فى الحركة الوطنية قبل الثورة العربية وبعدها بالرغم من فترات الاضطهاد والتعذيب التى مر بها أسوة بالجناح الاسلامى . ومازالت هذه الحركات الثلاث حاضرة فى النفوس تتحدى أى تيار آخر ، تنحو نحو الوحدة مرة ، وتتعثر مرات أخــرى .

ولما كان لكل حركة مميزاتها وعيوبها ، كمالاتها وأوجه نقصها ، فالكمال لله وحده ، كان على كل فريق أن يعى بها حتى يمكنه معرفة مواطن قوته ، ومظاهر ضعفه ، فيزيد من الاولى ، ويتجاوز الثانية ، فيحيل ضعفه قوة . وعلى هذا النحو تعود الى الامة وحدتها ، ويكمل كل فريق أوجه نقصه من كمالات الآخر حتى تظهر كمالات الفريقين معا كعناصر قوة فى الامة . فقد نشأت عيوب كل فريق ردا على عيوب الفريق الآخر . ولما كان مجموع خطأين لا يكون صوابا ، تكون مهمة الحوار العودة الى الوحدة المفقودة بالعودة الى الاشياء ذاتها . ومن يدرى فلربما وجد كل فريق الآخر أقرب اليه من نفسه « وفى الارض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

ثانيا — مميزات الحركة الاسلامية وعيوبها .

(أ) مميزات الحركة الاسلامية .

مما لاشك فيه أن الحركة الاسلامية المعاصرة تتمتع بمميزات عديدة جعلتها فى مقدمة الحركات الفكرية والسياسية الحديثة والتى تمثل قطب جذب رئيسى فى وجداننا المعاصر . وهى مميزات عديدة على رأسها :

١ — الغيرة على الاسلام ، والحماس لــه ، والحرص على تراث الامة ، وشخصيتها المستقلة ، والدفاع عن هويتها ضد التغريب ، والابقاء على التواصل ، والتجانس بين الماضى والحاضر . وعلى هذا النحو تأمن الامة من الانقطاع والردة والتغريب . وهذه ميزة الاقتداء بالسلف الصالح والالتزام بالسنة والاحساس بالاصالة ، والبداية بالانا فى مقابل الآخر كرد فعل على الحركة العلمانية التى كانت ترى فى الانا مرآة الآخر ، وتأخذ الآخر نمطا للتحديث فاستبدلت تقليدا بتقليد ، تقليد القدماء بتقليد المحدثين .

٢ — صياغة فكر اسلامى بسيط يقبله الجميع ، يفهمه الصغار والكبار ، يعقله المثقفون وغير المثقفين بعد اسقاط الخلافات القديمة ، واستبعاد الهوامش والحواشى والشروح ، وتخليص التراث مما علق به من نظريات قديمة ارتبطت بظــروف عصرها وبيئاتها الثقافيــة القديمة ، فلم تعد بذى دلالة حاضرة فى النفوس مثل الفيض والصدور والعقول العشرة والافلاك والاتصال بالعقل الفعال وعقول الافــلاك ونفوسها المجردة ... الخ . قرأت حاضر الامة فى تاريخها ، ورأت واقعها فى فكرها ، وعادت بساطة الاسلام وسماحته الى فكره وعقيدته

فاكتشف المسلمون الاسلام من جديد • وخرج مفكرون اسلاميون ومجتهدون مثل عبد القادر عودة وسيد قطب وغيرهم مازالوا يؤثرون فى فكر الامة حتى الآن •

٣ — جذب المثقفين الى الاسلام ، وانتساب الحركة الطلابية فى مجموعها الى الحركة الاسلامية ، وبالتالى القضاء على مخاطر التغريب الذى اشتهر به العلمانيون المثقفون • فتوحد فى المثقف الاســلام والثقافة ، وأصبح المثقف مؤمنا بالاسلام عن اقتناع ، يجتهد رأيه ، ويبدع فى العلوم ، يقبل تحديات العصر ، ويكثر التأليف ، متجها نحو الجديد مستأنسا بالقديم ، فأصبحت الجامعات فى أوائل الخمسينات بؤرة للحركة الاسلامية ومظهرا لها • كما تحرك طلبة الازهر وأساتذتها وتلاقوا مع مثقفى الجامعة • وبدأت نواة الوحدة الوطنية الثقافية بين العلمانى المسلم فى الجامعة والمسلم العلمانى فى الازهر ، بين المثقف الذى اكتشف الاسلام ، والمسلم الذى اكتشف الثقافة ، وعاد الى الازهر روحه ، وتصدر الحركة الوطنية أسوة بالجامعة العلمانية •

٤ — تربية الامة ، وتكوين النشأ ، واعداد جيل يعتز بالاسلام ، ومستعد للشهادة ، مخلص لله ولرسوله ، يعمل لتحقيق أهداف الامة ، وأصبح يضرب به المثل فى التضحية والفداء ، والصلابة فى السجون ، والصمود فى وجه التعذيب ، ويتضح ذلك فى هتافات الجماعة الاسلامية فى المحاكمات الاخيرة ، ولقد خسرنا كثيرا بحل كبرى الحركات الاسلامية وانعدام تكوين النشأ وظهور جيل جديد متغرب مهاجر يبحث عن الكسب والرزق ويلهث وراء الدنيا • لم يعد للشباب قدوة أو نموذج فكر أو عقيدة ، مبدأ أو قضية •

٥ — وضع برنامج وطنى يكاد تتفق عليه الاتجاهات الوطنية كلها مثل الاستقلال الوطنى ، العدالة الاجتماعية ، وحدة المنطقة ابتداء من مصر ، الحريات الديمقراطية • ظهر ذلك فى أوائل الخمسينات كما ظهر أيضا فى أوائل الثمانينات ، قبل الثورة المصرية وبعدها ، وأثناء انتكاستها وردتها وقرب نهايتها • كان بامكان الحركة الاسلامية لو عاشت أن تكون بوتقة للوحدة الوطنية ، وبؤرة للعمل الوطنى الوحدوى تجتمع فيها المعارضة الدينية والمعارضة السياسية من أجل تغيير الوضع القائم كما حدث فى الثورة الاسلامية فى ايران •

٦ — تجنيد الشعب ، وتكوين جماعة دينية أقوى من أى حزب سياسى عرفه تاريخنا الحديث ، تدعو الآلاف فى غمضة عين ، وهو الامر الذى فشلت الثورات العربية فيه باعتمادها على الجيش أو على موظفى الدولة • كان نظام الاسر الهرمى فعال للغاية فى تجنيد الشعب بكافة طبقاته الاجتماعية عن طيب خاطر ، وكان بالامكان دعوة الآلاف الى التظاهر فى حرم الجامعات أو أمام المركز العام أو فى الميادين العامة دون ما فرار أو هروب بل بالتصدى للرصاص بالصدور • وتجاوز الامر العمال الى الفلاحين ، ودبت الحياة فى المصنع وفى الحقل• وكانت قرى بأكملها خاصة فى الشرقية فى مواجهة جنود الاحتلال أشبه بجيش للشعب •

٧ — دخول الحركة الاسلامية فى معترك الحياة الاجتماعية والسياسية المعاصرة فكانت أحد مصادر الحركة الوطنية سواء فى جمعية علماء الجزائر أو فى شخصيات مثل علال الفاسى وأمين الحسينى وعبد الكريم الخطابى ، أو فى حركات مثل السنوسية فى ليبيا ، والمهدية

فى السودان ، ولم تنعزل حتى عن الكفاح المسلح مثل الاخوان المسلمين فى فلسطين وعلى ضفاف القناة ، وقد كانت فرق الجوالة والكشافة تمثل نوعا من المرابطين الجدد ، لا فرق بين النضال السياسى والكفاح المسلح « رهبان بالليل فرسان بالنهار » .

٨ ـ توحيد الامة ، وجعل مصر مركز العالم العربى والاسلامى . فقد كان « المركز العام » محط كل دعاة الاسـلام وممثلى الحركات الوطنية سواء علال الفاسى ونواب صفوى أو ياسر عرفات وهوارى بومدين . كما قامت الحركة الاسلامية بمهمة التعريف بفكر العالم الاسلامى وتقديمه للمسلمين مثل أبى الاعلى المودودى وأبى الحسن الندوى ومصطفى السباعى ... الخ . لقد كان الصراع بين الوحدة الاسلامية والوحدة العربية أو بين الاسلام والقومية مجرد صراع فقهى يخفى وراءه صراعا على السلطة . وكان الكل يعلم أن وحـدة الامة العربية هى مقدمة لوحدة العالم الاسلامى كما بدأ الاسلام أولا بتوحيد الجزيرة العربية والقبائل المتناحرة قبل مد جناحيه بعد ذلك على امبراطوريتى الفرس والروم .

هذه بعض من مآثر الحركة الاسلامية المعاصرة . وهى شاهدة للعيان أمام الجميع لا ينكرها الا مكابر أو معاند . فمن يقدر أمـام هذا الانجاز الضخم أن ينال من الحركة الاسلامية أو أن يبغى شرا بها أو أن يترصد لها أو أن يوقع بها أو يناصب أنصارها العداء ؟

(ب) عيوب الحركة الاسلامية .

ومع ذلك ، فمما لا شك فيه ، خاصـة تحت ظروف القهـر

والاضطهاد ، وتحت أهوال التعذيب فى السجون والمعتقلات ، واثر ابعاد الحركة الاسلامية عن الساحة الوطنية على مدى ثلاثين عاما ، وتحت اتهامات التخوين ، وقلب نظام الحكم ، وتدبير الاغتيالات ، واستعمال العنف ، ظهرت فى الحركة الاسلامية بعض السلبيات قد تمتد جذورها الى « الاخوان المسلمين » وقد يعود البعض منها الى ظروفها فى العشر سنوات الاخيرة ، وعلى رأسها :

١ — الحركة الاسلامية دفاع عن حق الله وليس دفاعا عن حق الانسان ، دفاع عن الدين أكثر منها دفاعا عن الدنيا ، دفـــاع عن الاسلام أكثر منها دفاعا عن المسلمين . غلب على الحركة المنطلقات الدينية النظرية فى علم أصول الدين أكثر مما غلبت عليها البرامج العملية الفقهية فى علم أصول الفقه . وبالتالى ظهر التباعد بينها وبين الحركة العلمانية ، وأصبح الخلاف نظريا أكثر منه عمليا . وأصبح التكفير المتبادل حول نظريات ميتافيزيقية خالصة حول أصل العالم ، ونشأة الانسان ، روح أم مادة . وأنصار كل فريق يعانق بعضهم بعضا فى الشهادة من أجل طرد المحتل وتحرير فلسطين أو ينامون معا على « برش واحد » وبقرار جمهورى واحد فى السجون دفاعا عن الحريات وضد الاستسلام للاستعمار والصهيونية . مع أن علماء أصول الفقه القدماء تكلموا عن الشريعة التى وضعها الشارع ولم يدخلوا الاطر النظرية فى حسابهم عند التشريع . بل ان كل مسألة نظرية لا ينتج عنها أثر عملى فهى عارية عن علم أصول الفقه أى ليست جزءا منه . والشريعة فى مقاصدها دفاع عن المصالح الضرورية التى من أجلها وضعت الشريعة ابتداء ، وهى المحافظة على الحياة والدين والعقل والعرض والمال . وهنا تجد الحركة العلمانية عن حق مبرر وجودها

بدفاعها عن مصالح الناس وان كانت تقع أيضا فى مزالق المناقشات النظرية الخالصة تعاليا وادعاء وتفاخرا بالعلم الحديث . ولكن عند عمر بن الخطاب تكتمل الرؤية : الاسلام من أجل رعاية مصالح الناس ، ورعاية مصالح الناس باسم الاسلام حتى ولو كانت عثرة بغلة فى العراق !

٢ — الابتداء من الحاكمية ، وكأن حاكمية الله تأتى بالضرورة معارضة لحاكمية البشر وعلى نقيضها ، وكأن الذى يحكم الناس هو الله أو ممثل الله مع أن الله لا يحكم بنفسه ولكن أقام الشريعة على مصالح العباد ، ومن ثم يكون الحكم بالمصلحة حكم بشريعة الله ، فحاكم المسلمين يأتى بيعة واختيارا ، عقدا وشورى ، باجماع فقهاء الامة ، ولا يمثل الله بل يمثل الامة ، وليس خليفة لله بل خليفة رسول الله . صحيح أن « الحاكمية » ، حاكمية الله انما قويت فى نفوس الجماعة كرد فعل على حاكمية البشر التى قامت بأبشع اضطهاد للحركة الاسلامية ابان الثورة العربية وقبلها فى النظم البرلمانية الدستورية كنقيض لها وبديل عنها . كما أنه يسهل اقناع الناس بها بعد أن ضجروا من حاكمية البشر ، ضاعت حقوقهم ، وجاعوا ، واضطهدوا ، وتشرذموا بسببها . حاكمية الله اذن فيها الخلاص والنجاة من حكم الطاغوت ، والايمان والكفر لا يجتمعان ، بقاء أحدهما مرهون بفناء الآخر . وأيهما أفضل عند المؤمنين ، حاكمية البشر أم حاكمية الله ؟ ان الحاكمية لله توحى للجاهلين أن يجعلوا منها حكما «ثيوقراطيا» فينفر المثقفون من الحكم الاسلامى ، وهم الذين عرفوا مثالب الثيوقراطية فى الغرب ، ويدعون للعلمانية . وهنا ينشأ الصراع الوهمى بين جناحى الامة ، ويظل قلبها طائرا بين الفريقين المتنازعين .

٣ — ويتم تطبيق حاكمية الله ابتداء من السلطة فان الله يزع بالسلطان ما لا يزغ بالقرآن ، وأن الذى بيده السلطة قادر على تطبيق الشريعة الاسلامية واقامة الحدود ، والسيطرة على أجهزة الاعـلام وبالتالى يتأسس المجتمع اسلاميا ، ويصبح الاسلام منهج حيـاة للناس • مع أن الاسلام فى نشأته الاولى لم يكن طالب سلطة بل كان مربى أفراد • واستغرقت تربية الافراد ثلاثة عشر عاما أطول مما استغرقه تأسيس الدولة فى عشر سنين • وهل يمكن فى أنظمتنا السياسية الحالية التى أتت الى السلطة اما على أكتاف الجيش والتى تحكم بكل أجهزة القمع الممكنة أو التى تقوم على الملكية الوراثية أن تسمح بأن ينازعها أحد فى السلطة ؟ لن تستطيع الحركة الاسلامية اذن الا أن تعمل سرا وبطريقة لا شرعية معادية للنظم القائمة بالضرورة وبديلا عنها • ومع أنها قد تكون كذلك كحركة تاريخية الا أن المستقبل لم يبدأ بعد ، ولم يعد له بما فيه الكفاية • ان الاولى بالحركة الاسلامية أن تأتى محمولة على الاكتاف ، بناء على اختيار حر للامة كما كان يأتى اتحاد الطلاب فى أوائل الخمسينات فى الجامعات المصرية بانتخاب حر • ولماذا يدعى الى الاسلام سرا وهو فى قلوب الناس وما تعتقده الامة بل والذى يعطى الشرعية للنظم القائمة ؟ وهل يمكن أن تنجح حركة سرية فى نظم تعلم أجهزة الامن فيها خافية الاعين وما تخفى الصدور ؟ والقول العلنى فيه تحد موضوعى للنظم القائمة وطرح البديل العملى أمام الناس ، والاحتكام اليهم • وبالتالى كان اعداد الامة للحكم الاسلامى أسبق من الوثوب على السلطة لاقامة الدولة الاسلامية • وقد لا تختلف الحركة الاسلامية هنا عن غيرها من الحركات الثورية العلمانية ، فذلك سمة عامة من سمات التخلف ، والتفكير فى التغيير

عن طريق القمـة وليس عن طريق القاعدة سمة الفكر الدينى القديم الذى يظهر صريحا فى الحركة الاسلامية مرة ومؤولا فى الحركة العلمانية مرة أخرى • يساعد على ذلك غياب الحريات ، حريات التعبير فى النظم القائمة • فلا تجد الحركتان أمامها الا التعبير العملى من أسفل طالما أن التعبير النظرى من أعلى مكتوم فى الصدور •

٤ — وفى الممارسة يأتى الحكم الاسلامى ليس فقط كبديل عن الانظمة القائمة بل كنقيض لها • لا يقبل معها تعاونا فى أى شىء حتى فيما يمكن الاتفاق عليه مثل تحرير الارض أو مقاومة الفســاد • فاحتلال الارض قد يكون انتقاما الهيا من النظام ، وانتشار الفساد فى البر والبحر قد يكون دليلا على افلاس حكم البشر ومقدمة للحكم الالهى ، وكأن حكم الاسلام لا يقوم الا على انقاض النظم القائمة وبعد العماء الشامل • وبالتالى تعطى الاولوية للنظم السياسية ونوعيتها وأسسها النظرية على حقوق الانسان واستقلال الشعوب والمعطيات العملية مع أن الله قد ينصر هذا الدين بالرجل الفاجر • وكأن الخير المطلق لا يأتى الا بعد الشر المطلق ، فالملاك نقيض الشيطان ، والابيض لا يجتمع مع الاسود ، والحق ضد الباطل ، والنور مناقض للظلام ، كلاهما لا يجتمعان • ووقعت الحركة فى جدل الكل أو لا شىء • وقد أدى هذا المنطق الصارم فى الممارسة الى الحصول على لا شىء بل خسرت الحركة الاسلامية مكتسباتها الاولى ، وأزيحت عن الطريق ، وابتعدت عن الساحة الوطنية ، وظلت هامشية فى المجتمع ، تتربص به ، وتنتهز فرصة الدخول الى قلبه لاداء الدور ، فاتسمت بالعقلية الانقلابية وبالمنهج الانقلابى ، وبالرؤية الانقلابية • مع أنه فى العادة لا تحدث مثل هذه الانقلابات فى التاريخ ، والثورات نفسها تراكمات

كمية تحولت الى تغيرات كيفية فى لحظة ممعينة هى لحظة الثورة ، فلا شىء ينتج من لا شىء • وقد أتى الاسلام فى نشأته أيضا بعد اعداد طويل فى اليهودية والمسيحية ، بل وابتداء من تراث ابراهيم ، وبعد تأهيل الجزيرة العربية نفسيا وفكريا نفورا من الجاهلية والتشتت وتطلعهم الى دين جديد يوجد شملهم ، ويقوى شوكتهم ، ويقضى على مفاسدهم ، ويغير قيمهم • فحارب الاسلام وأد البنات ، والغش فى الكيل والميزان ، ودافع عن كرامة المرأة وحقها ، وجعل الاسلام اصلاحا فى الارض لا افسادا • فنهج الاسلام اصلاحى تدريجى ؛ يبدأ بما هو موجود مثل شعائر الحج ، ويطورها ويطهرها ، ويدخلها فى الدين الجديد •

٥ — وتبدو العبادات وكأنها ذروة الحكم الاسلامى ، اقامة الاركان الخمس ، ويكون محك الدولة الاسلامية مقدار ما فيها من مساجد تنافس الكنائس والمعابد ، واقامة للشعائر ، ونداء على الصلاة فى أجهزة الاعلام ، ومن مكبرات الصوت فى المآذن ، وبرامج اعلامية دينية تطغى على كل شىء ، ولباس وهندام ، وهى كلها مظاهر الحكم الاسلامى وليست أسسه وأبنيته • مع أن الدولة تقوم على المعاملات، والاحكام السلطانية بكل ما فيها من خراج واحياء الموات ، وأرض وزراعة وصناعة وتعدين وتجارة وسياسات للاجور • لا يوجد دستور اسلامى واحد حتى الآن كى يعرف الناس ماذا تعنى الدولة الاسلامية وما نظامها • ماذا عن ملكية الارض ، وادارة المصنع ، وبرامج التعليم، ومراكز البحث العلمى ، وتوزيع الدخل القومى فى كل بلد اسلامى أولا قبل توزيعه على الامة الاسلامية من شرقها الى غربها ؟ ماذا عن النشاط

الاقتصادى العام ، حر فى يد الافراد أم موجه تحت سيطرة الدولة ؟ هناك عشرات من الدراسات فى الاسلام السياسى والاقتصادى والاجتماعى والقانونى ، ولكن الاختلاف بينها لا يعطى تصورا اسلاميا صحيحا لدولة اسلامية تقوم فى هذا العصر ، كما أن العموميات لا تغنى عن التطبيقات التفصيلية فى هذا الميدان أو ذاك . يبدو أن الحركة الاسلامية نظرا لظروفها التى مرت بها أخذت بالطريق الاسهل والاكثر وضوحا وظهورا أمام الناس حتى تثبت نفسها على الساحة وتركت الاصعب وهو بنيان الدولة الذى فاضت فيه الحركة العلمانية .

٦ — وقد يتم تجاوز العبادات الى الاخلاقيات العامة ، ضد اخلاقيات الجنس والانحلال والاباحية . فيعنى الحكم الاسلامى قلب موائد القمار على رؤوس المقامرين ، واغلاق الحانات والملاهى الليلية ، وكسر زجاجات الخمور وسكبها فى الطرق العامة ، والتصدى للعرى ، والالتزام بالحجاب ، وفصل الطلبة عن الطالبات فى دور العلم ، ودعوة المرأة الى العودة الى بيتها ، وترك الوظائف العامة . كل ذلك وارد اسلاميا لا شك فيه ولكن متى ؟ أين الاولويات ؟ وبأيهما نبدأ ؟ بتكسير الحانات أم باقامة المستشفيات ودور العلم ؟ بشراء مكبرات الصوت للآذان أم بتصنيع السلاح لمقاومة العدو وتحرير الارض ؟ ان الاصوليين القدماء فرقوا فى مقاصد الشريعة بين الضروريات والحاجيات والتحسينات . والضروريات هى المحافظة على مصالح الناس الاساسية. صحيح أن النظرة المتطهرة ضرورية ولكن الطهارة لا تظهر فقط فى الاخلاق بل فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والقانون وشتى مظاهر النشاط الانسانى . لم يأت الاسلام للتحريم واللعنة وللقلب ، تلك صورة المسيح عندما دخل المعبد وقلب موائد التجار الذين حولوا معبد

الله الى حانوت ، ولكنه ليس منهج الاسلام الذى يبقى نقل المجتمع كله من مرحلة الى مرحلة ، وتغيير الهياكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية كلها ، وليس فقط تغيير السلوك الخلقى للافراد . الاشياء فيه على البراءة الاصلية ، الاصل فيها الاباحة .

٧ — فاذا لم يستطع الافراد الالتزام بالشريعة الاسلامية على هذا النحو أتت الحدود لتردعهم ، وتكون مهمة الدولة ومقياس الحكم الاسلامى هو تطبيق الحدود ، قطع يد السارق ، ورجم الزانى الى آخر هذه التحديات التى تعرضها الحركة العلمانية والغرب للاسلام للرد عليها . وهل يمكن تطبيق الحدود قبل التحقق من الاسباب ؟ هل يمكن مطالبة الناس بآداء واجباتهم قبل أن يعطوا حقوقهم ؟ هل العربة أمام الحصان أم الحصان أمام العربة ؟ بأيهما نبدأ ، بتطبيق الحدود فى دولة لا تحكم بالشريعة الاسلامية أم بتطبيق الشريعة الاسلامية أولا بعد اعداد الناس ، فاذا أخلوا بواجباتهم طبقت عليهم الحدود ؟ هل تقطع يد الجائع ؟ هل يرجم الزانى المثار يوميا فى أجهزة الاعلام بالعرى والرقص والجنس ، ومن السارق الذى سرق كسرة ليأكل أو أكثر من ذلك فى مجتمع كله يسرق ، أم ناهب ثروات الامة ومهرب أموالها فى البنوك الاجنبية ، ومبددها على موائد القمار ، مالك الاقطاعيات ، سارق خزائن السموات والارض ؟ وماذا عن الزانى ، هل هو المتسكع فى الطرقات الذى لا يجد زواجا لانعدام ذات اليد أم فسق القصور والابواب المغلقة ؟ وماذا عن الشارب ، هل هو الذى يشرب لينسى همومه وفقره وحرمانه وأحزانه ، أم الدولة التى تبيع الخمور وتقدمها للسائحين وتعرضها فى الاسواق الحرة للحصول على العملة الصعبة ؟

٨ — وهل يمكن اقامة حكم اسلامى دون اقناع الناس ؟ وكيف يتم الاقناع بالتعصب والتصلب وضيق الافق والتحزب والتشنج والغضب والخصام ؟ كيف نقرأ اذن « لو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » (٣ : ١٥٩) . صحيح أن الضحك الكثير يميت القلب وأنه لا بديل عن الجدية وتوضيح المواقف وعدم التنازل أو المساومة ولكن لا بديل عن الاقناع والاقتناع ، وافتراض أن الخصم على خطأ ولكنه قد يكون على صواب ، وأن الانسان على صواب ولكنه قد يكون على خطأ على سنة الفقهاء القدماء . ان الافضل للحركة الاسلامية أن يتسع صدرها دون أن تلقى باللعان والسباب ودون أن تلقى بالتهم وتسىء الظن بالمخالفين ، فمن قال لاخيه أنت كافر فقد باء بها ، وهى لم تشق قلوب الناس ، وأن تنظر الى الحركة العلمانية باعتبارها من المؤلفة قلوبهم ، تتودد الى أنصارها ، فقد نشأت الحركة العلمانية فى غياب البديل الاسلامى الثورى . وقد آن الاوان لاعادتها اليه بعد أن خرجت فى غفلة من الحركة الاسلامية وعلى نقيض منها ، فنشأ العداء بين خطأين تاريخيين لا ذنب لاحد فيهما الا قوانين التاريخ . علاقة الحركة الاسلامية بالحركة العلمانية علاقة الام بأبنائها ، فلا غلظة ولا ادانة حتى ولو قال العلمانيون لها أف ونهروها !

ثالثا : مميزات الحركة العلمانية وعيوبها .

ونعنى بالحركة العلمانية التيارات السياسية الثلاثة التى ظهرت فى تاريخنا الحديث بالليبرالية والناصرية (القومية العربية) والماركسية، الاولى منها حكمت قبل الثورات العربية الاخيرة وما زالت تحكم فى بعض الاقطار العربية والاسلامية . والثانية مازالت يحكم باسمها

بالرغم من انتكاساتها وردتها وانقلابها أحيانا الى عكس مبادئها ، ونقيض دعوتها . والثالثة لم تحكم بعد الا فى قطر عربى واحد ولكنها دخلت فى ائتلاف حاكم فى بعض الاقطار العربية الاخرى . وبالرغم من وجود اختلافات جذرية بينها وصلت حد الصدام والصراع والاعدام المتبادل الا أنها تشارك جميعا فى صفة العلمانية وترفضها الحركة الاسلامية رفضا كليا ، وهى فى صراع معها منذ جيلين سواء أثناء حكم الليبرالية أو بعد اندلاع الثورات العربية أو مع الجناح الآخر وهى الماركسية كمتنافسين محتملين على السلطة فى المستقبل وكبديلين مطروحين بنفس الحدة عند أنصارهما للنظم الحاكمة القائمة . فاذا كان الصراع بين الحركة الاسلامية والحركة العلمانية صراعا الى السلطة فانه يأخذ شكلا خاصا مع الماركسية وهو العداء المبدئى حتى ولو كان هناك بعض أوجه الاتفاق العرضى . وبالرغم من ارتباط كل من التيارات العلمانية الثلاثة بالاسلام بطريق أو بآخر فى الادبيات عن الحريات فى الاسلام والاشتراكية فى الاسلام والمذاهب المادية الا أنه ارتباط دفاعى خارجى سطحى من أجل التكيف مع الواقع وتنفيد حجج الخصوم . وتظل التيارات الثلاث فى جوهرها ونشأتها علمانية خالصة .

والحركة العلمانية أيضا حركة شرعية فى تاريخنا القديم والحديث لها رصيدها الوطنى ، وانجازاتها واضحة للعيان فى تاريخنا المعاصر ساهم فيها جيلنا ، ومن ثم فهى أيضا جزء منا ونحن جزء منها ، يعز علينا انكسارها ، وتقاوم ردتها ، ونفكر معها فى وسائل رأب الصدع ، ونفكر رغما عنها أحيانا فى توثيق عرى الامة والعمل على وحدتها . فليس هناك جناح للامة عدو للجناح الآخر والا فما نهاية التكفير

المتبادل ؟ وماذا نفعل فى الخصم ؟ نكمم أفواهه ، ونلقى به بين جدران السجون ، وهو ما عانت منه الحركة الاسلامية أم نقتله وننتقى شره مرة واحدة والى الابد ؟ ان فعلنا سيخرج آخرون غيرهم أكثر انتقاما وأقوى شوكة وأصلب عودا وأشد شراسة . فالفكرة مازالت موجودة بالأضافة الى الرغبة فى الثأر والانتقام .

(أ) مميزات الحركة العلمانية :

وكما أن الحركة السلفية لها مميزات ثابتة دائمة تجعلها باستمرار بديلا مطروحا أمام الناس ، ولها عيوب وقتية عرضية يسهل تغييرها ، فكذلك الحركة العلمانية لها مميزاتها التى تجعلها أيضا اختيارا ثابتا ودائما أمام جمهرة المثقفين كالليبرالية وأمام جماهير الامة العربية كالناصرية وأمام الصفوة أو الطليعة الماركسية ، ولها عيوبها التى تجعل من الناس تتحسر عليها وتتأسى عليها وتبغى لها الخلاص والفكاك من الحصار الذى فرضته على نفسها . وأهم مميزات الحركة العلمانية :

١ ــ استطاعت الحركة العلمانية أن تجد لنفسها لغة تعبير مفتوحة وعقلانية يقبلها الجميع بل وتجذب جماهير المثقفين فتتحدث لغة العقل والمنطق ، وتعتمد على معطيات الاحصاء وتحليل الواقع . فالحكم للشعب ، والحرية للجميع ، وتطالب باعادة توزيع الثروة ، وبتحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة ، وتذويب الفوارق بين الطبقات ، وتنادى بالدستور ، وبالمجالس النيابية الحرة وبالديمقراطية ، وتجعل العمل مصدر القيمة ، وتدعو الى مناهضة الاستعمار والصهيونية ، تضع شعارات براقة يكون لها السحر والبريق الذى للآيات القرآنية والاحاديث لنبوية عند الاسلاميين ، والامثال العامية والحكم والسير

الشعبية عند بسطاء الناس للاستشهاد بها وكحجة يعتمد عليها • وهى قادرة على الحوار مع الآخرين ، ولا ترفض أشكال الوحدة الوطنية ، لها خطة تدريجية ، وبرامج عملية مفصلة ، تستعمل لغة العقل والحوار، وتفتح باب النقاش ، لا تكفر أحدا ، ولا يضيق صدرها بأحد ، تتحدى الجميع بوضـــوح رؤيتها ولكنها لا تجد الا صدا أو تكفيرا مبدئيـــا رافضا •

٢ ــ المناداة بالحريات العامة للجميـــع ، وبحق التعبير لكـــل التيارات السياسية ، وللخصوم قبل الاصدقاء • فالحرية حق الانسان الطبيعى ، والديمقراطية أسلوب مثالى للحكم مازال يمثل غواية بالنسبة للشعوب المقهورة • الاختيار حر للشعب ، والمجالس النيابية المنتخبة تمثل الامة • وتزداد الشعارات بريقا عن الحرية والاشتراكية والوحدة تعبيرا عن أهداف الامة • و « محمد رسول الحرية » ، وهنـــاك « المعذبون فى الارض » و « قرية ظالمة » • ولماذا لا يكون الحكم للاغلبية وللجماهير الكادحة ، العمال والفلاحين ؟ العمل مصدر القيمة والا فلماذا حرم الربا ؟ والارض لمن يفلحها ، واعطاء العامل أجره قبل أن يجف عرقه • هذه اللغة الواضحة قادرة على الهاب خيـــال الشباب ، وتحريك وجدان الامة وتعبر عن الحرية المكبوتة فى الصدور وعن أمل التحرر فى المستقبل •

٣ ــ ظهرت فيها الافكار الاشتراكية ، وتكونت فيها الاحزاب التقدمية ، وتبلورت من خلالهـــا أيديولوجيات المساواة والعـــدالة الاجتماعية • وتكونت أجنحة جذرية فى الاحـــزاب الليبرالية • ثم حملتها الثورات العربية المعاصرة وحققت بعض أفكارها • كانت مدرسة

تعلم فيها جيلان الافكار التقدمية والمذاهب الاشتراكية ابتداء من هذا القرن قبل أن يقعا فى العداوة المتبادلة فى هذا الجيل . ومن خلالهـا تمت الدعوة الى العلم والتصنيع والتحديث حتى أصبحت معـادلة للحداثة كما كانت الحركة الاسلامية ممثلة للاصالة .

٤ ـ ازدهرت الحركة الثقافية فيها ، وتكونت من خلالها مجموعات من المثقفين والادباء استطاعت القيام بدور الريادة فى التعليم والثقافة والفنون والآداب . ومنها تأسست الجامعات وتطور الازهر ، وأصبح التعليم مجانيا كالماء والهواء ، وكان ينشأ فى أوائل الثورة المصرية مدرسة كل يومين . انتسب اليها معظم مفكرينـا وأدبائنا وفنانونا الذين مازلنا نعتز بهم حتى الآن والذى نتحسر على انقضائهم دون خلف لهم . وفيها نشأت الصحف الحديثة ، كمنبر حديث للرأى الحر ، وازدهرت مجلاتنا الثقافية ، وتأسسـت لجان التأليف والترجمـة والنشر ، وأرسلت البعثات الى الخارج فى شتى أنواع العلوم والفنون والآداب .

٥ ـ ارتبطت أيضا بالاسلام بشكل ما . فحب الوطن من الايمان، والاسلام دين علمانى منذ البداية ليس فيه رجال دين ، يقوم على رعاية المصالح العامة ، ويرعى شئون الدنيا . ظهر من خلالها عـدد من الكتاب والمفكرين الاسلاميين يتحدثون عن حياة محمد وعبقريات الصحابة وفتوحات الاسلام ومآثر الحضارة الاسلامية وفضلها على الغرب . بل انها لم تكن بعيدة تماما عن الأصلاح الدينى أو منفصلة عنه ، فقد كان الغرب الليبرالى نموذجا للاصلاح كما كان الاسـلام نموذجا للحكم الليبرالى الذى لا يستعبد الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا .

٦ ـ تعبر الحركة العلمانية أيضا عن تيار أساسى فى تاريخنا المعاصر منذ محاولة انشاء الدولة الحديثة فى مصر منذ محمد على حتى ناصر • وارتبط بها رواد النهضة العربية المعاصرة برافديها السياسى والعلمى • ومن خلالها قامت محاولات التحديث والتصنيع وشق الطرق واقامة الجسور والسدود واتساع رقعة الاراضى الزراعية وارساء قواعد العمران ، بل أيضا قامت النهضة الادبية من خلالها • وكانت الحداثة هنا تعبيرا طبيعيا عن روح العصر بالاضافة الى كونها نتاجا اراديا مقصودا •

٧ ـ ارتبطت بالحركة الوطنية ولازمتها ، واستطاعت التعامل مع الآخر أى الغرب بلغته ومفاهيمه وأساليبه • بل انها أحيانا قادت الكفاح المسلح والتف حولها الشعب ممثلا فى قيادات تاريخية تم على يديها الاستقلال الوطنى ، وان لم تستطيع تجنيد الجماهير فى حزب منظم له أطر باقية عبر الاجيال • كانت شعبيتها تلقائية تعبر عن مصالح الامة تعبيرا مباشرا عن طريق تجسد الحق فى الزعامة كمفهوم تقليدى موروث ، وفى بعض الاحيان أصبحت تاريخ الحركة الوطنية كلها •

٨ ـ حققت مطالبنا القومية ، فقد استقلت أوطاننا بالفعل على يديها ، وقادت كفاحنا الوطنى ، وتأسست دولنا المستقلة من خلالها وعلى رغم من معارضة الحركتين الاخريين ، الاسلامية والماركسية كجناحين أو كطرفين يجذبان القلب أو الوسط الذى يعبر عن جماهير الامة بصرف النظر عن مدى ثقلها فيه ، وبالتالى أصبحت المكون الرئيسى لكل مواطن ، وصوت تاريخى واختيار فعلى ، وبقى الجناحان مجرد بديلين محتملين مستقبليين •

(ب) عيوب الحركة العلمانية :

وبالرغم من هذه الانجازات الضخمة للحركة العلمانية ومميزاتها فى تاريخنا المعاصر الا أنها لم تخل من عيوب جعلتها ربما فى انحسار مستمر وظهور البديل الاسلامى كمنافس خطير لها ، تخشاه وتصارعه وتتهمه بقلب السلطة واستعمال العنف وهى تخشى نفسها وتستعمل العنف فى الدفاع عن مواقعها . وأهم هذه العيوب :

١ ـــ معاداة الحركة الاسلامية عندما وجدت أنها منافس خطير لها فى السلطة وبالرغم من ظهور بعض المفكرين الاسلاميين ودعاته من ثنايا الحركة العلمانية ، ووصل الامر الى اضطهاد أعضاء الحركة الاسلامية وقتل زعمائها وسجن أعضائها وتعذيبهم وحل جماعتها ومنع صحفها . كما وصل الامر خاصة فى الثورة العربية الى تعليق المشانق وأبشع أنواع التعذيب الجسدى . وفى نفس الوقت شق الحركة الاسلامية العامة واستعمال رجال الدين الرسميين لتبرير السلطة القائمة وهم الغالبية ، وبشق صف الحركة الاسلامية الى خوارج عاصين ، خارجين على القانون ، أقلية تبقى فى الحكم ، وتستعمل وسائل العنف وتقتل الابرياء ، والاسلام دين سماحة وسلام والى أهل سنة وجماعة يطيعون الائمة ، ويطلبون لهم النصر ، ويدعون لهم على المنابر ، ويصدرون لهم الفتاوى ، أى فقهاء للسلطان . وبالتالى خاف الناس من الاولين وفقدوا احترام الآخرين . حوصر الاولون وضاعت الثقة فيهم ، يحللون اليوم ما يحرمونه بالامس ، ويحرمون اليوم ما يحللونه بالامس ، يأكلون على موائد كل الملوك حتى أفتت الحركة الاسلامية بعدم جواز أئمتهم أو الصلاة فى مساجدهم .

٢ ــ الانفصال عن التراث وعدم الغوص فيه سواء عند القدماء أو كمخزون نفسي فى وجدان المعاصرين لفهم معوقات التقدم ولمعرفة البواعث عليه وكأن التغير الاجتماعى يحدث من لا شيء ، مجرد الهياكل التحتية دون الابنية الفوقية ، وكأن السياسة ليست لها جذور فى التاريخ ، وكأن التحليل السياسى لا يقوم أساسا على وعى بالتاريخ . فأصبحت النهضة أقرب الى فقاعة فى الهواء ، والليبرالية بالون منتفخ ، والاشتراكية مجرد خطابة تدخل من أذن وتخرج من الاخرى . وانتهت النهضة بعد الجيل الرابع ، جيلان بدآ فى القرن الماضى وجيلان أنهاها فى هذا القرن ، فسقط الصاروخ بمجرد انطلاقه ولم يستطع خرق حجب الفضاء . على حين استمر التراث فى تغذية الحركة السلفية ويمدها بأعماقها فى التاريخ وتنشر جذورها فيه . ولم توضع قضية التراث الا بعد انتكاسة الثورة العربية فى السبعينات بعد هزيمتها فى الستينات حتى يمكن وضع المشكلة ، مشكلة النهضة من الجذور .

٣ ــ ونتيجة للانفصال عن التراث ، وضرورة الارتباط بتراث ما ، ارتبطت الحركة العلمانية بالتراث الغربى ، ووقعت فى «التغريب» وامتدت روافدها وجذورها فى الغرب سواء فى العقلانية أو العلمية أو الليبرالية أو الاشتراكية أو القومية ، عن وعى أو عن لا وعى . ولم تنجح محاولات التكيف مع الواقع أو التبرير بالتراث وعمل عقلانية أو مثالية اسلامية ، أو وجودية اسلامية أو وضعية اسلامية أو شخصانية اسلامية أو مادية اسلامية ، التراث استعمل هنا كوسيلة تبرير اختيار مسبق من الغرب وليس كأداة تطوير للواقع الاجتماعى المحلى ذاته . لقد تعلم القادة والمثقفون فى الغرب وعادوا منذ

الطهطاوى يبشرون بنمط الحضارة الغربية ، منبهرين بالغرب مثل حركة الاصلاح الدينى تماما . وقد كان ذلك طبيعيا اذا ما قارنا الاوضاع الاجتماعية فى كل من بلدان الشرق والغرب فى القرن الماضى . أما الآن فقد بدأت الآثار السلبية للانبهار بالغرب ولاعتباره نماذجا للتحديث فى الظهور .

٤ — ولم يقتصر التغريب فقط على الثقافة والادب وأساليب العمران وطرق الحياة بل تعداها الى موالاة الغرب فى السياسة والاقتصاد . فقد أخذت الليبرالية بالرغم من صراعها السياسى مع الغرب بنمط تحديثه وقادته . وشعرت كما هو الحال أيضا فى بدايات الثورة العربية بأن الغرب حليفها الطبيعى نظرا لقربها الجغرافى وعدم تعودها على اقامة علاقات مع دول كبرى غير الغرب . ثم تحالفت الثورة المصرية فى مرحلة الردة الاخيرة مع الغرب صراحة اقتصادا وسياسة ، وعادت النهاية مثل البداية حتى ابتلعها الغرب وكاد أن يبتلع المنطقة بأكملها . بل ان الماركسية المنتشرة عندنا هى أقرب الى الثقافة الغربية منها الى النظرية السياسية المحلية التى تقوم على تحليل معطيات الواقع الاجتماعى ، فهى مشروع ثورة بناء على بنية ثورة الثقافة الغربية وليس على معطيات التراث المحلى . وبالرغم من بريق الشعارات وجمال العبارات الا أن أثرها خال وقتيا فى نفوس الجماهير تطرب لها كما تطرب للافتاء ، وسرعان ما ينقضى الاثر بعد سماع الخطبة أو سماع الوصلة الغنائية السياسية . وذلك لانها لم ترتبط أيضا بثقافة الجماهير ، ولم تنبع من تراثها ، ولم تبن على أمثالها العامية وسير أبطالها وقدوتها فى التاريخ . بل ان البعض منها أصبح مناطا للفكاهة والسخرية اذا ما قسنا الشعار على الواقع ورأينا بعد

المسافة الى حـــد التناقض الصارخ • فأدارت لها الجماهير ظهرها كما سدت أذنيها من قبل •

٥ — بالرغم من أن النظم الليبرالية قبل الثورة العربية كانت تقوم على الحرية والنظم البرلمانية ووضع الدساتير وحرية التعبير ممثلة فى الصحافة ، الا أنها لم تجد بعض أحزابها ضيرا فى التعاون مع القصر والاستعمار أو أن تقوم بدور القهر للخصوم السياسيين فتدبير الاغتيالات لهم (مقتل حسن البنا) • وكانت السجون ملأى بالمعتقلين والمعارضين • وقد تعودت أجهزة الامن على ذلك فى تاريخنا المعاصر كلـــه ، فتربى لديها عداء للشـــعوب وفى مقدمتهم المثقفين والمعارضين السياسيين ، الشباب والطلاب ، العمال وصغار الموظفين • واســـتمر الحال حتى ابان الثورة العربية وهى فى قمـــة انجازاتها الاجتماعية والسياسية حتى تحولت الحرية الى اسطورة عند من حكم باسمها أو الى حلم وخيال عند من لم يحكم بعد ، وأصبح مطالب الحرية والديمقراطية أهم مطلب شعبى حتى قبل العدالة الاجتماعية • وبالرغم من أن الحركة العلمانية ديمقراطية تؤمن بالنظم البرلمانيـــة وبالانتخاب الحر الا أن بعض فصائلها كالماركسية مثلا أو التنظيمات الحزبية فى الجيش لا تتورع عن القيـــام بحركات انقلابية للاستيلاء على السلطة ، تحريرا للشعوب ، ودفاعا عن الديمقراطية ! وما أسهل بعد ذلك من تكوين مجالس نيابية وتأسيس أحزاب لاكمال الصـــورة الخارجية للنظام •

٦ — قامت الحركة العلمانية ممثلة فى الليبرالية على أكتاف الطبقة العليا أولا ثم على أكتاف الطبقة المتوسطة ثانيا ممثلة فى الثورات

العربية • فنشأ الاقطاع كنظام يعبر عن الطبقة الاولى ثم رأسمالية الدولة (الاشتراكية العربية) كنظام يعبر عن الطبقة الثانية • فالحركة العلمانية اذن بنظاميها اللذين حكما فى تاريخنا الحديث ظلت طبقية فى تصوراتها وقراراتها ورؤيتها • وورثت الطبقة المتوسطة بعد الثورة الطبقة العليا قبلها ، وتمتعت بمميزاتها • ثم ظهرت طبقات جديدة بعد الثورة وأثرت على حسابها فاتسع نطاق الطبقة المتوسطة بعد أن كانت الطبقة العليا محاصرة فى مجتمع النصف فى المائة ، وأصبح من الصعب نقدها أو زحزحتها عن مواقعها نظرا لانها وطنية قامت بثورة تمثل وسط الامة ومازالت تحرص على قلبها ضد الجناحين المنافسين لها ، الاسلامى والماركسى ، وتتهما بالتطرف وممارسة العنف• والسؤال الآن : هل ستنجح الحركة الماركسية فى التعبير عن الجماهير الكادحة اذا ما حلمت فى المستقبل ؟

٧ — لم تنجح الحركة العلمانية فى تجنيد الجماهير نجاح الحركة الاسلامية ، وظلت الليبرالية تيارا شعبيا جارفا بلا تنظيم فعلى قادر على الصمود فى لحظات الاضطهاد سواء بأطره أو بجماهيره كما هو الحال فى الثورة الاسلامية فى ايران • وظلت الثورات العربية بلا تنظيم سياسى فعال بل مجرد هيكل بيروقراطى يعقد ويحل بين يوم وليلة بالرغم من تكوين تنظيم طليعى شبه سرى ، عصبا للحزب العلنى القائم • وأحيانا أخرى يقوم التنظيم على الجيش والقوة المسلحة أو أجهزة الامن والمخابرات ! أما الحركة الماركسية فلم تجمع الا عدادا قليلا من المثقفين والعمال ، منظمين سرا أو علنا ولكنها محدودة الاثر لم تنتشر فى جموع الفلاحين وهى الغالبية العظمى فى الامة ، وبالتالى ظلت الجماهير الخميرة الاساسية للحركة الاسلامية •

٨ ــ وبالرغم من انتصارات الليبرالية وقيادتها لحركة التحرر الوطنى فى تاريخنا الحديث ، وبالرغم من انجازات الثورات العربية فى اكمال تحرير الاراضى وتدعيم الاستقلال الاقتصادى والسياسى للبلاد الا أن الحركة العلمانية أصيبت بهزائم متتالية سواء قبل الثورة المصرية أو بعدها . فقد وضعت الثورة حدا لليبرالية وانتكست الليبرالية بعدها بالقضاء نهائيا على الحريات ابان الثورات العربية ، فصفت الحركة العلمانية أجنحتها المختلفة بيدها . ثم توالت الهزائم على الثورات العربية بعد أن تحالفت القوى الاستعمارية والرجعية والصهيونية عليها فوقعت هزيمة حزيران ١٩٦٧ والاستسلام النهائى للصهيونية بالرغم من انتصار ١٩٧٣ . ثم انتهت الحركة العلمانية بأنظمتها الحاكمة بعد غزو لبنان ومعركة بيروت فى ١٩٨٢ ، مما جعل الحركة الاسلامية تعرض نفسها على أنها البديل الوحيد ، كما يبدو ذلك من هتافات تنظيم الجهاد وراء القضبان أثناء المحاكمات الدائرة حاليا :

ان الاقصى قد نادانا   من سيعيد القدس سوانا

رابعا : خاتمة .

تلك بدايات حوار ، مجرد نقاط عامة ، وعلى كل حركة أن تبرز ما لها وما عليها ، فالكمال لله وحده ، وان الوعى السياسى لكل تيار ليتطلب نقدا ذاتيا ومراجعة للنفس ، وعرض حساب التاريخ وشهادة الواقع . قد لا يصيب هذا التحليل فى هذه النقطة أو تلك أو قد يعتبر أحد ميزة ما يعتبره الآخر قصورا . المهم هو مراجعة النفس .

وهذه احدى المحاولات وليست الوحيدة الممكنة • وقد يكون فى مراجعة الحساب المشترك اثراء متبادل للجميع ، فليس الانسان الا رؤية جزئية مهما حاول أن يكون متكاملا ، وليس الا انفعالا مهما حاول أن يكون عاقلا • ومع ذلك ، فلا بديل عن الموضوعية والمحايدة ، دون الانتساب الى حزب دون حزب أو تغليب فريق على فريق بالرغم من أن الهوى والوجدان والحلم والخيال قد يكون مع الحركة الاسلامية ، والواقع والعقل والامكانية والمرحلة التاريخية قد يكون مع الحركة العلمانية • ومن يدرى فلربما أمكن أن تعى الامة مميزات تياراتها المختلفة وتجمع بينها وتتخلى عن أوجه قصورها • قد ينشأ تيار ابداعى أصيل يجمع بين التيارات المتصارعة لا بروح التوفيق أو بمنهج المصالحة بل على نحو يجمع صدق الجميع ويترك هفواته • قد يعطى ذلك نموذجا لحكم فيما بعد ، وهو حكم الائتلاف الوطنى • فحكم الاغلبية ضار بالاقلية • وكثيرا ما تفتتت الاغلبية فضاعت أغلبيتها ثم تحدث التنازلات المتبادلة للابقاء على تحالف الحكم مما قد يضر بمصالح الاغلبية الحاكمة نفسها وبرنامجها السياسى • وقد تكون الاقلية أكثر فعالية وحضورا من الاغلبية • ثم تنشط وتصبح أغلبية الغد بعد أن تضيع أغلبية اليوم وتصبح أقلية الغد • وبالتالى كانت حكومة الائتلاف الوطنى أنسب نظم الحكم فى مراعاة مطالب الامة خاصة اذا كانت كلها روافد شرعية فى التاريخ • ولا خوف من التضارب والتطاحن ، فامكانية برنامج موحد قائمة وواردة ، فالمخاطرة واحدة : احتلال الارض ، وضياع الثروات ، وقهر الحريات ، وتجزئة الامة • والحلول واحدة : تحرير الارض ، واسترداد الثروات ، واعلان الحريات ، ووحدة الامة • ففى الوقت الذى تتحد فيه الحركتان الاسلامية والعلمانية لانقاذ وطنى عاجل سيحيا القلب ، ويطير الطائر ، وتحلق أجنحته فى الآفاق •

دعوة إلى الحوار

لقد آن الاوان للم الشمل والبحث عن الوحدة الوطنية الكامنة فى النفوس ، والتى يفرضها الواقع ، والتى تحددها الاهداف القومية المشتركة بين جميع فرقاء النضال فى وقت لا يفرق فيه الغزو الصهيونى بين حركة تقدمية وطنية وحركة اسلامية سنية أو شيعية . فهذا الوطن للجميع ، ونحن جميعا أبناؤه ، ولنا جميعا شرف الانتساب اليه ، وفخر الولاء له ، وعلينا جميعا فرض خدمته والعمل على رفعته . واجتهاد الرأى ليس حكرا على أحد أو خاصاً بفريق دون فريق . فقد انتهى عصر الاستعمار أو كاد كما انتهى عصر التخوين والتكفير والاتهام المتبادل . ولم يعد أحد قادرا على أن يقول أنا الحق وما دونى هو الباطل .

وليس غريبا أن يصدر هذا النداء من منبر اليسار . فاليسار أحرص الفرقاء على الوحدة الوطنية ، وأكثرهم قدرة على تصور العلمى الواقع . ولما كانت الحركة الاسلامية حركة أصيلة فى مجتمعنا تمتد جذورها الى تاريخ الامة وروحها وكان اليسار أكبر معبر عن واقع الامة ومقتضيات عصرها ، وحاجات جماهيرها ، أتى هذا النداء من الواقع الى التاريخ ، ومن الحاضر الى الماضى ، ومن الثمرة الى الجذور لتحقيق وحدة الأمة والحرص على الماضى والحاضر على السواء ، والتمسك بقدرات الامة على الابداع ، فلا ابداع بلا أصول .

نشر الجزء الاول فقط فى « الاهالى » فى ١٩٨٢/٩/١٥ .

واليسار أكثر فرقاء النضال احساسا بالاضطهاد وبأهوال التعذيب ومآسى المعتقلات • وما حدث للحركة الاسلامية فى الثلاثين عاما الاخيرة يجعل اليسار متعاطفا معهـا من منطلق الزمالة فى السجون • فقد جمعتهم المعتقلات ، وتعرف كلاهما على الآخر فى غياهب السجون كما حدث أخيرا فى سبتمر الماضى ، فاكتشف كل منهما الآخر ، امكانياته وحدوده • وتمت المصالحة الوطنية فى النضال المشـترك ، وحدثت بدايات الحوار داخل الاسوار • وقد آن الاوان لان يحدث على الملأ خارج الاسوار وأمام الاعين حتى يشهد الناس على الحق وتشـهد الامة على التاريخ •

وقد آن الاوان أن يعتبر كلا منا نفسه قرينيا من الآخر • فقد حاول الاستعمار كما حاولت السلطة القائمة تشويه صورة كل فريق لدى الفريق الآخر • فجعل بعض اليسار يعتقد أن الحركة الاسلامية تيار رجعى محافظ متخلف ، أسطورى غيبى متصوف ، تنقصه الوطنية، يتعاون مع الاستعمار كما تعاون من قبل مع القصر ، يسـعى الى الحكم ، يراوغ ويناور ، وينقلب على الحلفاء ، وينقض على السلطة ، ويمارس العنف ، ويلجأ الى الاغتيالات ، لا يرفع الا الشعارات ، ولا يبغى الا قطع يد السارق ، ورجم الزانى ، ولا يهدف الا الى اطالة اللحى ولبس الحجاب ! كما حاول الاستعمار أيضا تشويه صـورة اليسار فى نفوس الاخوة فى الله • فهم كفرة ملحدون ، ماديون ، معادون للاسلام ، يبغون بالمسلمين شرا ، ويناصبون الاسلام العداء ، يتربصون بالحركة الاسلامية ، ويوالون الاتحاد السوفيتى • يسعى للسلطة ، ويدبر الاغتيالات ، ويستعمل العنف ، ويجهز الانقلابات • أراد الاستعمار عن عمد احداث الفرقة بين جناحى الامة لتقسيمها وضياع وحدتها كى يقتل بعضنا بعضا ، وتحويل جبهاتنا الحقيقية فى

مواجهة الاستعمار والغزو الصهيونى ومقاومة القهر الداخلى والمطالبة باعادة توزيع الثروة بين الناس الى جبهات مفتعلة يتخذ بعضنا أعداء لا أولياء ، ويبحث كل منا عن ولى آخر يعتمد عليه ويناصره .

وقبل أن نوجه هذه الدعوة الى الحوار فاننا نطالب أولا بالافراج عنهم . فلا حوار الا بين الاحرار ، ولا حديث الا بين الانداد . فلا يعقل حوار بين مطلق السراح ونزيل السجون . والغريب أن الحوار قد أصبح الآن شائعا وموضوعا محببا فى الصحف القومية والحزبية ، ولكنه حوار بين الدولة ومسجونيها وليس بين مواطنين أحرار ، يتم بين جدران السجون وليس على الملأ بين الناس ، دفاعا عن السلطة واحتواء المعارضة الدينية وليس تغييرا للنظم وتأكيدا لحق المعارضة .

ولو تدبرنا الامر ، لوجدنا أن ما يجمعنا أكثر مما يفرقنا ، وأن ما يوحدنا أقوى مما يشتتنا . فمثلا :

١ — من منا لا ينظر الى الماضى نظرة الاعجاب ؟ من منا لا يرى فى الدولة الاسلامية الأولى نموذجا للحكم الرشيد القائم على الشورى والعدالة الاجتماعية ؟ من منا لا يود صياغة حاضرنا بحيث تتحقق فيه مثل القدماء فى مساواة الحاكم بالمحكوم ، ومعارضة الناس للامام ولو بالسيف وفى أن يكون الامير آخر من يأكل ويسكن ويلبس ، ساهرا على راحة الامة ، مسئولا عن عثر بغلة فى العراق ، وينام تحت شجرة ورأسه فوق خفه فيقال له « حكمت فعدلت فآمنت فنمت » ؟ من منا لا يرى فى رسول الله أسوة حسنة ، وفى عمر حاكما نود أن يحكمنا اليوم ، وفى صحابة رسول الله نموذجا للصحبة وليس كأمرة السوء أو بطانة السلطان ؟ ان « يوتوبيا » اليسار لا تفترق كثيرا عن

« يوتوبيا » الحركة الاسلامية ، كلاهما رفض للواقع الحالى وتصور بديل آخر يظهر اما فى المستقبل عند البعض أو فى الماضى عند البعض الآخر .

٢ — من منا لا يبغى الاصلاح الدينى أو ينفر منه أو يرفضه أو يتعالى أو يزايد عليه ؟ من منا لا يعتبر نفسه سليل الحركة الاصلاحية الحديثة التى أسسها الافغانى وسار فيها محمد عبده ورشيد رضا وحسن البنا وسيد قطب ؟ من منا لا يرى الأفغانى مؤسسا للحركة الثورية المعاصرة والذى صاغ أكبر مشروع قومى بين محمد على وعبد الناصر فى مواجهة الاستعمار فى الخارج والتسلط فى الداخل، والدعوة الى تجنيد الجماهير ، وتكوين نظم برلمانية ، ووضع دساتير حديثة تقيد الحكام وتحمى حقوق الشعب ، والاخذ بأساليب القوة والتمدن وتحديث المجتمعات ، وتأسيس الاحزاب الوطنية ، والدعوة الى وحدة الامة ابتداء من وحدة وادى النيل أو وحدة المغرب العربى أو وحدة مصر والشام أو وحدة مصر والحجاز أو وحدة شعوب الشرق فى مواجهة شعوب الغرب ؟

٣ — ومن منا لم يبدأ حياته منتسبا الى الحركة الاسلامية كما ورثها محمد عبده ورشيد رضا وحسن البنا ؟ من منا لم يكن اخوانيا فى بداية وعيه السياسى ؟ لقد كان الوفد والاخوان حركتين وطنيتين شعبيتين . فمن لم يكن وفديا كان اخوانيا ، ومن لم يكن اخوانيا كان وفديا . وكانت « مصر الفتاة » تجمع بين التيارين ، بين الاسلام والوطنية . أما الحركة اليسارية فكانت محدودة الانتشار وان كانت عظيمة الاثر . من منا ينكر دور الاخوان فى الحركة الوطنية المصرية ، وجهادهم فى فلسطين وتجنيد الشباب ، وتربية الجماهير بالرغم من

بعض الاخطاء فى التحليلات والممارسات السياسية التى وقعت فيها كل التنظيمات الحزبية ؟ .

٤ — من منا ينكر دور الاخوان فى الثورة المصرية قبلها وبعدها ؟ لقد كانت الثورة المصرية قبل قيامها فى ١٩٥٢ على اتصال مستمر بكافة القوى الوطنية وعلى رأسها الاخوان . وكان الضباط الاحرار على صلة وثيقة بقياداتهم . بل كانت هناك رغبة فى التوحيد بين الحركتين . كان الاخوان على علم بالثورة قبل وقوعها ، عهد اليهم بحراسة المنشآت العامة ليلة وقوعها وبعدها . كان نصف أعضاء مجلس قيادة الثورة من الحركة الاسلامية أو من المتعاطفين معها . وظل الاخوان التنظيم الشعبى للثورة قبل أن تقيم الثورة تنظيماتها الشعبية الخاصة. لم تحل الاخوان مثل باقى الإحزاب بل كان اغتيال شهيدها ومؤسسها احد أسباب قيام الثورة .

٥ — ثم حدثت أكبر مأساة فى تاريخ مصر الحديث فى جيلنا ، الصدام بين الاخوان والثورة فى ١٩٥٤ صراعا على السلطة ، ودفاعا عن الديمقراطية مع باقى الاحزاب الوطنية ، ورفضا لمعاهدة الجلاء التى أبرمت فى ١٩٥٤ والتى كانت تعطى لقوات الاحتلال البريطانى الحق فى العودة الى منطقة القناة فى حالة الحرب . وعاشت الحركة الاسلامية منذ ذلك الوقت بين جدران السجون تلاقى شتى صنوف التعذيب ، وكان من بين ضحاياها « عبد القادر عودة » فى ١٩٥٤ فقيه « التشريع الجنائى » وسيد قطب فى ١٩٦٥ أكبر مفكر اسلامى مؤثر حديث . أثرت ظلمة السجون وأهوال التعذيب فى فكره فانتقل من « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » ، « معركة الاسلام والرأسمالية » ، « السلام العالمى والاسلام » الى « معالم فى الطريق » . وبعد أن كان نقطة

التقاء للحركة الوطنية العلمانية والدينية ، الاشتراكية والاسلامية اتسم فكره الاخير بطابع العداء لكل شيء ، يعبر عن آلام البرىء . لم تعد هناك مصالحة ممكنة بين الاسلام والجاهلية ، بين حكم الله وحكم البشر ، فبقاء أحدهما مرهون بفناء الآخر عن طريق جيل قرآنى فريد ، طليعة مؤمنة ، تقلب الباطل حقا ، عن طريق السلطة تحريرا لوجدان البشر من رقبة الطاغوت وتحقيقا لشعار « لا اله الا الله » كمنهج حياة . وهو الفكر الذى ورثته الجماعات الاسلامية .

٦ — وبعد الردة فى أوائل السبعينات ، خرجت الحركة الاسلامية من السجون شاكرة لها متحالفة معها أمام عدو مشترك متمثل فى « الناصرية » . فعادت من كنف السلطة ، وكل منها يظن أنه يستعمل الآخر لحسابه الخاص ، تستعملها السلطة ضد خصومها السياسيين ، الناصريين والتقدميين بوجه عام خاصة داخل الجامعات ، وتستعمل هى السلطة للاخذ بالثأر القديم من الناصرية ، ولكسب أرضية جديدة فقدتها طوال عشرين عاما . وظل كل فريق يزايد على الآخر فى شعارات الاسلام ، بتطبيق الشريعة الاسلامية ، ورفع شعارات مثل العلم والايمان ، ومن لا ايمان له لا أمان له ، وتكوين لجان تقنين الشريعة ، واصدار قانون الاحوال الشخصية حتى تسرق السلطة الاضواء من الحركة الاسلامية ، وحتى تكسب الحركة الاسلامية الشعبية المفقودة وتهز أركان السلطة . ثم حدث الصدام بين حلفاء الامس عندما خرجت الجماعة الاسلامية عن الطريق المرسوم ، وظهر على السطح بعد اتفاقية الصلح مع اسرائيل فى ابريل ١٩٧٩ . بدأت الحركة الاسلامية فى التباعد عن النظام القائم ورفض السياسات المتبعة مثل اتفاقية كامب دافيد ، والانفتاح الاقتصادى ، والقوانين المقيدة للحريات ، والتحالف مع أمريكا والانحياز للغرب . فاقتربت من الحركة الوطنية ،

وبدأت مظاهر الوحدة الوطنية وجبهات الائتلاف . وظهر المشايخ الوطنيون مثل المحلاوى وعيد ، والتحمت المعارضة الدينية بالمعارضة السياسية كما حدث فى الثورة الايرانية قبل سقوط الشاه . فنصبت السلطة شراك الطائفية للحركة الاسلامية فوقعت فيه وجرت معهـا المعارضة السياسية فى قرارات سبتمبر الاخيرة .

انما الحوار الذى ندعو اليه اليوم هو تجاوز لما حدث فى الماضى من فعل ورد فعل ، وبداية صفحة جديدة للحرية الوطنية المصرية بجناحيها العلمانى والدينى ، ليس من منطلق العقل والسماح بنـاء على سماحة الاسلام ورفضه للعنف من أجل شراء الذمم ، والدخول فى مساومات ، وتقديم التنازلات ، والتلويح بالمناصب والقيادات ، كما حدث فى أوائل السبعينات بل لوضع كل فريق أمام التحديات المصيرية لجيلنا والتى تتمثل فى الآتى :

١ — شرعية السلطة ، ومصدر الحكم . فمن منا يرفض الحاكمية لله سواء بنص القرآن أو بمقتضيات الايمان ؟ من منا يرضى بحاكمية البشر كما عاشرها جيلنا سواء فى نظمنا قبل ١٩٥٢ أو بعدها ؟ من منا يرضى بحكم الملوك الوراثى أو بحكم الطبقات أو بحكم العشـائر والقبائل أو بحكم العسكر والجند ؟ من منـا يرضى بحكم القهـر والتسلط والطغيان ؟ من منا يرضى بحكم المذلة والهوان والاستسلام للعدو والتحالف مع الاستعمار ؟ من منا يرضى بالانظمة الحاكمة التى تثير فينا جميعا الغضب والنفور والاشمئزاز ؟ ان فشل الايديولوجيات العلمانية لتحديث مجتمعاتنا وتحريرها من ليبرالية وقومية واشتراكية تجعل الشباب بالضرورة رافضا لحاكمية البشر ، مطالبين بحاكمية أعلى ولا يجدونها الا فى حاكمية الله . ولو كان هناك نظام بشرى واحد

قادر على تحرير الارض ، وتوزيع الثروة ، والدفاع عن حريات الشعوب ، وتجنيد الجماهير وتوحيد شعوب المنطقة لما ألهب شعار حاكمية الله وجدان الشباب وايمان البسطاء .

٢ — ولكن ماذا تعنى الحاكمية لله ؟ وماذا يعنى حكم الشريعة ؟ كيف يمكن اعطاء المبدأ العام الشامل مضمونا تاريخيا فى الزمان والمكان ؟ هل نعنى حكم الائمة ؟ هل يعنى تطبيق قانون العقوبات والبداية بالحدود والكفارات ؟ وهل يمكن مطالبة الناس بواجباتهم قبل اعطائهم حقوقهم ؟ ان ما نخشاه هو أن تقع الحركة الاسلامية فى عدة منزلقات منها القضاء على حاكمية البشر من أجل احلال حاكمية الله بدلا عنها دون تطوير حاكمية البشر وجعلها أقرب الى حاكمية الله ، حكم الحرية والقانون والمساواة وليس حكم الاهواء والمصالح والافراد والعشائر . ان الله لا يحكم بذاته ولكنه يحكم من خلال الشريعة . والشريعة تقوم على رعاية مصالح الناس . والامامة تنفيذية خالصة تأتى بالبيعة ، وتحكم بالشورى . ومن ثم كانت الحاكمية دفاعا عن مصالح الناس فيما تعم به البلوى . وكانت السلطة اختيارا من الامة . ان ما نخشاه أيضا على الحركة الاسلامية أن تتزلق فى مطب الصولان والجولان فى قانون الاحوال الشخصية وكأن الشريعة الاسلامية لا تطبق الا فى حجرات النوم وليس فى المجتمع العريض ، وكأن مشكلتنا فقط هو الطلاق وتعدد الزوجات والحضانة وملكية الشقة والنفقة ! وكأن قضيتنا هو الزى الاسلامى ، ومظاهر الخلاعة ، وملاهى الهرم ، وبيع الخمور . وتكون مهمة الحركة الاسلامية الدفاع عن رجم الزانى ، وقطع يد السارق ، وصلب قاطع الطريق ، وتطبيق الحرابة دون أن تبين للناس أن الشريعة الاسلامية تعنى أساسا اعطاء حقوق الناس ، ونظاما اجتماعيا يقوم على المساواة ، ونظاما

سياسيا يقوم على الحرية ، وأن سارق الملايين وناهب ثروات الشعوب هو أولى بتطبيق الحد من سارق الرغيف وكوز الذرة ، وأن مظاهر الفساد الاخلاقى أقل بكثير من مظاهر الفساد الاجتماعى والسياسى، وأن قطع الافراد الطريق أقل خطورة من نهب الشركات المتعددة الجنسيات ثروات الشعوب ، وأن القصد من تطبيق الشريعة الاسلامية ليس اخافة البسطاء أو الحد من حركة التغير الاجتماعى أو الدفاع عن النظام القائم أو ايهام الناس بالايمان نفاقا وتسترا على الاوضاع المخالفة للشرع •

٣ — انما الحاكمية لله ، وتطبيق الشريعة الاسلامية يعنيان بالنسبة لنا مواجهة التحديات المصيرية لعصرنا وهى أربعة : الاولى ، تحرير الارض • ففلسطين ولبنان وسوريا محتلة ، وبسيناء قوات دولية ، وبمناطق كثيرة من عالمنا العربى والاسلامى قواعد عسكرية أجنبية • تحرير الارض اذن واجب أساسى على الامة ، وفرض شرعى على أى حاكم ، فالله اله السموات والارض وليس اله السموات وحدها ، والرب رب السموات والارض ، وليس رب السموات وحدها • « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وأن الله على نصرهم لقدير • الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ••• » (٢٢ : ٣٩) ، « ومالنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا » (٢ : ٢٤٦) ، « كتب عليكم القتال وهو كره لكم » (٢ : ٢١٦) ، « يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال » (٨ : ٦٥) ، وعشرات الآيات التى تجعل قتال الاعداء واجبا شرعيا ، والجهاد فى سبيل الله فرضا دينيا • ولا عجب أن تخرج من بيننا « جماعة الجهاد » لمحاربة أعداء الامة ، وقد يكون أعداؤنا فى الداخل أكثر ضراوة علينا من أعدائنا

فى الخارج ، فكلاهما اعتداء علينا واحتلال ، احتلال حريتنا واحتلال لارضنا .

٤ — والثانية توزيع الثروة . فنحن أمة يضرب بها المثل فى الغنى والفقر ، فى البطر والبؤس ، فى البطنة وسوء التغذية ، فى الترف والحرمان ، يستهلك فيها أقل من ٥٪ ما يزيد على ثلثى الانتاج القومى . فيها أقلية تسيطر على كل شىء ، وأغلبية محرومة من كل شىء . فيها الاثراء السريع عن طريق الاستيراد والتصدير ، والعمولات والرشاوى ، وتمثيل الشركات الاجنبية ، والاتجار بأقوات الشعوب أمام جماهير مطحونة بالغلاء وقلة الموارد والحيلة . وهذا وضع غير شرعى معارض لحاكمية الله التى جعلت العمل وحده مصدر القيمة بدليل الربا ، وجعلت الملكية لله وحده ، وأن الانسان مستخلف فيما أودعه اله بين يديه له حق الانتفاع والتصرف والاستثمار ولكن ليس له حق الاستغلال والاحتكار والاضرار بالغير والا تدخلت الدولة . فالامام له حق المصادرة والتأميم لصالح الجماعة حماية لها من استغلال الافراد . موارد الدولة ملك للامة من زراعة (الماء والكلأ) وصناعة (النار) ومعادن (الملح) . والركاز ملك للامة فى عرف الفقهاء ، عرف القدماء منه الذهب والفضة والحديد والنحاس ، وعرفنا نحن النفط . لا يجوز اكتناز الاموال فى أيدى القلة « كى لا يكون المال دولة بين الاغنياء منكم » (٥٩ : ٧) ، ولا يجوز أن تظهر فوارق بين الطبقات ، فالمال يدور فى المجتمع ، وليس كصدقة بل كحق « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » (٧٠ : ٧٤) . وفى المال حق غير الزكاة .

٥ — والثالثة حريات الناس ، وحقهم فى الاجتهاد ، والجهر

بالرأى ، وقول الحق فى وجه الحاكم الظالم ، والشهادة على العصر ، اذ لا تعنى الشهادة تمتمة الشفتين بل رؤية الواقع ، والشهادة عليه ، وربما الاستشهاد فى سبيله ، ومراجعة السلطان ، وتبصيره بالحق ، والنصح له ، والقيام بوظيفة الحسبة أى الرقابة على أجهزة الدولة وتحويل الارصدة ، وسرقة المال العام ، وحرق المخازن . وهذا يعنى اعطاء « لماذا استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحـرارا » ، مضمونها العصرى يرفض جميع القوانين المقيدة للحريات مثل قوانين الاشتباه والعيب والطوارىء .

٦ ــ رابعا ، تجنيد الجماهير ، وتحويلها من كم الى كيف ، وتكوين حزب الله الذى يدافع عن الحاكمية بهذا المضمون العصرى كما تتطلبه مصالح الامة وكما يعيشه جيلنا حتى لا نوكل أمورنـا لغيرنا ، ولا تلقى بتبعاتنا على الحكام ، ولا نستجدى العـون من الاعداء ، ونستغيث بالاصدقاء ، وتحويل هذا التشرذم والتفكك والتشتت فى الامة الى وحدة واحدة تحمى استقلال المنطقة وتحافظ على هويتها وحيادها بين المعسكرين المتناطحين علينا . « أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار » (١٢ : ٣٩) ، « ان هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاتقون » (٢٣ : ٥٢) .

هذه هى قضايا العصر ، وهذا هو التحدى الحقيقى ، فهل نحن مختلفون ؟

الشعارات الدينية والتفسير بالمضمون

ان لاشد ما يحزن الانسان أن يرى الاخوة الاعداء يتصارعون ، وأن تتساقط الرقاب من أجل سوء الفهم ، وأن تتبدد الجهود بسبب صورية التفسير ، وأن تتبعثر قوى الامة بلا داع . فان كثيرا ما يحدث فى لقاءاتنا الجماهيرية هذه الايام ، وحياتنا السياسية قد دب فيها النشاط ، أن ينقسم الجمهور ثلاثة أقسام : الاول يهتف ويصيح « الله أكبر ، ولله الحمد » ، « الله أكبر والعزة لله » ، « القرآن دستورنا » ، ويصيح القسم الآخر ويهتف « الله أكبر ، والعزة لمصر » ، « اشتراكية ، اشتراكية » ، « تحيا مصر » ، « ناصر ، ناصر » . أما القسم الثالث ، وهو الاغلب ، فانه يكون محاصرا بين القسمين الاولين ، يترقب وينتظر ، وجدانه مع الاول ، وواقعه مع الثانى . ينتظر لأيهما الغلبــة .

والسؤال هو الآتى : هل هناك تعارض بين الشعارات الدينية الاولى وبين المضامين السياسية الثانية ؟

والحقيقة أن التعارض الناشىء انما ناتج عن خطأ شائع من الفريق الاول وهو التفسير الصورى الفارغ من أى مضمون . فالله

كتب هذا المقال الصغير ابان فترة المشاركة فى صفحة الراى فى جريدة « الجمهورية » عام ١٩٧٦ ولم ينشر من قبل بعد استمرار حذف رئيس التحرير كثير من الفقرات ، وتوقفى عن المشاركة نهائيا فى آخر العام . وهذه صياغة جديدة طبق الاصل تقريبا كتبت فى ديسمبر ١٩٨٨ .

أكبر والعزة لله لا تعنى الا اله أكبر والعزة لمصر . وهل يكره الله أن تتحرر سيناء ؟ وهل ترفض عظمة الله أن تحيا مصر ؟ ان الشعار الدينى لا يمكن أن يكون فارغا بلا مضمون ، ولا يمكن أن يكون له الا مضمون من واقع من يرفع هذا الشعار . فالمصرى الذى يرفع شعار « اله أكبر » وهو محتل ومتخلف لا يمكن أن يعنى شعاره الا تحرير الارض المحتلة ، والقضاء على التخلف بكل صوره . فاذا صرخ أحد « الله أكبر » ، واذا هتف أحد « العزة لمصر » فالاول يقـول بالصورة الفارغة بلا مضمون ، والثانى يقول بالمضمون الواقعى بلا صورة .

والحقيقة أنه لا توجد حقيقة بلا صورة ومضمون . ولكن نظرا لاننا نعيش فى عصر تغلب عليه المراسم والاشكال فان اظهار المضمون يكون أوقع وأكثر التزاما بالواقع . واذا عرفنا أن الاسلام دين جوهر وليس دين شكل أى أنه يعتنى بالمضمون أكثر من اعتنائه بالصورة كان هتاف « العزة لمصر » أقرب الى روح الاسلام أى الى الواقع والمضمون . ولا تعنى مصر هنا أية نعرة قومية يرفضها الاســلام ولكنها تعنى الدفاع عن الارض ، والقضاء على التخلف ، وهما مطلبان اسلاميان .

وكذلك اذا صرخ أحد « القرآن دستورنا » أو « قرآنيــة ، قرآنية » ، واذا هتف آخر بشعار « اشتراكية ، اشتراكية » ، ويكاد يحدث التشابك بالايادى بين هؤلاء وهؤلاء ، كل فريق ينظر الى الآخر وكأنه عدو له ، ينظر الاول الى الثانى على أنه كافر بالدين ، وينظر الثانى الى الاول على أنه خائن لمصر . فالحقيقة أن شعار الفريق الاول شعار صورى لا مضمون له كمن يقول أحد اثنان واثنان يساوى أربعة

أى مجرد تحصيل حاصل . فمن منا لا يرضى بالقرآن دستورا لنا ؟ ولكن المهم كيف نملأ هذا الشعور بمضمونه . ما هو البرنامج السياسى والاقتصادى الذى يكفله هذا الدستور ؟ ولصالح من يتم الحكم ؟ ولصالح من يتم تخطيط الاقتصاد القومى ؟ ولصالح من يتم التعليم والثقافة ؟ ان واقعا مثل الواقع المصرى بدخله المحدود وعدد سكانه المتزايد لا يمكن أن يتحمل الا نظاما اشتراكيا ، وهذا معنى ما يرد باستمرار من حتمية الحل الاشتراكى . ومن ثم كانت الاشتراكية هو المضمون الوحيد لشعار « قرآنية ، قرآنية » أى القرآن بتفسير اشتراكى ، لما كانت الاشتراكية مطلبا للعصر .

ان الحوار الجاد بين هذين الفريقين ، الاول يرفع الشعارات الدينية ، والثانى يبرز المضامين السياسية هو نقطة البداية للعمل السياسى الجذرى . ولما كان ماضى مصر مرهونا بهذا الحوار ، وكانت القوتان الرئيسيتان قبل الثورة وبعدها بسنتين هما الاخوان المسلمون والشيوعيون ، وكنا نسمع عن التقاتل بين الاخوة الاعداء فان مستقبل مصر أيضا مازال مرهونا بهذا الحوار حتى يمكن اعطاء الشعارات الدينية مضامينها السياسية من واقع الناس . فالناس مؤمنون ، تحركهم الشعارات الدينية ، ومحتلون متخلفون ، حياتهم فى الاستقلال الوطنى وفى التنمية لصالح الطبقات الكادحة . ان مستقبل العمل السياسى مرهون بتفسير الدين تفسيرا تقدميا . فالدين هو الذى يعطى القوالب النظرية أى الصورة ، والتقدم هو المضمون الذى يفرضه الواقع ، ويعبر عن متطلباته . فى الوقت الذى يحدث ذلك لا تصبح الجماهير فى لقاءاتنا السياسية محاصرة بين الصراخ بالشعارات الدينية وبين الهتاف بالمضامين الاجتماعية ، تتفرج على العراك بين الاخوة الاعداء ، بل تجد فكرا سياسيا ينطلق من دينها

وتراثها ، ويلبى مطالب واقعها وحاجات عصرها • هذه الاغلبية التى كانت قبل الثورة متمثلة فى الوفد ، وكان قادتها الطليعــة الوفدية أصبحت جماهير ثورة ٢٣ يوليو بعد الثورة بقيادة الضباط الاحرار • وهى التى نطلق عليها سياسيا الآن اسم القوى الناصرية أو القوى التقدمية الوطنية • وهى التى ستجد فى النهاية فكرها السياسى ودورها التاريخى اذا ما التقى الاخوة الاعداء ، وفسرنا شعاراتنا الدينيــة بمضامينها الاجتماعية •

اليسار الاسلامي ومستقبل مصر

أولا — مقدمة ، مصر ، ماضيها وحاضرها ومستقبلها :

ان مستقبل مصر اليوم هو هم الجميع خاصة بعد أن مرت فى تاريخها الحديث بفترتين كانت فيها محور اهتمام العالم عندما خرجت من موقعها الجغرافى وسط القارات الثلاث وفى قلب العالم القديم ومن منبع حضاراته الاولى فى فجر نهضتها الحديثة فى عصر محمد على أول مرة ثم ابان نهضتها الحديثة الثانية بعد ثورة ٢٣ يوليو فى عهد ناصر . وقد كانت النتيجة واحدة ، تكالب الاستعمار الاوربى على مركز توحيد المنطقة وبؤرتها واخضاعها وردها داخل حدودها حتى يمكن القضاء على عناصر قوتها فى التجانس والانتشار وتوحيد المنطقة والحفاظ على استقلالها السياسى والاقتصادى فى مواجهة القوى الكبرى . فمصر ليست سويسرا ، بلدا محايدا ، ودولة مواجهة ، تزهو بمستوى معيشتها بل مصر هى الاربعون مليونا فى الحاضر والثمانين مليونا فى نهاية القرن ، هذه القوة البشرية التى لا حدود لها ، بما فى عناصرها من مثابرة وقدرات على الخلق والابداع ، واحساس بالرسالة وبعمق التاريخ ، كنانة الله فى الارض ، أم الدنيا ، مصر المحروسة ، مصر المحمية ، جندها خير أجناد الارض ، وشعبها فى رباط الى يوم القيامة .

الاهرام — مركز الدراسات الاستراتيجية ، ٣١ مايو — ١ يونيو ١٩٨١ .

فاذا كان هذا هو تاريخ مصر الحديث فى نهضتيها الاولى والثانية، واذا كان هذا هو وضع مصر وقدرها كان حاضر مصر موضع تساؤل ، وكان « احتجاب مصر » موضع دهشة واستغراب(١) • ولا يهم كيف تم ذلك الانتزاع ، وخروج القلب من الاطراف أو انتزاع الاطراف من القلب ، خروج الدوائر من المحور أو خروج المحور عن الدوائر ، انما المهم هو الواقعة ذاتها وآثار ذلك الاحتجاب على الحياة القومية من ضياع للولاء ، وغياب الانتماء ، وهجرة العقول الى الخارج ، واجهاض العقول فى الداخل ، واحلال قيم جديدة محل القيم القديمة ، والعكوف على هموم الحيــاة اليومية ، وقصر البـــاع ، والترهل ، والانتظار ، والملل ، وتغييب الوعى •

واذا كان هذا هو حاضر مصر يكون السؤال الاهم : وماذا عن مستقبلها ؟ هل الحاضر حالة مخاض جديد أم هو حالة دائمة مازلنا فى بدايتها ؟ وماذا عن البدائل أمام مصر ان هى استطاعت تجــاوز الحالة الراهنة وعادت الى الظهور تملأ قلب محاورها ، وتلم أطرافها ؟ وهل سيكون مستقبلها استمرارا لماضيها المستمر أم لحاضرها المنقطع ؟ واذا كان الاسلام هو مكونها الرئيسى وعنصرها التاريخى بعد أن ورث حضاراتها ودياناتها القديمة ، وكانت الثورة من معطيات عصرها وانجازات جيلها فهل يكون الاسلام الثورى هو الذى يوحد ماضيها وحاضرها ويعبر عن مستقبلها ؟

---

(١) د. أنور عبد الملك : احتجاب مصر ، المستقبل العربى ، العدد ١٨ اغسطس ١٩٨٠ .

ثانيـــا ــ تاريخ مصر :

الدين فى تاريخ مصر هو حضارتها وتراثها وفنها وعلمها وعمارتها وغناؤها وطقوسها ورقصها . وكانت مظاهر الطبيعة آلهة ، وكل ما يمد مصر بالخير والنُعيم اله : الشمس ، والنيل ، والحيوان . وانتسبت مصر الى مذهب « وحدة الطبيعـــة » (المونوفيزيقية) فى العصر المسيحى اعلانا عن وحدة الاله . ولما تم فتح مصر دخلت فى الاسلام بالتوحيد القديم . وكانت وحدتها وتجانسها صورة فعلية لهذا التوحيد النظرى . ثم أصبحت مصر محور الدعوة الاسلامية منذ الخلافـــة الفاطمية ، وتأسس الازهر لنشر الدعوة الشيعية فتحول الى أكبر جامعة اسلامية لا تعرف الفروق بين المذاهب ولا تدعو الا للاسلام الواحد . ثم قامت مصر بدورها فى الحفاظ على الامة الاسلامية ضد غارات التتار والمغول من الشرق والغزوات الصليبية من الغرب ؛ وخرجت أسماء صلاح الدين ، والظاهر بيبرس وغيرهم معلنة عن توحيد الامة الاسلامية ابتداء من محورها وبؤرتها فى مصر ضـــد الاخطار الخارجية والهجمات الاجنبية . وفى العصر المملوكى التركى أصبحت مصر حافظة العلم ، ومدرسة للعلماء ، كتبت فيها الموسوعات الكبرى . أصبح فقهاؤها وصوفيتها مزارات للناس ، ومناطق جذب لكل طلاب العلم والمعرفة . وظلت الى عهد قريب مرتبطة بالخلافة الاسلامية حتى وهى تطالب بالاستقلال الوطنى عن الاستعمار الاوربى . ومنهـــا خرجت أكبر دعوة اسلامية جديدة ، دعوة « الاخوان المسلمين » والتى مازالت مؤثرة وفعالة فى الحياة الوطنية المصرية .

وفى تاريـــخ مصر الحديث ارتبطت تياراتها الرئيسية الثلاثـــة بالاسلام على درجات متفاوتة . فالاصلاح الدينى عند الافغانى ومحمد عبده ورشيد رضا وقاسم أمين وعلى عبد الرازق وسعد زغلول ومصطفى

عبد الرازق خرج من الاسلام تمدينا له وتطويرا ورعاية لمصالح الامة • ومنه خرجت الاحزاب الوطنية ، وهو الذى وضع شعار « مصر للمصريين » ، ومنه خرجت الثورة العرابية • كما خرج التيار العلمانى أيضا على الرغم مما يبدو عليه من سيادة للفكر العلمانى الغربى ، خرج أيضا من واقع الامة الاسلامية يؤصل العلوم الاجتماعية والسياسية والمدنية فى القرآن كما فعل شبلى شميل أو يؤصل الفكر العلمى المادى فى تراثنا القديم كما فعل فرح أنطون ثم اسماعيل مظهر • أما التيار الليبرالى الذى أسسه الطهطاوى ولطفى السيد وطه حسين فقد كان الاسلام اطاره النظرى ومرجعه الذهنى سواء فى « مناهج الالباب » أو فى «الشعر الجاهلى » أو فى « العبقريات » • كان الاسلام اذن هو العنصر المشترك بين التيارات الرئيسية فى مصر الحديثة ، وكان هو رافدها التاريخى الباطنى الذى يمدها بمادتها وحركتها ودعائها سواء قبلته أم ثارت عليه أم نقدته وجددته وطورته •

وقد توالى على مصر فى تاريخها الحديث نظامان سياسيان : الليبرالية قبل ثورة ٢٣ يوليو ، والاشتراكية العربية بعدها بصرف النظر عن تطور النظامين بل ومدى دقة هاتين التسميتين •

١ — الليبرالية :

فقد تطورت الليبرالية الاولى من سيطرة الدولة على كل شىء أيام محمد على الى القصر الى الاستعمار الى الاحزاب الوطنية كما تطورت الاشتراكية العربية من المبادىء الستة الى الاشتراكية الديمقراطية التعاونية الى الاشتراكية العربية • ومع ذلك فالفيصل هو ثورة مصر الاخيرة بين ما قبلها وما بعدها •

كانت الليبرالية أساس بناء الدولة الحديثة فى مصر . وكانت ابنة الثورة الفرنسية بمبادئها الثلاثة : الحرية والاخاء والمساواة . تترجم « الشرطة » وتؤسس الدستور ، وتقول بالفصل بين السلطات ، وتؤسس المجالس النيابية ، وتجعل هم الدولة فى البناء والتعمير . تعطى الحرية للمواطنين . ويكفلها الدستور . وتجعل حب الوطن من الايمان ، وتدافع عن الاستقلال الوطنى ، وترفض الطغيان فى الداخل والاستعمار فى الخارج ، ومنها خرج الحزب الوطنى . ومازال الطهطاوى ولطفى السيد وطه حسين والعقاد علامات رائدة على طريقها .

ومع ذلك فقد انتهت الليبرالية فى تاريخ مصر الحديث بضياع استقلال مصر ، والاحتلال العسكرى ، وضياع النظام الليبرالى نفسه وتحولها الى نظام ملكى متعاون مع الاستعمار وأحد أسبابه . فلما بدأت الاحزاب الوطنية فى التكوين تصارعت على الحكم ، ودب الفساد فى الحياة النيابية على ما هو معروف قبل الثورة المصرية الاخيرة . كانت البلاد فى يد أقلية أجنبية أولية ثم وطنية ثانيا ، حصلت على الثروة ، وامتلكت الارض ، واحتكرت التجارة الخارجية والداخلية . وكانت موالية للغرب فكرا بالرغم من وطنيتها عملا وسلوكا باستثناء الاقلية . نالت حظها من التعليم فى الخارج ، وتأسست الجامعات لا يدخلها الا أبناء القادرين . فكانت الامية وكان الجهل ، فى حين اقتصر العلم على أبناء الطبقة العليا . وبدأ اضطهاد المعارضة السياسية اسلامية أو ماركسية أو وطنية . وكان يبدو أن النظام الليبرالى لا ينجح الا فى مجتمع ليبرالى ، مر بالليبرالية كفترة تاريخية مثل القرن السابع عشر فى الغرب بعد أن مر بعصر النهضة فى السادس عشر ، والاصلاح الدينى فى الخامس عشر والاحياء فى الرابع عشر ، بعد سيادة عدة قرون فى العصر الوسيط المتأخر للمحافظة والتقليد . فشل

النظام الليبرالى فى تاريخ مصر الحديث بالرغم من بعض انجازاته فى الوطنية والحرية والحداثة لانه كان نظاما ليبراليا سياسيا فى مجتمع محافظ تقليدى . فسادت ثقافة العصر وفرضت الفترة التاريخية التى تمر بها الامة نفسها على الليبرالية كنظام سياسى مزروع فى غير بيئتـــه .

ومع ذلك ظل الاسلام قابعـــا داخل النظام الليبرالى فكـــرا وممارسة . فقد نصب مشايخ الازهر محمد على واليا على مصر وكأن الشرعية لا تأتى من السلطة السياسية أو السلطة العسكرية وحدها بل من السلطة الدينية التى كانت تمثل فى ذلك الوقت ارادة الشعب . كما بدأت الثورة العرابية عندما بدأ فيها النظام الليبرالى متحـــولا الى ملكية متعاونة مع الاستعمار ، بدأت من منظور دينى تحررى وبمساندة مشايخ الازهر وعلمائهم باستثناء فقهاء السلطان(٢) . بل ان كل الاحزاب الوطنية فى مصر ظلت على ولائها للاسلام فكرا أو نظاما ، وظلت مرتبطة بطريقة أو بأخرى بنظام الخلافة سواء الحزب الوطنى أو حزب مصر الفتاة . والطهطاوى نفسه عالم من علمـــاء الازهر ، ومعايير حكمه واطار فكره فى « مناهج الالباب » الاشعرية التقليدية . يكتب « تلخيص الابريز » وفى نفس الوقت يكتب عن « محمد صلى الله عليه وسلم » وعن ساكن الحجاز . يثبت ضرورة تعلم البنات بآيات الله وسنة رسوله . فقد كانت الليبرالية احدى صياغات التراث الدينى التاريخى ، لا تتصادم معه حتى وان أتت اليه ، نظرا لظروف العصر ، وافدة من الخارج . وكان الافغـــانى

---

(٢) انظر مقالنا : الدين والثورة العرابية ، الموقف العربى ، مايـــو ١٩٨١ . وأيضا الجزء الثالث : الدين والنضال الوطنى .

وتلاميذه يروجون لنفس القيم الليبرالية من حرية وديمقراطية وتحديث للمجتمعات والاخذ بأساليب القوة والصناعة والعلم الحديث باسم الاسلام ومن خلال الاصلاح الدينى ، وكان الاسلام هو الوعاء النظرى أو الاطار التصورى أو المرجع الذهنى أو القوالب المستمدة من ثقافة الجماهير التى من خلالها يمكن أن يعبر عن روح العصر واحتياجات الامة • وكان محمد عبده هو المحرر الاول فى « الوقائع المصرية » وكأن المصلح الدينى هو الليبرالى الاول • ولم يغب الاسلام عن كبار مفكرى الليبرالية فى مصر • فقد دخل لطفى السيد فى معـارك الاسلام والتحديث اثر هجوم كرومر المشهور على الاسلام • كما كان طه حسين من خلال حزب الوفد وباسم المنهج والعلم هو الذى بدأ نقد التراث الادبى القديم وكما هو معروف فى « الشعر الجاهلى » ، وطالب باعادة النظر فى التراث الاسلامى بمناهج العلم • وكان العقاد بعبقرياته وكتاباته عن الاسلام دفاعا عنه ضـد هجمات المستشرقين وتعريفا بأصالته وحضارته يجد فى الاسلام تعبيرا عن ليبرالية العصر ووطنيته وزعاماته • وكان محمد حسين هيكل فى « حياة محمد » يعيد اكتشاف النضال الوطنى من خلال تراث الامة وجهادها فى الماضى • كما أن على عبد الرازق فى « الاسلام وأصول الحكم » ومن خـلال الاحرار الدستوريين دعا الى التحديث العلمانى باسم الاسلام كما فعل خالد محمد خالد من بعد • كل ذلك يدل على أن الليبرالية فى مصر كنظام سياسى وكتيار فكرى لم تجد معبرا عنها الا من خلال الاسلام تراث الامة ورافدها الحضارى ، ومخزونها القومى •

٢ ــ الاشتراكية العربية :

وانتهت الليبرالية بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ • ونشأ نظام آخـر

وطنى فى مصر على اتصال بكافة القوى الوطنية أولا ثم فى تصادم معها ثانيا حتى استقر بعد تأميم قناة السويس فى يوليو ١٩٥٦ كنظام وطنى ، وبعد الوحدة مع سوريا متمثلا القومية العربية ، وبعد قرارات يوليو الاشتراكية فى ١٩٦١ معلنا عن حتمية الحل الاشتراكى . وبالرغم من الانجازات الهائلة التى حققها النظام الجديد فى الداخل والخارج ، الاصلاح الزراعى ، تأميم قناة السويس ، جلاء قوات الاحتلال الانجليزى ، تمصير الشركات الاجنبية ، قرارات يوليو الاشتراكية ، حقوق العمال ، مجانية التعليم ، التصنيع ، القطاع العام ، تأميم التجارة الخارجية ، القومية العربية ، الحركة الاسيوية الافريقية ، حركة عدم الانحياز ، تأييد حركات التحرر الوطنى ضد الاستعمار ، المعاداة للصهونية وتأييد المقاومة الفلسطينية ، بالرغم من كل هذه الانجازات التى جعلت مصر تقوم برسالتها التاريخية فى المنطقة وفى العالم الا أنها سرعان ما تقلصت بعد اختفاء الزعامة الثورية . وظهرت حدود الثورة المصرية . لم تكن هناك تنظيمات شعبية لحمايتها والمحافظة عليها . فالثورة لا تكفى أن تكون فى الزعامة أو فى الفرد الواحد بل هى روح عامة للعصر ، والجماهير هى المعبرة عن روح العصر . فالزعامة الثورية دون جماهير ثورية حتى على فرض وجود أيديولوجية ثورية فورة سرعان ما تنطفىء بانطفاء الجسد وتوقف حركته . كما أن ظهور طبقة جديدة خلال عمر الثورة حلت محل الطبقة القديمة وتمتعت بمظاهر ترفها وثروتها وسلطتها حتى أصبحت حاجزا بين القيادة الثورية والجماهير الشعبية صاحبة المصلحة فى الثورة ، طبقة من البيروقراطيين والتكنوقراطيين والعسكريين والسياسيين هى التى أدت الى هزيمة النظام الثورى فى يونيو ١٩٦٧ . ولم تفلح محاولات تقليصها وتحجيمها فى بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨ .

كما ان الايديولوجية الثورية غلبت عليها الشعارات دون أن يكون لها مضمون فعلى والجماهير ترى وتسمع وتقارن ومثلها الشعبى يرن فى الاذان « أسمع كلامك يعجبنى أشوف أمورك أستعجب » . مثلا « العمل شرف ، العمل واجب ، العمل حياة » ولم يكن العمل وحده مصدر القيمة فى واقع الامر . أو « حتمية الحل الاشتراكى » ومازال التردد فى تأميم قطاع المقاولات وتجارة الجملة ، واعطاء الارض لمن يفلحها ، وتعريف الفلاح بالملكية وليس بفلح الارض أو « ارفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الاستعباد » وفى نفس الوقت غياب المعارضة السياسية وسيادة الرأى الواحد . وقد جعل ذلك القهر السياسى أسلوبا فى الحكم ، والاعتقال السياسى طريقا للحوار ، ضد اليمين مرة ، وضد اليسار مرة أخرى حتى ساد الفكر التبريرى ، وضاع الصدق فى القول ، وغابت المعارضة السياسية ، وتم التوحيد نهائيا بين الخبز والحرية ، وعم الخوف ، وحدث انفصام فى الشخصية الوطنية بين الداخل والخارج ، بين الهمس والصراخ(٣) .

ولم يغب الاسلام سلبا أم ايجابا عن الثورة المصرية ، وربما كان السلب فيها أكثر من الايجاب . فقد كان الضباط الاحرار من خلال قائد تنظيمهم على صلة بالاخوان المسلمين وبزعيمهم قبل الثورة. وكان ضمن الضباط الاحرار اما أعضاء فى الاخوان المسلمين أو متعاطفين معهم . وقد كان الاخوان دعامة الثورة بعد قيامها وتنظيمها الشعبى الوحيد فى غياب تنظيم خاص بالثورة . كما كان نجيب ببعض ما

---

(٣) انظر دراساتنا الثلاثة : رسالة الفكر ، اللامبالاة ، القرف ، فى قضايا معاصرة جـ ١ ص ٣ — ١٦ ص ١٧٧ — ٢٠٧ ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

يعلنه من عواطف اسلامية يعبر عن توجه اسلامى محتمل للثورة من قمتها وليس فقط من أعضائها • ولكن لسوء الحظ حدث صدام بين الثورة والاخوان فى مارس ١٩٥٤ واستمر حتى الآن ، صراعا على السلطة • لم تستطع الثورة تمثل الاسلام وأخذه وعائا للانجازات الثورية • ولم يستطع الاخوان أن يجعلوا من الاسلام الوعاء التاريخى للثورة • صحيح ان نقد الاخوان لمعاهدة الجلاء فى ١٩٥٤ كان يمثل برنامجا وطنيا أكثر تقدما مما قبله الضباط الأحرار ولكن تأميم قناة السويس جعل الجلاء كاملا وأنهى المعاهدة • ولكن القضاء على الاخوان منذ ١٩٥٤ وما لاقوه من تعذيب فى المعتقلات ثم القبض عليهم من جديد فى ١٩٦٥ واستشهاد أقطابهم فى المرتين وعلى رأسهم عبد القادر عودة وسيد قطب جعل المرارة فى النفوس والاخذ بالثأر ورفض كل ما أنجزته الثورة بحلوها ومرها هو البناء النفسى الغالب على أضخم تنظيم اسلامى شعبى عرفته مصر والعالم الاسلامى فى تاريخها الحديث • وبعد أن تمت الانجازات الثورية خارج الاسلام وباسم العلمانية ، الوطنية أو الاشتراكية الديمقراطية التعاونية أو الاشتراكية والقومية العربية ، تحول الاسلام فى نفوس الاخوان وتطور داخل جدرانه السجون وبعيدا عن المعترك السياسى فتقلص على نفسه بعد أن كان منتشرا فوق الواقع فى « العدالة الاجتماعية فى الاسلام »، وفى « معركة الاسلام والرأسمالية » ، وفى « السلام العالمى والاسلام » • وبعد هجوم الانظمة المحافظة على الاشتراكية العربية ، فخرج الاسلام دعائيا ، يروج للاشتراكية دفاعا عن نظام قائم ، ولاهثا ورائه ، دون أن يؤصل حاجات الناس ومطالبهم الاجتماعية داخل تراثهم وثقافتهم ، ودون أن يأخذ زمام المبادرة ويكون أمام النظام السياسى وليس وراءه ، ويكون ناقدا للاوضاع وليس مبررا لها •

وقد أمحت كل هذه الكتابات ، ومازال كتابها أحياء • وخرجت طبقة من المفكرين ورجال الدين صناعتها التبرير واصدار الفتاوى باشتراكية الاسلام • وبعد الهزيمة تحول الاسلام الى قدرية خالصة اذ لا يغنى حذر من قدر ، وظهرت قيم الايمان بالله ، والصبر على بلوائه • وفسرت الهزيمة على أساس أنها ابتعاد عن الله ، وبدأت تظهر مظاهر الشعائرية الدينية • وانتهى النظام كما بدأ ، يعتبر الاسلام شعائريا خارجيا وظيفيا من اقامة محطة لاذاعة القرآن الكريم ، وانشاء مجلس أعلى للشؤون الاسلامية ، واقامة مجمع البحوث الاسلامية ، وانشاء المساجد ، وتطوير التعليم فى الازهر ، والغاء المحاكم الشرعية والغاء الوقف ، واصلاح قانون الاحوال الشخصية ، وتنظيم الطرق الصوفية ، والتركيز على أهمية التربية الدينية فى المدارس ، وتقوقع تراث الامة وتحجر دينها فى الوقت الذى يحاصر فيه النظام الاشتراكى ضربا من الخارج وتصفية من الداخل •

ثالثا — حاضر مصر :

ومنذ اختفاء القيادة الثورية فى أواخر الستينات وأوائل السبعينات ، يتشكل حاضر مصر الآن منذ عشر سنوات • وتعود بعض مظاهر الليبرالية السابقة على الثورة دون البعض الآخر • فينشط القطاع الخاص من جديد وتكون الاولوية لرجال الاعمال والبنوك • وتجد بعض الطبقات الجديدة التى أثرت على حساب الثورة أو أبناء الطبقات القديمة فرصة لاظهار نشاطها المكبوت سلفا • كما تجد الطبقات المتوسطة وفرة فى البضائع المستوردة التى كانت محرومة منها والتى كانت لا تحصل عليها الا من الخارج أو بالتهريب الى الداخل • وجدت الطبقة المتوسطة ما تستهلكه ، وتجد تحت أيديها

ما تراه فى العواصم الاوربية خاصة وان الاسعار لا تشكل أى عائق لها • كما قد يسعد البعض ببعض مظاهر الحريات وبعض الامان خاصة أمام قضاء مستقل بالرغم من بعض القوانين المكبلة للحريات • فالامان من زوار الفجر أعطى الناس الاحساس بسيادة القانون •

ومع ذلك زادت الاسعار بطريقة فاقت بكثير زيادة الاجور ، فازدادت الطبقات الفقيرة فقرا ، وانخفض مستوى معيشتها ، وتفاقمت الازمة الغذائية ، وزادت كميـــة البضائع المستوردة على حســـاب المنتجات الوطنية فى كل شىء حتى فى أعتق المنتجات وأقربهـــا الى الحياة المصرية مثل الفول والعدس والعسل • وفى نفس الوقت زاد ثراء الطبقات العليا ، وانتشرت معدلات الربح السريع • وأصـــبح نمط الســـلوك ، كيف نكسب مليون دولار ؟ وأصـــبحت المضاربات والسمسرة والعمولات والرشاوى مصادر للرزق ، وانفتحت البلاد على رأس المال الاجنبى ، يأخذ أكثر مما يعطى ، ويسحب أكثر مما يودع ، ويحول مصر الى أسواق عالمية ، ولا ينشأ فيها الا صناعات استهلاكية للطبقات القادرة • وبدأت مكتسبات الثورة فى الافول ، من رفع للحراسات ، وتفتيت للقطاع العام ، وقضاء على الصـــناعات الوطنية ، واحداث اختناقات بها تسهل من عمليات الاستيراد والاشباع للاسواق ، ومخاطر تهدد مجانية التعليم • وتنزلق مصر شيئا فشيئا عن مسارها الوطنى المستقل وتدريجيا فتبدو موالية للغرب ، متخلية عن سياسة عدم الانحياز ، ورافعة يدها عن حركة التحرر الوطنى فى آسيا وافريقيا • وينخفض صوت القومية العربية ، ويتم الصـــلح مع اسرائيل • ويبدأ الولاء فى الخفوت ، والانتماء فى الضياع • لم يعد هناك مشروع قومى يلتف حوله الجميع ، ويجند طاقات الامة ، ويحرص على وحدتها القومية ، ويحرس أبناءها من الهجرة الى الخارج

أو الهجرة الى الداخل من بيع علمه وامكانياته لمن يدفع أكثر أو من العزلة والحسرة والتقوقع على الذات والاحباط للصامدين • ويعود الشعار القديم « مصر قطعة من أوربا » ، وتعود الليبرالية القديمة فى بعض سلبياتها دون وطنيتها وقوميتها وحفاظها على الاستقلال الوطنى •

ولقد ظل الاسلام فى السبعينات وعاء حضاريا ودعامة سياسية لاى نظام باعتبار أن الاسلام هو ثقافة الجماهير وأيديولوجيتها الشعبية • فعاد نشاط الاخوان المسلمين بالرغم من وجودهم تحت طائلة القانون وقرار الحل كسلاح فوقهم اذا ما خرجوا عن الطريق المرسوم لهم : معاداة الناصرية ، والكشف عن أهوال التعذيب ، والوقوع فى الشعائرية والعقائدية والمظهرية ، والمناداة بالاسلام الذى لا مكان له ولا زمان ، وعدم الدخول فى أية معركة سياسية فعلية • واذا كان البعد عن الله سببا فى هزيمة ١٩٦٧ فان الايمان بالله سبب نصر أكتوبر ١٩٧٣ • فقد صاح الجنود « الله أكبر » ، وعبرت الملائكة ، وشارك الرسول فى الحرب ، وازدادت المظهرية والشعائرية تأييدا من النظام السياسى مادام الاسلام لا يصبح الاسلام السياسى ، واتهمت المعارضة السياسية بالالحاد والكفر • وبدأت المزايدات فى الاسلام المظهرى تعمية للواقع السياسى ، وغطاء للنظام الذى قد لا يقره الاسلام السياسى • فصدرت قوانين الردة ، والحدود ، وتشكلت لجان تطبيق الشريعة الاسلامية فى مجلس الشعب ، ويعنون بها قانون العقوبات ادخالا للخوف فى قلوب الناس ، وليس اعطاء لحقوقهم وتلبية لحاجاتهم • ونوقش أمر مصادرة كتاب ابن عربى ، وليس المقصود منه الاموات بل الاحياء • وأصبح شعار المجتمع « العلم والايمان » • ولما كان العلم مرتبطا بالغرب فقد أصبح يعنى

استيراد العلم والتكنولوجيا الغربية بالاضافة إلى الايمان التقليدى الموروث • فلا نحن فهمنا أسس العلم وتصوراته وبنائه ، ولا نحن طورنا القديم وجددنا التراث وأعدنا صياغة الايمان طبقا لحاجات العصر • وزاد معدل بناء المساجد وانارتها وزخرفتها والاحتفال بالموالد والاعياد الدينية • وظهر عدد من الدعاة كنجوم اعلامية سـواء فى أجهزة الاعلام الرسمية أو فى خطباء المساجد تتلاعب بعواطف الناس الدينية وتتملق غرائزهم الجنسية المكبوتة • كما أصبحت القيم الدينية التقليدية المحافظة هى معيار السلوك مثل التقوى ، ومخافة اللـه ، والصبر فى مواجهة عواطف التمرد والرفض والثورة • فما عرف به شعب مصر هى الصلابة والاصالة والايمان • الصلابة فى مواجهـة التغير الاجتماعى ، والاصالة فى مواجهة الافكار والمذاهب الاشتراكية باعتبارها وافدة ، والايمان فى مواجهة العقل والفهم والاستنارة • وراجت كتب التصوف ، ويوم القيامة ، والبعث والحساب والعقاب • وأصبح الكتاب الدينى سلعة رائجة فى مواجهة الكتاب الثقافى • وأصبح احترام الاجيال السابقة وكبر السن وتبجيل القدماء هو السـلوك الامثل القويم فيما يسمى بأخلاق القرية ، وأخذ الحاكم صورة رب العشيرة والبطريرك العبرانى القديم • وتكونت أخيرا جامعة الشعوب العربية والاسلامية وستصدر « العروة الوثقى » بديلا عن جامعـة الشعوب العربية ، ولايجاد منطقة تمدد وانتشار لمصر • وأصـبح تأييد الاسلام والثورة الاسلامية مقصـورا على مواجهة الاتحـاد السوفيتى فى أفغانستان دون شعب فلسطين أو جنوب لبنان •

رابعـا ـ مستقبل مصر :

ولما كان تاريخ مصر مازال يفرض ثقله على حاضرها ، وكان ذلك الحاضر فى حالة تململ مستمر لا يستقر له حال وكأنه خارج عن مجرى

التاريخ ، ومضاد لطبيعة الاشياء ، ويتوق الى مستقبل أفضل كان السؤال : ما هو مستقبل مصر والى أين يصير حاضرها ؟ يبدو أن هناك أربعة احتمالات رئيسية مرتبة من الابعد الى الاقرب احتمالا وهى :

١ ــ الاسلام المحافظ •

وهو التيار الغالب الذى على السطح ، والذى نمثله « الجماعات الاسلامية » والتى يأخذها الغرب أحيانا على أنها تعادل « البديل الاسلامى » فى مصر ، وان مظاهر سلوك أعضائها أساسا يعبر عن الصحوة الاسلامية فى مصر • والحقيقة أن ظاهرة الجماعات الاسلامية ظاهرة فعلية تعبر عن اكتشاف الاسلام كبديل وحيد لمصر بعد أن أصبحت محط التجارب للايديولوجيات العلمانية الغربية فى تاريخها الحديث • فميزتها أنهـا تعبر عن المخزون النفسى لـدى الجماهير والتواصل التاريخى ، وهوية الامة وأصالتها ، ولا يمكن لاحد اتهامها بالعمالة أو الافكار المستوردة أو الالحاد • فهى علامة على الطريق ، ومؤشر على اختيار آخر لم يتم تجربته حتى الآن بالرغم من قوته وعناصر نجاحه الكامنة فيه • كما انها هى الاختيار الوحيد الموجود منذ عشر سنوات بعد انتهاء كل الاختيارات الاجتماعية الاخـرى كتنظيمات طلابية أو شعبية ظاهرة لها نشاط شرعى باستثناء أحزاب المعارضة الرسمية • فاذا ما أراد الشباب أن يعبر عن اخلاصه وولائه لقضية رافضا أن ينجرف فى خضم الحياة العلمية والسعى وراء الرزق وعرض نفسه فى سوق التجارة فانه لا يبقى أمامـه الا الجماعات الاسلامية كبديل مطروح كجماعة مؤمنة مخلصة ، تدعو الى الاخلاق ، وتتمسك بالمثل الاعلى ، وترفض المساومة عليه • هذا بالاضافة الى

التعاطف العام الذى تأخذه الجماعات من جماهير الشعب نظرا لانها جسد الجريمة وموطن التعذيب ، ونموذج النضال والاستمرار ، وما أسهل التعاطف مع المظلوم ضد الظالم •

ومع ذلك فهذا البديل غير مطروح بالفعل فى مستقبل مصر بالرغم من المظاهر المحيطة به والتى تدعو الى اصدار حكم مضاد • فمازال يمثل نظرة الهية للعالم تبدو فى أعنف ما يكون فى عقيدة « الحاكمية لله » كأن حكم البشر يتم أولا وأخيرا باسم الله وإصالحه دفاعا عنه والله غنى عن العالمين • ويصير الامر أكثر خطورة عندما تصبح حاكمية الله تعبر عن تصور للبشر ، فالله لا يحكم بنفسه وانما يتم الحكم من خلال جماعة بشرية وفى عصر معين وفى زمان معين وفى لحظة معينة • ولما كان كل مجتمع يتكون من طبقات فان الحاكمية تظهر فى طبقة اجتماعية تنادى بالحاكمية وهى فى حقيقة الامر تنادى بتصورها للحاكمية ، وقد يكون هذا التصور مختلفا عند طبقة اجتماعية أخرى • ومن ثم غلب على فكر الجماعات الشعارات الدينية دون مضمونها الاجتماعى ، مثل الحاكمية لله ، وتطبيق الشريعة الاسلامية • صحيح أن لدى بعض مفكريهم ارهاصات لنظريات اقتصادية واجتماعية وسياسية ترث اجتهادات المسلمين فى القرنين الاخيرين ولكنها ظلت أيضا فى اطار النظريات العامة دون الدخول فى برامج تفصيلية اجتماعية وسياسية واقتصادية لصيغة الحكم الاسلامى فى مجتمع مثل المجتمع المصرى ممثلا باحصائيات دقيقة للدخل وتوزيع الثروة ، وسياسة الاجور ، ونظام التجارة ، وصلة العامل بالعمل والفلاح بالارض ، والطالب بالمعهد • ولا يكفى الاحتماء بتكامل الاسلام ، فالحياة تحتاج الى تفصيلات • ولا تأكل الناس من الشعارات • كما ساد فكر الجماعات العقائدية واعطاء الاولوية للعقيدة ، والتفتيش فى ضمائر

الناس ، وفصل العقيدة عن أى مضمون اجتمـاعى أو سياسى أو اقتصادى فى حين أن التوحيد هـو نظرية اجتماعية شاملة ومبـدأ للاجتماع وللسياسة وللاقتصاد وللقانون • المجتمع واحد بلا طبقات ، والجنس البشرى واحد بلا تفرقة عنصرية ، والانسان واحد بـلا ازدواجية أو خصام • وان أقصى ما توصلت اليه الجماعات هو نظرة أخلاقية للكون ، تعطى الاولوية للفرد على الجماعة ، وللداخل على الخارج ، وللاخلاق على السياسة وكأن الاوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لا أثر لها وهى التى عناها القدماء باسم « أسباب النزول » • كما ركزت الجماعات على الجوانب المظهرية فى الدين ، وأعطت أهمية قصوى للشعائر والعبادات ، وتحولت المعركة من الحقيقة الى المظهر ، فطالت الذقون وتلفح الناس بالبياض ، وتمتمت الشفاة ، وطقطقت المسابح ، « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » • وتحول الامر الى نوع من الدعاية للدين ، ونوع من الجذب للناس وكأنها مستحضرات تجميل من نوع جديد يقبله الجميع ، محلى غير مستورد ، يفرح به الشباب عندما تجذب اليه الانظار وتجد من خلاله الفتيان والفتيات فرصة أعظم للزواج بصرف النظر عن المضمون القائم على الفضيلة والتقوى • فاذا ما أتت الممارسة فان سلوك الجماعات يبدو دائرا بين الكل ولا شىء ، يرفضون الحلول الوسط ، أو التعاون أو حتى الحوار مـع التيارات المخالفة • لابد من الهدم قبل البناء ، ومن القضاء على مجتمع الجاهلية قبل تأسيس مجتمع الايمان • وبالتالى ساد التعصب وغاب العقل ، واستشرى الهوى ، وانتهى الامر بالمغالين منهم الى تكوين جماعات منعزلة مثل « التكفير والهجرة » خارج المجتمع الجاهلى ، خارج المدن ، وعلى حواف الصحراء ، مجتمعات مغلقة ينتهى بهـا الأمر الى العزلة النفسية والاجتماعية ثم الى العداء الى الغير ثم

الى العدوان عليه . فيخسر القادة جماهيرهم ، وينحسر تعاطف الناس معهم ، وبعد ذلك تصعب التفرقة بين المؤمن والمجرم ، بين الولى والقاتل .

٢ — الماركسية التقليدية

وهو التيار المدان الآن والمتهم بالكفر والالحاد والعمالة مع أنه كان أحد مكونات تاريخ مصر الحديث ، وبلغ الذروة ابان الغليان الوطنى فى الاربعينات مع سائر التيارات الاخرى . وبالرغم مما امتازت به الماركسية التقليدية من وطنية ونضال ضد الاستعمار الخارجى والقهر السياسى الداخلى ، وبالرغم من تبنيها قضايا الطبقة العاملة ودفاعها عن الفقراء ، وبالرغم من نشاط أصحابه وحركتهم وتفانيهم واستعدادهم للموت الا أن الماركسيين فى مصر كانوا يكونون دوائر منعزلة على هامش المجتمع المصرى ، معظمهم من الفنانين والادباء المتحمسين للفن والحياة والتقدم والانسانية . ثقافتها غربية ، تعلم الادب الروسى والفن الاشتراكى وعلى دراية بتطور الفكر الاشتراكى الاوربى وكأن أصحابها مثقفون بلا وطن يشابهون الاشتراكيين الانجليز أو الفرنسيين أو الالمان . وبالتالى كانوا يمثلون أحد روافد الفكر الاوربى فى المجتمعات الاسلامية . لم تحاول تأصيل احتياجاتها فى تراث الامة أو قراءة حاضرها فى ماضيها ، حفاظا على التواصل التاريخى ، وسعيا وراء الالتحام بالجماهير . كان التراث بالنسبة لها دينيا ، وبالتالى غير علمى ، وبالتالى أيديولوجية الطبقة ، من افرازات المجتمع ، ومن ثم يجب القضاء عليها واحلال العلم محلها . وهذا يتم عن طريق تغيير بناء المجتمع الطبقى واحلال طبقة أخرى ، وتحويل المجتمع الزراعى الى مجتمع صناعى . وبعد

ذاك تتغير المجتمعات المتخلفة وتلحق بالمجتمعات المتقدمة • النمـط واحد ، والطريق واحد ، والهدف واحد •وكان هذا الولاء فى الفكر للغرب مقدمة للولاء فى الممارسة والتطبيق ، فكانت هذه الدوائر تستمع الى أوامر الدولية الثالثة ، مرتبطة بالاحزاب الشيوعية الغربية ، وبالحركة الشيوعية العالمية • قبلت تقسيم فلسطين ، وكانت تغلب مصالح المذهب على مصالح الوطن ، وتعطى الاولوية للعقيدة على الاخوة فى القومية • كانت لغتها صعبة الفهم ، عويصة الاسـلوب ، وسيلة للشباب للاعلان عن الذات ، والحديث عن الكم والكيف ، والنفى، ونفى النفى والاثبات وقوانين التناقض والمادة والطاقة والحركـة ، تجعل الشباب يشعر بأنه انتقل من ثقافة التخلف الى ثقافة التقدم ، من الدين الى العلم ، وتحيل النقص لديه الى عظمة • وكان من السهل حصارها من السلطة واتهامها بالكفر والالحاد ، وتشويه صورتها أمام الجماهير ، رصيدها الاول • فاذا ما نشأ حكم وطنى أيدوه ، وعاونوه مرحليا وتحالفوا معه تكتيكيا حتى يتغلبوا عليه أو يتغلب هو عليهم أو يخافونه ويبررونه ، ويزينون له أخطاءه حتى ينهار ، فيظهرون هم كبديل مطروح • هذا بالاضافة الى انقسامهم الى طوائف وشـيع وأحزاب وتجمعات طمعا فى الرئاسة أو ايغالا فى العقائدية أو تكفيرا لبعضهم البعض كما كانت تفعل الفرق الاسلامية القديمة •

وكان الاسلام فيها دينا مثل كل الاديان ، مثل المسيحية الاوربية • كهنوت وعقائد ، ورجال دين وخرافة ، أفيون للشعب ، يجب التخلص منه والاتجاه الى رحاب العلمانية وسلطان العلم وميدان الطبيعة • لقد سبقنا الغرب ومازلنا نحن نتخوف ونحن سائرون الى ما انتهى اليه لا محالة • أو على أكثر تقدير ، الاسلام دين تقدمى متصل بالحياة وواقعيته مشهود بها ، وعلمانيته مؤكدة لانه ليس به

رجال دين • ولكن ليس به شريعة مفصلة تكفى لجزئيات الحياة • به مبادىء عامة يمكن تفصيلها حسب كل عصر • ومن ثم لا يمنع الاسلام من الاستعارة والاقتباس لاى نظم أو قوانين لا تتعارض مع هـذه المبادىء العامة كما استعار من قبل من القانون الرومانى والقـانون الفارسى والقانون البيزنطى • وعلى هذا النحو يمكن اقتباس بعض القوانين الماركسية فى الاقتصاد أو السياسة أو الاجتماع مادامت لا تتعارض مع مبادىء الاسلام العامة • وهذا الموقف فى حقيقة الامـر يقلل من شأن الشريعة الاسلامية ويتجاهل تنظيمها لشـتى نواحى الحياة الاجتماعية ، وان الاستنباط يغنى عن الاقتباس ، وأن الاجتهاد يستبعد الاستعارة ويضاد التقليد • بل انه موقف انتهازى خالص يريد باسم الاسلام تبنى الماركسية وافساح المجال لها من داخل الاسلام ، معه وليس ضده(٤) • وهناك موقف آخر مستعار من موقف الاخوة المسيحيين وهو ان الدين لله والوطن للجميع ، وأن الدين ينظم العلاقة بين الانسان وربه أما الدولة فهى التى تنظم علاقات البشر بعضهم ببعض • فلا تناقض أن يظل الانسان مسيحيا ماركسيا ، فهو مسيحى لانه يؤمن بالله واليوم الآخر وهو ماركسى لانه يؤمن بالاشتراكية • وكذلك لا تناقض بين الاسلام والماركسية • فهو مسلم يؤدى أركان الاسلام الخمس ، ويؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولا يفرق بين أحد من رسله ويحج البيت ، ويؤدى الفرائض ، ويصوم رمضـان ولكنه يبقى الماركسية كنظام اجتماعى وسياسى واقتصادى • والحقيقة

---

(٤) انظر مقالاتنا الثلاثة بجريدة الجمهورية « ماذا كسبت مصر من جماعة الاخوان ؟ » ، « ماذا خسرت مصر من القضاء على الاخوان ؟ » ، « كيف يمكن تطوير فكر الاخوان ؟ » . الجمهـورية ١٩٧٦/٧/١٠ ، ١٩٧٦/٥/١٠ ، ١٩٧٦/٥/١٩ . وأيضا الجزء السادس : الاصـولية الاسلامية .

ان هذا الموقف أيضا فيه مقتل للاسلام لانه تحويل له الى دين مجرد لا شأن له بالحياة ويجعله مسيحية عقائدية ، الدين فى جانب والدنيا فى جانب • وهناك موقف آخر يحترم تراث الامة ويتعلم منه ولكن تظل الاشتراكية العلمية هدفا قائما بذاته والاسلام والتراث والامة وسيلة • وقد يغالى البعض ويجعل الاسلام السياسى هو كل شىء ويعادى الماركسية الغربية ، ولكن الاسلام السياسى فى مصر مع الجيش يكونان دعامتين أساسيتين لنهضة مصر وتمدينها ، ويجعل الدولة هى القائمة بعملية التحديث ، وكل مفكرى الامة مثل جيشها فى خدمة الدولة • وبالتالى تمحى المعارضة ، وينتهى دور الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولا يعود هناك دور للفقهاء أو العلماء ، وهم ورثة الانبياء القادرين على عزل الحاكم وهم لا يعزلهم الحكام • فالامة الاسلامية أمة يقودها الائمة العلماء(٥) •

٣ ـ الناصرية الشعبية :

وهو الاختيار الاقرب احتمالا فى مستقبل مصر القريب • وتعنى « الناصرية الشعبية » ان الناصرية استطاعت أن تعبر عن وجدان الامة ومصالحها الراهنة ولكنها شعبية هذه المرة ليست بيروقراطية تعتمد على الزعامة وحدها • هى الناصرية من جديد التى شكلت تاريخ مصر المعاصر دون حدودها آخذين فى الاعتبار أوجه نقصها فى التجربة الاولى • فالناصرية تعنى الآن لدى جماهير الامة الدفاع عن الفقراء وحماية مصالحهم وخفض الاسعار أو تثبيتها ، ودعم السلع الاساسية والحفاظ على رغيف العيش • كما تعنى لهم ايقاف

---

(٥) أثرنا ذكر المواقف دون ذكر الاشخاص احتراما للجميع •

جشع الطبقات العليا ، والتأميم ، ووضع حد أعلى للدخول وللملكية وسيطرة الدولة على وسائل الانتاج والصناعات الوطنية ، والسيطرة على رأس المال الاجنبى وتوظيفه لخدمة التنمية العامة القائمة على التخطيط • كما تعنى الناصرية الشعبية الكرامة الوطنية وعدم اذلال مصر ، والوقوف فى مواجهة الدول الكبرى وقبول تحديها للثـورة المصرية ، والاباء الوطنى فى مواجهة الاستجداء والسعى وراء الآخرين، والصمود أمام الاذاعات المعادية ومحاولات قلب نظام الحكم حتى لقد طال عمر الثورة حوالى عشرين عاما ، تجربة فريدة من تجارب العالم الثالث من حيث طول المدة واستقرار النظام وعظمة الانجازات • تعنى الناصرية الاستمرار فى تاريخ مصر الحديث وعناصره الدائمة فى مواجهة الاستعمار ، ومعاداة الصهيونية ، ورفض التبعية للقوى الكبرى • كما أنها تعنى رسالة مصر فى التاريخ مركز الدوائر الثلاث ، قلب العروبة ومنار العلم • وأخيرا تعنى الناصرية نزاهة الحكـم ، وايثار الصالح العام على الصالح الخاص ، والثورة ضد كل من يحاول النيل من هذه النزاهة بالشك أو الاتهام • وهى هذه المرة شعبية لان الجماهير هى التى ستحميها وليس الجهاز البيروقراطى السياسى أو الادارى • فقد تجاوزت الجماهير التنظيمات السياسية ، وسبق رجل الشارع الاحزاب بما فيها المعارضة ، يحرص الفلاح على الارض ، والعامل على حقه فى العمل ، والطالب على مجانية التعليم ، والمواطن على كرامته وشرفه • تستطيع صورة عبد الناصر اليـوم أن تلهب حماس الجماهير ، وأن تقود الكتل الشعبية فى الطرقات ، وأن تتحكم فى مسار التاريخ • تعنى الشعبية أيضا الحرص على عدم افـراز طبقات جديدة تتكسب على حســاب ثورة الجماهير ، وحركتها فى التاريخ بعد أن كانت الناصرية البيروقراطية مجرد تجربة أولى وهى أقرب الاختيارات ، فمازالت الناصرية تعيش فى وجدان الشـعب :

وقد قفزت اليه فى السبعينات كميعاد للحاضر ، وكأنها حلما يعيشه • ومن ثم تكون مهمة الناصرية الشعبية تحقيق هذا الحلم الى واقــع معــاش •

ومع ذلك ، فالمخاطر كثيرة • ليست من الخارج بل من الداخل من الناصرية التقليدية ذاتها وعجزها ربما عن مواكبة حركات التجديد فيها سواء فى الاجيال الناصرية التلقائية أو فى الجمــاهير الناصرية الشعبية • فمن هذه المخاطر الانقسام حول الزعامة ، ومحاولة كل فرد أن يخلف الزعيم الراحل سواء بشخصه أو بمجموعته أو بتفسيره أو بثقله التاريخى • ومنها أيضا اتباع الاساليب الناصرية القديمة والتى كانت المقتل للناصرية التقليدية أعنى أساليب القمــع ومنــع المعارضة ، واضطهاد المخالفين فى الرأى بدعوى الامن • فالديمقراطية مطلب تاريخى لكل المجتمعات التى تنتقل من التراث الى التجديد ، ومن القديم الى الجديد ، ومن التخلف الى التقدم حتى تتم عملية التحول فى أمان وحتى تثبت حرية الفكر وقيمة الانسان • ومنهــا أيضا الاستمرار فى الشعارات التى لا مضمون لها أو التى يضادها الواقع وتدحضها التجارب اليومية • فالناصرية فى جوهرها حل لمشاكل الجماهير ، والشعار لا يقوم الا بوظيفة اعلامية خالصة لسد النقص النظرى والقيام بدور التنظيم الشعبى وكأن مثل أو حكمة • فالحماس الناصرى لا يكفى والاجيال الغاضبة ينقصها الوعى النظرى والرؤية والحكمة والقدرة على التفاهم • ومنها أيضا قيادة عملية التقدم بعقلية مختلفة ، وفرض التخلف نفسه على مواقع التقدم ، وذلك مثل تجميع الاحزاب التقدمية فى البلاد المتخلفة عندما يفرض التخلف نفســه كواقع تاريخى على طلائع التقدم التى تود تغيير مســار التاريخ • ولكن يظل الخطر الاعظم هو الاصطدام بالحركة الاسلامية من جديد

اما لعدم تنازل الناصرية الشعبية عن العلمانية أو عن الاسلام الدعائى مثل الاسلام والاشتراكية ، والاسلام والتقدم ، والاسلام والثورة تبريرا للنظام الثورى القائم أو لعدم تنازل الحركة الاسلامية عن عدائها التاريخى للناصرية وعن رغبتها فى الانتقام منهـا ، طالما أن الجسد فيه آثار التعذيب ، وطالما أن كتابات الشهداء وعلى رأسهم سيد قطب مازالت تؤثر فى سلوك الناس وفى تكوينهم الذهنى وبنائهم النفسى ، طالما تظل الناصرية الشعبية تعبر عن حاضر الامة وليس مخزونها التراثى ، وهو الاطار الايديولوجى الذى يمكن أن يكـون حاملا لمطالبها الاجتماعية ، وطالما تظل الحركة الاسلامية تعبر عن تراث الامة على نحو فارغ ودون أن تكون حاملا لمطالب الامة الاجتماعية فى الزمان والمكان فما أسهل أن يهدف الشقاق فى الامة ، وما أسهل أن تشق الوحدة الوطنية ، وأن يتربص فريق بفريق • سيظل الاسلام دائما مناهضا لاى نظام قائم حتى ولو كان وطنيا تقدميا وسيظل أى نظام قائم يخشى الاسلام باعتباره شوكة فى جنبه قد تصـيبه فى مقتل ان عاجلا أو آجلا •

٤ — اليسار الاسلامى :

وهو الاختيار الاخير فى مستقبل مصر الذى يعبر عن ماضيها وحاضرها ومستقبلها • وهو الاختيار الذى يبدو بعيدا من حيث التحقق ولكنه فى حقيقة الامر قريب من حيث الامكانيات والتوقع • « ويقولون متى هو ؟ قل عسى أن يكون قريبا » (الاحزاب : ٦٣) • فاليسـار الاسلامى هو الناصرية الشعبية ، الاحتمال الارجح فى مستقبل مصر دون مخاطرها خاصة مقتلها الاخير وهو الاسلام والحركة الاسلامية والمحافظة الدينية التى تعبر عن ثقل تاريخى لا حيلة لنا أمـامه •

اليسار الاسلامى هو الذى يحقق هذا التزاوج فى وحدة باطنية عصرية بين الناصرية والاسلام ، بين الحاضر والماضى ، بين الثورة والتراث . فلا يحدث أى تغيير الا من خلال التواصل ، ومن ثم يأمن اليسار الاسلامى أى ثورات علمانية منفصلة عن التراث القومى للبلاد وأية حركات اسلامية فارغة من أى مضمون اجتماعى فى الزمان والمكان . ويعطى اليسار الاسلامى أكثر البرامج الاجتماعية تقدما . يسبق الناصرية والماركسية والاشتراكية لانه لا يعترف بالملكية ويقول بالاستخلاف ، ويرفض المجتمعات الطبقية ، ويجعل العمل وحده مصدر القيمة ، ويؤمم الوسائل العامة للانتاج ، ويعطى الارض لمن يفلحها ، والمصنع لمن يعمل فيه ، والجامعة لمن يدرس فيها . وهو القادر على تكوين جبهة وطنية قادرة على احتواء جميع المذاهب والاتجاهات السياسية . فالاسلام يتسم بالشمول ، ويضم الجزئيات ويكملها فى نسقه العام . به الوطنية الليبرالية والاشتراكية والقومية والعلمانية . وقد كان هو الوعاء الثورى للحركة الثورية فى ايران . وهو القادر على قطع خط الرجعة على المحافظة الدينية وقدرتها على تحريك الجماهير وتغييب وعيها ، وجذبها خارج وضعها الاجتماعى واغترابها عن العالم الذى نعيش فيه . وهو القادر أيضا على حماية العلمانية ومكتسبات تاريخ مصر الاجتماعى والسياسى من ليبرالية وناصرية ووطنية وقومية . فاليسار الاسلامى يتبنى كل انجازات هذه التيارات ويزيد عليها من تصوراته وبرامجه الاجتماعية . فالاسلام أولى بالتنوير الليبرالى . فهو دين العقل والحرية والطبيعة والانسان والديمقراطية والتقدم والتاريخ . وهو أولى بالناصرية . فيه العدالة الاجتماعية والثورة والتقدم ورفض موالاة الاجنبى ، ومعاداة الصهيونية ، والتحرر والحياد وعدم الانحياز . وهو أولى بالوطنية فالدفاع عن دار الاسلام فرض ، والشهادة مطلب . وهو الذى وحد

بين القوميات فى اطار الامة الاسلامية ، لكل لغتها وعاداتها وتقاليدها وعرفهـا بل ودينها فى اطـار الحلف الاسـلامى العـام . وهـو القادر على النفس الطويل والاستمرار لانه يمثل كل تيارات الامة ، ويجمع بين عنصريها الاساسيين : الاخوان والشيوعيين ، وجناحيوا الثابتين : اليمين الدينى واليسار العلمانى . لا يخشى أن ينقلب عليه جناح لانه يربط الثانى بالاول ، ويفسر الاول بالثانى . ولا يجـد صعوبة فى الحديث مع الجماهير فهى مستعدة له مفتوحة عليه . لا تحتاج الى كوادر حزبية ، فالائمة موجدون ، ولا الى دورات تدريبية فدروس العصر والمغرب والعشاء موجودة ، ولا الى دور ومقـار فالمساجد موجودة وعامرة ، ولا الى نزول الى الشعب والالتحام بـه كالسمك فى الماء فالاحياء الشعبية هى أحياء الحسين والسيدة زينب والامام الشافعى وعمرو بن العاص والسيدة نفيسة والسيدة عائشة والشعرانى . وقد خرجت الثورة الاسـلامية الكبرى فى ايران من مساجد طهران وأسواقها . ولا تحتاج الجماهير الى ثقافة حزبيـة أو كتب سياسية أو الى أيديولوجية وطنية فالاسلام تراثها ووعائها وأطارها الثقافى . وتفسيره ليس حكرا على سلطة بل يقرأ فيه الناس حاجاتهم ، ومشاع للجميع فلا صعوبة فى حث الناس على المعارضة السياسية ، فهناك الامر بالمعروف والنهى عن المنكر أو على دفـع الناس على الجهر بالقول والنضال فهناك الشهادة ، شهادة أن لا اله الا الله ، ورفض الآلهة المزيفة ونفيها من أجل تطهير الوعى القومى للاله الواحد الحق . وقد كان من شعارات الثورة الاسلامية الكبرى فى ايران « الله أكبر ، قاصم الجبارين » . ولا صعوبة فى دعوة الناس

---

(٦) انظر افتتاحيتنا « ماذا يعنى اليسار الاسلامى ؟ » فى اليسـار الاسلامى ، كتابات فى النهضة الاسلامية ، العدد الاول ، القاهرة ١٩٨١ . وهى افتتاحية هذا الجزء .

لتحرير الارض فهناك آيات الجهاد والامر بالقتال دفاعا عن الارض التى هى صنوان لله فى « اله السموات والارض » « رب السموات والارض » ، « وهو الذى فى السماء اله وفى الارض اله » . ولا صعوبة فى اذكاء التقدم ، فالوحى تقدم فى التاريخ على فترات ، والناسخ والمنسوخ تقدم فى التشريع بل ومذكور فى القرآن « لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر » (المدثر : ٣٧) . ولا صعوبة فى البدء بعمليات التنمية ، فالارض فى القرآن ليست صحراء بل ينزل عليها الماء فتهتز وتربو وتصبح مخضرة . ولا صعوبة فى التربية القومية فالمسلمون خير أمة أخرجت للناس ، والمسلم هو خليفة الله فى الارض ، عليه الرسالة ، وحمل الامانة . وكما عبر الاسلام عن تاريخ مصر الحديث بتياراته الثلاثة الليبرالى والاصلاحى والعلمانى فانه يعبر أيضا عن حاجات المثقفين جميعا . اليوم ، لا أحد لا يأخذه فى الاعتبار فى أبحاثه ودراساته وميدانه بل حتى فى علمه ومعمله . هذا ليس تصورا طوباويا للاسلام ومستقبل مصر بل هو واقع مصر أيضا . ولكن الامر الذى يخشى منه هو أن يكون الفكر جاهزا دون جماهير ، وأن يكون اليسار الاسلامى مجرد ثورة مثقفين أو أن يكون من خلق فقيه واحد أو قليل من الفقهاء لا يمثلون جمهور الامة الذين مازالوا ينتسبون للمحافظة الدينية كتيار تاريخى لم يتحول بعد منذ ألف عام ولم يشفع له قرنان من الاصلاح والنهضة والتنوير فى تاريخنا الحديث ، أو يتم حصاره من اليمين الدينى واليسار العلمانى فلا يجد له مخرجا ، أو يظل على مستوى النظر ولا يتحد بقضايا الواقع ولا يخرج عن الشعار الى حياة الناس اليومية أو يكون مجرد رؤية حالمة أو حلم راء لمستقبل مصر البعيد أو لآخر الزمان .

خامسا ــ خاتمة : حركة التاريخ :

ولكن الذى يحدد حركة التاريخ ومساره ليس مجــرد النبؤات ولكن عوامل حركة التاريخ ذاتها وجدله الباطنى وقوانين تطوره • فهناك الجماهير التى تصنع التاريخ ، فهى ثقله الرئيسى ، ومحركه الاول • الى أى مدى تظل خارج التاريخ والى أى مدى تدخل فيه ؟ وذلك لا يرجع الى تنبؤ بل الى عمل مستمر وحركة دائبة ، وتوعية لها ، وتوجيهها وتحريكها وصبها فى قنوات الحركة لاحداث التغير المنشود • وهناك أيضا الافعال المقصودة للافراد والجماعات والتى تتم بناء على خطة طويلة الامد وعلى مراحل تتحقق تدريجها • وهى أفعال القادرين على تغيير حركة التاريخ ليس فقط من الزعماء السياسيين الذين هم أقدر من خلال السلطة على احداث مثل هذا التغيير ولكن أيضا العلماء والمثقفين والفقهاء والائمة والطلبة والعمال كزعامات • ويدخل فى ذلك أعمال الاندية والنقابات والاتحادات وكل القــــوى الاجتماعية المنظمة • ثم بعد ذلك ترقب « العرض التاريخى » المصادفة التى يقدمها الحاضر ، الفرصة التى منها يتحرك التاريخ ، نتوءات السياسة أو أغوار الارض أو فجوات التاريخ أو حتى هفوات الزعامات القائمة • يكون هذا العرض التاريخى بمثابة المفجر للثورة ، المعلن عن بداية التغير فى الاتجاه السياسى وفى البناء الاجتماعى وفى المسار التاريخى(٧) • هذا بالاضافة الى قوانين حركة التاريخ ومساره وقوانين الصراع الاجتماعى ، وهى القوالب الفارغة والبناء الصورى الذى تصب فيه حركة الجماهير الواعية وأعمال الافراد المقصودة وأعراض

---

(٧) وذلك مثل انتخابات نادى الضباط فى الثورة المصرية فى ١٩٥٢ ، والقبض على سعد زغلول وزملائه فى ثورة ١٩١٩ وزيادة الاسعار فى يناير ١٩٧٧ •

التاريخ بالمصادفة • وهى ليست قوانين آلية بل تملؤها حياة الجماعات والافراد • والافكار جزء من حركة التاريخ ووعى الجماهير • ومن ثم فان « اليسار الاسلامى ومستقبل مصر » حتى ولو كان مجرد نبؤة فان رسالات الانبياء كلها كانت نبؤات فى التاريخ • واذا كان مجرد حلما خياليا طوباويا فان الاشتراكية بدأت كذلك قبل أن تصبح حقيقة وعلما ونظاما ودولة ومعسكرا • واذا كان مجرد ذكرى فان الذكرى تنفع المؤمنين • وفى نطاق التاريخ حيث تتلاقى خطوط الحرية بالحتمية قد يتم تجاوز فترات الزمان • فقد يلحق أشيل بالسلحفاة فى قفزة واحـــدة !

« انهم يرونه بعيدا ، ونراه قريبا » (المعارج : ٧) •

التنوير الديني والتنظيم السياسي

لاول مرة فى مصر ، تقوم تجربة حزبية فريدة فى « التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى » يضم عدة تيارات فكرية تمثل قوى وطنية متعـددة وعلى رأسهـا النـاصريون والديمقراطيون والوحـدويون والماركسيون والتنوير الدينى متفقة فيما بينها على حـد أدنى من المبادىء تتمثل فى التيارات والقوى المختلفة دون أن يفقد كل منهـا منطلقاته النظرية واجتهاداته فى تحليل الواقع ، ورصد مشـاكله ، ووسائل تغييره ، وحتى لا يصبح التجمع ميدانا لصراع القوى ، يحاول كل منها العمل لصالحه الخاص أو الاستئثار بأكبر قـدر ممكن من المكاسب من خلاله سواء بالنسبة للمناصب القيادية أو بالنسبة للتأثير على الجماهير . فاننى أقدم هذه الورقة للمناقشة لتحديد الصلة بين التنوير الدينى الى أقصى مدى وكيف أنه باستطاعته أن يكون الدرع الحامى لكل التيارات ، ورأس الرمح لكل القوى ، والبوتقـة التى تنصهر فيها كل المذاهب ، والاساس الايديولوجى للتجمع دون احتكار للنظر ، بل بالتأكيد على شرعية المداخل المتعددة ، وضرورة التفسيرات المتنوعة .

قدمت هذه الورقة لحزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى عـام ١٩٧٦ لمناقشة الصلة بين التيار الدينى المستنير وباقى القوى الوطنية فى الحزب اثناء اصدار جريدة الاهالى الاولى احساسا بأنه تيار معاصر أمام تيـار آخر سائد . ولم تلاق الورقة أى اهتمام من الحزب أو مناقشـة علنية لها .

أولا — مقدمة تاريخية : التنوير الدينى ووجدان الامة •

ليس التنوير الدينى وليد الظروف الحالية ، نشأ نتيجة لصراع القوى الاجتماعية كما تنشأ الاحزاب السياسية بل هو يعبر عن وجدان الامة ، وتاريخ الشعب فى مساره الطويل • ودون رجوع الى الانبياء الذين ساهموا فى تقدم الوعى الانسانى ، نظرا وعملا ، ونحن جزء من هذا الوعى ، ودون لجوء الى التيارات العقلانية فى تراثنا القديم عند المعتزلة وابن رشد والى الجوانب الواقعية التى ترعى الصالح العام فى أصول الفقه ، ودون ذكر لتاريخ علماء الاسلام ووقوفهم أمام الحكام والطغاة باسم الامة ودفاعا عن مصالح الجماعة فانى أكتفى بالاشارة الى الماضى القريب •

أولا : ان حركات الاصلاح الدينى الاخيرة منذ الافغانى ومحمد عبده والكواكبى وعبد الحميد بن باديس ، حتى محمد اقبال وحسن البنا وسيد قطب ، تمثل احدى روافد اليسار الدينى الذى بدأ بمهمة التنوير واعلاء شأن العقل من جديد خاصة فيما يتعلق بمسائل العدل • واليسار الدينى هو فى حقيقة الامر تطوير لحركات الاصلاح الدينى الاخيرة بعد أن توقفت دون أن تستنفذ كل قدراتها بعد • بل اننا قد تأخرنا عما قاله محمد بن عبد الوهاب فى رفض الوساطة والشفاعة بين العبد والرب وتأكيده على نقاء التوحيد • كما أننا تأخرنا عن مواجهة الاستعمار والدفاع عن وحدة الامة ضد الغاصب كما فعل الافغانى • كما لم تفلح فينا دعوة الكواكبى لتجنيد الجماهير ضد اللامبالاة وللحرية ضد الاستبداد والاستعباد • ان انشغال الاصلاح الدينى بالقضية الوطنية فى محاربة الاستعمار ، وبالقضية الاجتماعية فى تحقيق العدالة الاجتماعية ، وفى وحدة العالم الاسلامى وشعوب

الشرق ، مازال هو انشغالنا حتى الآن فى معركة التحرير والبنـاء الاشتراكى للمجتمع • يحاول اليسار الدينى تطوير حركة الاصلاح وتحويله من اصلاح نسبى الى اصلاح جذرى ، ومن اصلاح العقائد الى تغيير المجتمع ، كما يحاول تخليصه من بعض العوائق النظـرية التى ظل أسيرا لها بهجومه على الاشتراكية العلمية ، والنظرة المادية ودعوته الى نسبية العقل وحدود الارادة الانسانية •

كما أن اليسار الدينى ثانيا هو تطوير لبعض أجنحة جماعـة الاخوان المسلمين التى بدأت فى الظهور ، خاصة بعد دخول الشهيد سيد قطب فى الجماعة فى أوائل الخمسينات وكتاباته عن « العـدالة الاجتماعية فى الاسلام » ، وتفسيره التوحيد الاسلامى على أنه يقوم على ثلاثة مبادىء : تحرر الوجدان الانسانى ، والمساواة الاجتماعية ، والتكافل الاجتماعى • وقد تمثل هـذا التيار فى ظهور لجنة الشباب المسلم ومحاولتها الكتابة فى الاقتصـاد الاسلامى ، وتحويل ذلك الى برنامج عملى فى صورة شركات مساهمة ، وبنـوك بلا فوائد ، وجمعيات تعاونية ، وصناعات يديرها العمال برأس مال مشترك • ولو قدر للامام الشهيد أن يحيى حياة طبيعية خارج الجدران وأن يستمر فى تطوره الفكرى وممارسته اليومية لاصبح من ركائز اليسار الدينى • وان التطور الطبيعى لجماعة الاخوان المسلمين بمساعدة « التجمـع الوطنى » لهو اليسار الدينى فى النهاية •

واليسار الدينى ثالثا هو أيضا تطوير واستمرار للتيارات الماركسية المرتكزة على الدين عند عبد الرحمن الشرقاوى وخالد محى الدين وشهدى عطية والذى كان أقلية فى مواجهة التيار الماركسى العام الذى

تغلب عليه الماركسية التقليدية المرتبطة بالفكر الغربى وما ســاده فى القرن الماضى من داروينية ومادية وآلية ، وكأن التقليد ، وهو أحد مظاهر التخلف ، ليس منهج الاتجاهات الدينية المحافظة وحدها بل هو منهج عام وأشمل ينطبق أيضا على التيارات التى تبغى التقدمية والتحررية • اليسار الدينى اذن هو عودة للماركسية الوطنية ، والدين هو تراث الوطن ووجدانه ، ورد فعل على الماركسية الغربية التقليدية التى تخلت عنها الاحزاب الماركسية الغربية ذاتها فى القرن العشرين • اليسار الدينى هو أيضا عودة لاكتشاف « المسيحية البدائية » ولقراءة « حروب الفلاحين فى ألمانيا فى القرن السادس عشر » وتصحيح خطأ شائع يأخذ نصف العبارة « الدين أفيون الشعب » ويترك النصف الآخر « وصرخة المضطهدين » •

واليسار الدينى رابعا أيضا هو وليد ثورة ٢٣ يوليو خاصة فى أوائل الستينات بعد قرارات يوليو الاشتراكية فى ١٩٦١ • فقد ظهرت عدة كتابات عن الاسلام والاشتراكية وعن الاسلام والعدالة الاجتماعية ولكنها ظلت محدودة الاثر وظهرت فيها العيوب الآتية :

(أ) أنها كانت بدافع من السلطة وتبريرا لها ، ولو أن السلطة كانت تدعو للرأسمالية لظهرت كتابات عن الدين والرأسمالية ، فكان الفكر الدينى هنا مثل الفكر السياسى دفاعا عن النظام القائم •

(ب) لم تكن سابقة للسلطة ، ولم تتحول الى قوى معارضة ، ولم تظهر الانفصام بين القول والعمل ، وبين الشعار والتطبيق ، وبين الفكر والواقع •

(جـ) كان يغلب عليها الدفاع عن الدين ، وبيان أن الدين يساير

الركب ، فيه أصول الاشتراكية ، فكانت أقرب الى علم الكلام السياسى المدافع عن الدين فى جوانبه الاجتماعية •

(د) كانت تقوم على التوفيق من الخارج بين الدين والاشتراكية دون التحليل من الداخل ومن ثم نقصها المنهج العلمى ، وغابت عنها الاصالة النظرية •

(هـ) تحولت أحيانا الى مزايدة وتجارة ، مادام الامر قد تحول الى مباريات فى الشعارات التى لا ينتج عنها عمل ، ومن ثم غاب عنها النقد الاجتماعى ، وأصبحت صورية جوفاء مثل الخطابة دون الاعتماد على العقل •

(و) تحولت أحيانا ، وطبقا للظروف السياسية الى نقد للاشتراكية العلمية ومحاولة لصدها بدعوى الافكار المستوردة المعارضة لتراث البلاد وتربته •

(ز) لم تحدث تأثيرا فى الشعب ، ولم تحدث تغييرا فى رؤية الحزب ، بل لم تتجاوز أدبيات السلطة القائمة ومحاولات الدفاع عنها ضد بقايا الاقطاع ورأس المال والانظمة الرجعية فى العالم العربى •

اليسار الدينى اذن هو المصب النهائى لحركات الاصلاح الدينى ، ولجماعة الاخوان المسلمين ، وللتيارات الماركسية ولثورة ٢٣ يوليو ، وكان من الطبيعى أن يصب فى النهاية فى « التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى » •

ثانيا : هل للتنظيم الحزبى الاولوية على التنوير الدينى ؟

هناك رأى يقول (وهو رأى الاستاذ خالد محى الدين والدكتور محمد أحمد خلف الله) بأن للتنظيم الحزبى الاولوية على التنوير

الدينى ، وأن الحزب ليس جماعة دينية تهدف الى الاصلاح بل هو مجموعة من القوى يجب الحرص عليها وعلى ازديادها وترابطهـا بصرف النظر عن أفكارها وعقائدها وتصوراتها مادامت تساند الحزب وتعمل على تقوية قواعده ، فتعطى أصواتها لمرشحيه ، وتدعو لهم ، وتسانده فى الاحتفالات ، وتجند له الناس بما لها من تأثير على العامة ، ومن ثم لا يجب تغييرها والا انفرط العقد ، وتفكك الحزب • فالحزب هو الاساس والدين جزء منه ، وجريدة الحزب جريدة سياسية وليست جريدة دينية • وعلى الحزب أن يتجنب الدخول فى المناقشات النظرية خاصة فيما يتعلق بالحلال والحرام نظرا لاختلاف المشرعين فيـه ، ولتغير الفقه من عصر الى عصر ، ولان باب الاجتهاد مفتوح فيما لم يرد فيه نص وهو الكثير لان الاسلام وضع الاسس العامة وتـرك التطبيق للعقل الانسانى والمصلحة العامة • وعلى الحزب أن يتجنب الاصطدام مع العقائد السائدة حتى لا يخسر الحزب قواعده ، وتنحسر عنه عامته • ربما يكون ذلك فى مرحلة تالية بعد انضمام الجماهير للحزب أن يحدث التنوير الدينى كحركة داخلية فى الحزب دون أن يكون حلقة الاتصال بين الحزب وجماهير الشعب خارجا عنه ، وكأن التنوير مسألة خاصة وليست مسألة عامة ، وكأنها حكر على أعضاء الحزب وليست واجبا وطنيا داخل الحزب وخارجه •

وهذا — فى رأيى — موقف خاطىء وتصور غير دقيق لعلاقة التنوير الدينى بالتنظيم السياسى من الناحيتين الدينية والسياسية فى آن واحد للاسباب الآتية :

١ — ان الدين هو الاساس والحزب هو الفرع • وان جماهيرنا متدينة أولا وحزبية ثانيا ، فهى متدينة قبل أن تكون حزبية ، ودينها هو تراثها الذى يحدد لها تصوراتها ، ويضع لها قيمها ، ويعمـل

كموجهات لسلوكها • الدين هو الثابت والحزب هو المتغير ، الدين هو الماضى والحاضر ، والحزب هو الحاضر فحسب ، الدين هو التاريخ والحزب هو احدى حركاته • الدين هو المنبع والحزب هو المصب ، الدين هو الكل والحزب هو الجزء • فاذا كان الحال كذلك فكيف يكون للحزب الاولوية على الدين ؟ ألا تكون هذه الاولوية قلبا لطبيعة الاشياء ومحاولة لوضع الكل فى الجزء ، وجعل الفرع هو الاساس ، وقصر الماضى والحاضر وربما المستقبل على الحاضر وحده ، وجعل المنبع مصبا والمصب منبعا ؟ ان الوضع الطبيعى من أجل الدين ومن أجل الحزب هو السير مع طبائع الاشياء أى أولوية الدين على الحزب حتى يتحول الدين الى حركة وحتى يتأصل الحزب فى وجدان الشعب •

٢ ـ أنا مسلم أولا وحزبى ثانيا ، وأنا تعنى هنا المواطن العادى ، رجل الشارع وابن البلد ، الفلاح والعامل والمثقف أبى أم لم يأبى • ومن ثم فالامر الطبيعى أن يكون الحزب فى خدمة الاسلام ، وليس الاسلام فى خدمة الحزب • ويعنى الاسلام هنا التراث القومى للناس الذى يضم المسيحية أيضا • وما من أحد منا فى حالة تعارض بين الاسلام والحزب سيختار الحزب دون الاسلام • وأقول ذلك لا عن تعصب دينى أو عن قلة حماس حزبى بل من منطلق وصف حقائق الاشياء وطبائع الامور وحتى يتوافر عنصر الصدق من منطلق وصف حقائق الاشياء وطبائع الامور وحتى يتوافر عنصر الصدق فى عضو الحزب وفى قيادته بوجه عام ولدى كتابه ومفكريه بوجه خاص والا ضاع عنصر وحدة الشخصية فى حياتنا ، ونكون مسلمين وحزبيين ، ونعيش الاسلام والحزب ، كل على مستواه ، ومن ثم نحاصر الدين ونقطع جذور الحزب ونحصر أنفسنا بين التصوف والماركسية ، وتكون نهاية التنوير الدينى والتنظيم الحزبى على السواء • طاقة معطلة ،

وآلة بلا طاقة ! ان الموقف الايمانى السليم يحتم عدم الشرك واعطاء الاولوية المطلقة للدين على الحزب ، وتكوين القضية هى كيفية تفسير الدين بما يتفق مع مصالح الامة التى يدافع عنها الحزب ، وتكون مصالح الامة هو مقياس تفسير الدين ومضمون برنامج الحزب •

٣ ـ لا يمكن للتنظيم الحزبى أن يكون مقياسا للتنوير الدينى ، فالتنظيم لا يكون مقياسا للفكر • التنظيم الحزبى يخضع لاعتبارات عملية خالصة فى حين يقوم التنوير الدينى على الدعوة الى التفكير ، واعمال العقل والروية ، والتأمل فى الداخل والخارج • فالتنظيم والتنوير عالمان مستقلان تماما مثل استقلال البدن والروح وان كانا متفاعلين متحدين على نحو تكون للروح فيه السيطرة على البدن • التنوير الدينى هو الذى يضع المشاكل من الاساس ، وهو الذى يحدد الهدف ، ويشخص طبيعة المرحلة التاريخية التى يمر بها المجتمع ، وهو الذى يضع الاساس العقلانى للتنظيم • أما التنظيم السياسى فهى الاداة التى يوكل اليها تنفيذ مهام التنوير الدينى دون أن تكون حكما فيه أو معتذرة عن تلبية مطالبه بحجة المراحل وطبيعتها ، لان تشخيص طبيعة المرحلة من مهام العقل وليست من وظائف التنظيم •

٤ ـ لقد فشلت التنظيمات الحزبية فى جيلنا وابان الثورة المصرية فى أن تصبح أحزابا شعبية لانها كانت مفروضة على الشعب ، ولم تنبعث منه ، ولم تعبر عن تراثه على نحو صادق دون تملق أو مداهنة ، ولم تهز وجدانه ، ولم تصبح مصدرا لسلوكه ، ومنبعا لقيمه ، يعبر من خلالها عن فكره ، ويضحى بحياته فى سبيلها • واعطاء الاولوية للتنظيم السياسى على التنوير الدينى يجعل تجربة حزبنا الجديد مثل التجارب السابقة غير نابع من وجدان الشعب وتراثه الطويل • ان التجربة الحزبية على مدى ربع قرن تثبت أن أيديولوجيات

الاحزاب المفروضة لم تمس وجدان الشعب ، ودخلت من أذن وخرجت من الاذن الاخرى وان كانت قد أثرت فى بعض الشباب على نحـو عاطفى نظرا لحماسهم التلقائى للثورة . واعطاء الاولوية للتنظيم على التنوير يعيدنا الى تجربتنا الحزبية الماضية ولا يجعل من الحزب الجديد تجربة فريدة فى نوعها باعتباره أداة بلورة لتراث الامـة ، وقناة جماعية تعبر فيها عن نفسها من خلالها كما كانت أحزاب الاصلاح فى حياتنا المعاصرة التى واجهت الاحزاب الدينية التقليدية وأحزاب التفرنج الغربى . ان جماهيرنا مازالت فى عزلة عن أحزابنا السياسية ، ومازال اليسار أيضا منعزلا عن جماهير الشعب من حيث هو تنظيم ، ويعانى من مشاكل الاتصال الفكرى به خاصة فى الوقت الذى تجمع فيه الجماهير على موقف اجتماعى معين .

٥ — ان تملق الحس الدينى عند الجماهير هو نفس ما تفعله الاحزاب الرجعية مع اختلاف الوظيفة ، مرة نحو اليسار ومرة نحو اليمين ، وبالتالى لا يكون هناك خلاف فى المنهج بين الحزب التقدمى والحزب الرجعى ، كلاهما يتقرب الى الجماهير ، ويوجهها الى بغيته الخاصة دون اقتناع فعلى بمفاهيم الجماهير وتصوراتها وعقائدها ، كلاهما يريد أصواتها دون قلوبها ، كلاهما يريد أبدانها بلا أرواحها . ان اعطاء الاولوية للتنظيم السياسى على التنوير الدينى يساعد على نشأة الانتهازية السياسية عن طريق خداع الناس والتسليم بأوهامهم من أجل أصواتهم ، ويكون أقوى التنظيمات فى الايهـام والخداع والتملق والتقرب هو التنظيم الذى يكسب الجماهير الى صفه . فى حين أن مهمة الحزب هى تربية الجماهير ، وتخليصها من الاوهام ، وكشف أساليب الخداع أمامها . مهمة الحزب هو رفع مستوى قواعده وكوادره وجماهيره بالتنوير الدينى وهو صلب التنوير العام ، فالحزب

جامعة ، والجامعة حزب ، ولا وجود لخاصة وعامة ، مثقفون وعمال • وان من مظاهر التخلف أن تقول الجامعة أننا لسنا فى حزب وأن يقول الحزب أننا لسنا فى جامعة ، وان من مظاهر الخوف أن تمنع الجامعة أنصار التنوير الدينى من التدريس وأن يمنعهم الحزب من الكتابة فى جرائده والاتصال بجماهيره •

٦ — ان أخذ بعض الجوانب الاقتصادية والسياسية من الدين لتأييد برنامج الحزب هو أخذ للجزء وترك للكل ، ووقوع فى نفس الخطأ الذى تقع فيه الاحزاب الاخرى • وهو الخطأ الذى يتمثل فى الايمان ببعض الكتاب والكفر بالبعض الآخر ، والذى يفصـــل بين العقيدة والشريعة ، بين التصور والنظام ، بين التوحيد والفقه ، وبين الاصول والفروع • ان فصل التصور الدينى للعالم عن الجـــانب الاقتصادى والسياسى فى الدين فصل غير قائم ، فالشريعة الاسلامية منبثقة من العقيدة ، والعمل قائم على النظر فلا يمكن فصل الاسس النظرية عن التطبيقات العملية • وان الذى يجدد سلوك الناس هى تصوراتهم للامور ، وطالما ستظل تنظيماتنا السياسية تعمل على مستوى « التكتيك » السياسى دون التعرض لاسسها فى ثقافاتنا الوطنية فانه ستظل محدودة الاثر ، تعصف بها رياح العقائد والتصورات • ان أكبر خطر يهدد التنظيم الحزبى هو ثنائية النظر والعمل التى تظهر فى تقليدية التصور وتقدمية العمل أو رجعية الفكر وتقدمية البرنامج • وهى الثنائية التى تهدد كل عمل سياسى والتى فشلت بسببها كـــل تنظيماتنا السياسية • التقدم واحد ولا يمكن اقامة برنامج تقدمى على تخلف نظرى والا عصفت التيارات العقلانية بتنظيمنا السياسى ، وتخلفنا عن مسار النهضة ، وأصبحنا رجعيين فى الاعماق تقدميين على السطح ، متخلفين فى الحقيقة تقدميين فى المظهر • ان التحرج من

الدخول فى المعارك الفكرية داخل الحـزب وخارجه وفى التصـدى للعقائد الشائعة والتقاليد الموروثة يفقد التنظيم السياسى قدرته على المبادرة ، ويجعله باستمرار فى موقف الدفاع دون موقف الهجوم •

٧ ــ ان العمل السياسى دون التنوير الدينى سيكون طويلا نظرا لان التخلف الفكرى والعقائدى يقف حجر عثرة أمام كل عمل سياسى • بل ان القدر من التقـدم الذى يمكن للتنظيم السياسى أن يحصل عليه يمكن أن يصاب بانتكاس نظرا لان التخلف الفكرى أقوى بكثير من التنظيم الخارجى ، فالداخل أقوى من الخارج ، والروح أقـوى من البدن ، والفكر أقوى من التنظيم • ان معركة التخلف أعمق بكثير من البرنامج ، فالتخلف أساسا فى الذهن وفى التصور ، ولا يمكن اقامة برنامج متقدم على تصور مخالف للعالم • وان بقاء الحزب خارج معارك النهضة ، وخارج المرحلة التاريخية التى يمر بها المجتمع يجعله مجرد تنظيم سياسى مسطح لا ينفذ الى الاعماق • ان المعركة الحقيقية على جميع المستويات بما فيها المستوى السياسى هى معركة النهضة والعمل السياسى هو جزء من حركة أعم هى حركة النهضة • وفى حالة فشل التنظيم سياسيا وتاريخيا فعلى الاقل يبقى دوره فى نهضة الامة ومدى مساهمته فى دفعها خطوة الى الامام بتعميق أثرها أو توسيع مجالاتها • واذا كانت المرحلة التاريخية التى تمر بها هى مرحلـة العقل ، وكانت العقلانية تمثل تقدما ونهضة بالنسبة لجيلنا فانه لا يمكن التخلى عنها فى اقامة فكر الحزب ، وفى تنظيم الحزب وفى تنوير جماهير الحزب داخل التنظيم السياسى وخارجه خاصة وأن العقل والعقلانية قد أشيد بهما ثلاث مرات فى برنامج الحزب فى فقرته الصـغيرة الخامسة عشرة عن « الدين والتراث » التى تقول : « اننا نرى فى الايمان برسالات الاديان السماوية فى ضوء النظرة العقلانية المستنيرة

طاقة خلاقة ••• » ، وتقول ثانيا : « وعندما ننظر الى هذا التراث ••• عندما ننظر اليه بعقل مستنير ••• » ، وتؤكد ثالثا على قيم التراث ومنها « الانتصار للعقل واعلاء شأنه وتمكين سلطانه » ، ومنها أيضا : « المنهج العلمى فى البحث والتفكير » •

٨ — ان التنوير الدينى لا يمثل وجهة نظر واحدة بل مجموعة اجتهادات ، تساهم كلها فى عملية الاستنارة ، فلا يوجد نمط واحد أو نموذج أوحد للتنوير الدينى ، كما أنه لا يوجد خطأ وصواب بل هناك تفاوت فى القرب أو البعد من الفكر أو من الواقع ، من السطح أو من الاعماق ، من الفروع أو من الاصول • وقد كان الرسول يقول لابى بكر : يا أبا بكر أنزل قليلا • وكان يقول لعمر : يا عمر اصعد قليلا • وقال أيضا : اختلاف الائمة رحمة بينهم • وأيضا : « أصحابى كالنجوم فبأيهم اقتديتم اهتديتم » • وقد ازدهر تراثنا القديم بالخلاف بين الفرق الاسلامية من معتزلة وأشاعرة ، وخوارج ومرجئة ولم نتخلف الا بعد اعتبارها كلها ضالة باستثناء فرقة واحدة ناجية هى التى فى السلطة • ان المرحلة التاريخية التى نمر بها الآن هى القضاء على أحادية النظرة ، وابراز الحوار ، وشرعية الرأى المعارض • وان أحادية الطرف فى السياسة التى سادت حياة جيلنا لناشئة من أحادية الطرف فى وجداننا القومى منذ سيادة الاشعرية فى القرن الخامس وتزواجها مع التصوف باعتبارها الفرقة الناجية حتى الآن • فلا مانع أن يوجد فى التنوير الدينى يمين (الشيخ السماك) ، ووسط (د• خلف الله ، الحاج خالد محى الدين) ، ويسار (د• حسن حنفى) • ومن الحوار بين هذه الاجنحة الثلاثة ينشأ التنوير الدينى وتكمل السيطرة ويقوى بعضها البعض • ولا مانع من وجود أجنحة فى كل القوى الوطنية داخل التجمع بين يمين ويسار ووسط ، أو بين تقليدى

وتجديدى ، أو بين نسبى وجذرى • فهناك ناصرية يمينية وناصرية يسارية ، وهناك ماركسية تقليدية وماركسية تجديدية ، وهناك تنوير دينى نسبى وتنوير دينى جذرى • ان الخوف من فتح الجبهات الفكرية التنويرية لهو موقف متخلف يقضى على انتشار الحزب وتقوية قواعده، ويسمح بقوى وطنية أخرى ، تلك التى تدخل فى معارك النهضة ، بالازدهار على حساب الحزب ونكوصه وتخوفه وايثاره السلامة • ان حيوية الحزب تتمثل فى مقدار ما يثير من معارك فكرية تشغل أذهان الناس ، وبالتالىيصبح الحزب الحياة الفكرية لكل بيت ومحور التفكير فى كل أسرة • فالحزب حركة فكرية بالاضافة الى برنامج للعمل الوطنى وقوى اجتماعية تمثل الاغلبية •

٩ ــ ان جمود الحزب ، ومنعه من الحركة ، وابقائه على التكتلات الاولية وقت نشأة الحزب ضار بحياة الحزب وتطوره الطبيعى وتفاعله مع قياداته وجماهيره • حياة الحزب حياة نشطة متحركة ، يخرج من لا ينتمى اليه فكرا وسلوكا ويدخل من ينتمى اليه عقيدة وعملا • والحزب هو الانتماء الفكرى أولا وقبل كل شىء • قبل الاحلاف والتكتلات ، وشراء الخواطر والمجاملات • قد تنقلب بعض المصالح على التكتلات فتنفصل عن الحزب نظرا لان انتماءها اليه لم يكن بالفكر والعقيدة بل عن قبلية وعلاقات شخصية ، لم يكن انتماؤها عن اقتناع بل من أجل اعطاء عدد من الاصوات لمرشحى الحزب فى مقابل الحصول على مناصب قيادية فيه • وغالبا ما تنفصل عن الحزب الى أحزاب أخرى لما تحققه لها من مناصب أكبر ومراكز قوى أعظم • وتكتل سطحى يخرج يأتى بدله تكتل آخر أعمق ، وصوت يفقده الحزب تعادله أصوات يكسبها الحزب ، فحركة الحزب هى حياته والا أصبح مجموعة متراصة من البشر لا يربطها رابط فكرى

أو عقائدى ، ولا يربطها الا المصلحة أو العلاقات الشخصية التى كثيرا ما تتبدل وتتغير • فلندع مائـــة زهرة تتفتح ثم نحتكم الى قواعد الحزب والى جماهير الشعب خارج الحزب فنعرف أيها أجدر بالبقاء والاستمرار • وان فكرة لتأييد الحزب تنتشر بين الناس وتغير أوضاعهم خير من آلاف من الكتل المتراصة من أجل جمع الاصوات لمرشـــحى الحزب • وقد قيل من قبل : ليس على رأسى تاج ولكن فى يدى قلم • كما قيل أيضا : أحب أفلاطون ولكن حبى للحق أعظم •

ان كل حركات التقدم فى المجتمعات البشرية بدأت فى عصـــور نهضتها ، وتعنى النهضة القدرة على نقد الموروث وعدم التسليم بشىء على أنه حق ان لم يبد أمام العقل أنه كذلك • حدث هذا فى عصر النهضة الاوربية فى القرن السادس عشر ثم ازدهر فى عقلانية القرن السابع عشر ، واكتمل فى حركة التنوير فى القرن الثامن عشر • واذا كان نقد المجتمع لابد وأن يبدأ بنقد الدين كما هـــو الحال فى ماركسية القرن التاسع عشر ، وأن الثورة فى البلاد النامية لا تبدأ الا باللاهوت الثورى كما هو الحال فى ماركسيات القرن العشرين ، كانت مهمــة التنوير فى حزبنا من أجل بداية عصر نهضة واستمراره ، وازدهار للعقلانية وممارسة النقد الاجتماعى • ومن هنا أتت أهمية مناقشة العلاقة بين التنوير الدينى والتنظيم السياسى حتى يكون الحزب على بينة من دوره التاريخى على مسار النهضة •

ماساة الاحزاب التقدمية فى البلاد المتخلفة

هذا بحث فى الظاهريات الاجتماعية يقوم على تحليل الخبرات الحية للفرد والتى يشاركه فيها آخرون لتصبح تجربة مشتركة يكون وضعها معادلا للموضوعية التقليدية • وهو نوع من التنظير المباشر للواقع دون ما حاجة الى أدبيات ينقل عنها • فمقياس الصدق فيه ليس أقوال الآخرين أو وثائق ومراجع توضع أسفل الصـفحات فى الهوامش كغطاء ساتر لتحليلات ذاتية من أجل الايحاء بالموضوعيـة ولكنه مقياس داخلى صرف أى اتفاق كل من عاشوا تجربة العمل الحزبى فى البلاد المتخلفة ثم أوقفوا نشاطهم لانه طريق مسـدود طالما أن الاوضاع الحزبية فى البلاد المتخلفة هى كما هى عليه • ولا توجد هنا اشارة الى واقع خاص ، حزب معين فى بلد معين فى موقف معين بالرغم من ضرورة ذلك التعين للتجربة ، فلا تجربة الا فى واقع معين ، وذلك أن الماهية عامة وشاملة ومستقلة عن حاملها الجزئى • فعموم الماهية حتى ولو بدأت من واقع خاص يجعلها بطبيعتها تشمل وقائع كثيرة ، ويعطى الوصف قدرة وشرعية على التعميم يجعلنا أقدر فهما لحالات أخرى •

كتبت عناصر هذا المقال خلال عام ١٩٧٨ بعد كتابة « التنوير الدينى والتنظيم السياسى » وعدم مناقشته بين قيادات « حزب التجمع » باستثناء بعض الهمهمات . وكان ذلك بمثابة اعلان موقف . بعدها توقفت عن أى نشاط سياسى مباشر كان يمكن ان يكون مستمرا فى التعاون بين التيار الدينى المستنير والاحزاب التقدمية فى مصر . وهذه صياغة ثانية من تلك النقاط الاولى ، بعد عشر سنوات ، فى خريف ١٩٨٧ .

ولا يعنى بيان الحدود والقدرات والفاعلية أى انكار للادوار المرحلية التى تقوم بها الاحزاب التقدمية فى البلاد المتخلفة . فالممكن عملا غير الممكن نظرا ، والمتحقق بالفعل غير المتحقق بالقوة ، ومنطق الواقع غير منطق الممكن . ومع ذلك فمن خلال هذه الحدود وبفضلها تنشأ الامكانية الجديدة أى التطوير الحزبى لدى أجيال قادمة تستفيد من مآسى الاحزاب التقدمية السابقة وتتعلم من أخطائها . كما لا تعنى هذه الحدود للاجيال الحالية الكف عن أى نشاط حزبى والا لم يوجد الواقع انتظارا للممكن ولوقعنا فى « الطفولة اليسارية » وفى المزايدة على العمل السياسى . ولكنه يعنى فقط المعرفة المسبقة بحدود العمل الحزبى الحالى وعدم انتظار الكثير منه ، والعمل فيه بحساب ، وتوجيه معظم النشاط الحالى للاعداد للمرحلة المقبلة ، فقد تجرف الاحداث التنظيمات الحزبية الحالية أو يتم تفتيتها من الداخل واعادة تنظيمها بحيث تكون أقدر على التطور والنماء .

ودون ذكر وقائع أو أسماء تتركز مأساة الاحزاب التقدمية فى البلاد النامية فى عدة نقاط رئيسية تدور حول عدة محاور منها علاقتها بالتراث أو الثقافة ، انعزالا عن التراث القديم ووقوعا فى التغريب ، وانعزالها عن الواقع بغياب احصائيات كمية عنه أو تنظير مباشر له ، ونقص الوعى بالمرحلة التاريخية التى يمر بها المجتمع اهمالا للتدرج ودور الاجيال فى كل مرحلة أو القيام بأدوار ماضية تمت من قبل أو أدوار قادمة لم تحن بعد ، وسلوك القيادات فى مجتمع القيادة فيها نموذج يحتذى سواء كان ذلك من الناحية الفردية وتسلط فئات على أخرى دون الولاء للمبادىء العامة للجبهة الوطنية وللحوار الوطنى ، وسيادة القوالب الذهنيـــة التقليدية فى العمل السياسى مـــع تغلب

الممارسات البيروقراطية داخل الحزب ، وآخيرا الدخول فى صدام مع السلطة القائمة والنزاع معها على كرسى الحكم مادام التغيير الاجتماعى لا يتم الا بالسلطة السياسية ودون تعبئة الجماهير تحمل الحزب على الاعناق لتضعه فى مركز السلطة فى انتخابات ديمقراطية حرة • ويمكن تفصيل ذلك على النحو الآتى :

١ ـ الانعزال عن تراث الامة :

فى المجتمعات المتخلفة ، مازال تراث الامة هو مكونها الاساسى فى الثقافة والمزاج الشعبى والشخصية القومية ، يعطيها تصوراتها للعالم وأنماطها فى السلوك • وهو تراث تمتد جذوره الى آلاف الاعوام ، الكونفوشوسية فى الصين ، والهندوكية فى الهند ، والبوذية فى فيتنام وكامل الهند الصينية ، والاسلام فى المنطقة الاسلامية ، والمسيحية فى أمريكا اللاتينية ، وفى أفريقيا الاسلام والمسيحية والديانات الافريقية • وهو تراث شعبى ، رصيد الثقافة الجماهيرية ، ليس فى حاجة الى تعليم أو تثقيف من خلال المدارس والجامعات • تتناقله الوسائل الشفاهية ، أبا عن جد ، وابنا عن أب ، تتوارثه الاجيال ، ويصبح مرادفا لحكمة الشعوب • تتزاوج معه الامثال العامية وسير الابطال ، ويمتزج كلاهما فى الدين الشعبى الذى يجمع بين الرافد الدينى والرافد الدنيوى فى الثقافة الشعبية •

ولما كان ما يستقر فى الاذهان ، وما يترسب فى الوعى القومى ، وما يستمر فى الثقافة الشعبية هو التقليدية والمحافظة والتى هى أحد أسباب التخلف فى الابنية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية كان من

التسهل السيطرة على الجماهير أو تحريكها اعتمادا على هذا الموروث القديم الذى مازال سلطة شرعية تأتمر الناس بها • لذلك سهل على النظم السياسية المحافظة الاستمرار فى الحكم نظرا لان لها رصيدا موازيا فى الثقافة الشعبية يضمن لها طاعة الجماهير • يمد الموروث القديم النظام السياسى المحافظ بأيديولوجيتين : أيديولوجية السلطة التى تعتمد على فكرة القوة والسلطان والارادة المطلقة مرة فى نسق العقائد كما هو الحال فى الاشعرية ، ومرة فى نسق المذاهب السياسية كما هو الحال فى حكم الفرد المطلق • وما أسهل بعد ذلك من زحزحة محور العقائد وهو « الله » ليحل محله « السلطان » مادامت الجماهير قد استعدت نفسيا وثقافيا لقبول السلطة ، أيا كانت ، والسمع والطاعة لها •

ومهما كانت هناك من أشكال ليبرالية للحكم : دستور يعطى الحريات العامة للناس ، نظام برلمانى يقوم على تعدد الاحزاب ، صحافة حرة ، قضاء قوى ، تعليم مجانى ، الا أن احتمالات التغير الاجتماعى الجذرى تكون محدودة للغاية نظرا لان الراسب الثقافى العام مازالت تغلب عليه المحافظة التقليدية الموروثة • ولو أتى نظام ثورى بانقلاب عسكرى وقام بأكثر القرارات السياسية ثورية بغية احداث تغير اجتماعى جذرى مثل الاصلاح الزراعى ، التصنيع ، سيطرة الشعب على الوسائل العامة للانتاج من خلال القطاع العام ، مجانية التعليم ، حقوق العمال ، الاستقلال الوطنى ، الوحدة العربية ، عدم الانحياز فانها سرعان ما تنقلب الى الضد بمجرد غياب القيادة الثورية التى كانت نتوءا بارزا فى جو من المحافظة العامة • ومهما كانت هناك من جماعات دينية محافظة تقليدية شعائرية عقائدية ،

شكلية صورية وربما خاوية من أى برنامج وطنى اجتماعى وسياسى فانها قد تلاقى الترحيب والقبول فى أوساط الشعب ، وتكون لهـا شعبية وحضور أكثر من القيادة الثورية والاحزاب التقدمية . وذلك لان هذه الجماعات انما تنبت نبتا طبيعيا فى أرض من المحافظة والتقليد. ومهما كانت هناك من أيديولوجيات علمانية للتحديث ، ثورية أو اصلاحية فانها تظل محاصرة وسط هذا المحيط العام من الثقافة القديمة . وماذا تستطيع الاقلية التقدمية أن تفعل أمام الإغلبية المحافظة ، فكـرا وقيادة ؟ هذا هو الخلف بين القادة والجماهير فيما يتعلق بالايديولوجية السياسية ، الاولى علمانية تقدمية والثانية دينية محافظة . وما كان أسهل أن تقوم الاحزاب التقدمية بمعاركها الثقافية قبل معاركهـا السياسية وأن تخفف من ثقل المحافظة والتقليد فى الثقافة الشعبية حتى تفك اسار الجماهير وتزيح عنها معوقات حركتها حتى تعطى فرصة أكبر للتقدم بسهولة ويسر فيصبح للثقافة التقدمية التى لم تزد عن ثلاثمائة عام فى تاريخنا القديم — من القرن الثانى حتى القرن الرابع الهجرى — حضور فى وعينا القومى مثل حضور الثقافة التقليديـة التى ترسو فيه منذ أكثر من ألف عام من القرن الخامس حتى القرن الرابع عشر الهجرى . ومادام وعينا القومى مازال أعرجا ، سـاق طويلة فى المحافظة والتقليد ، وساق قصيرة فى التقدمية العلمانية ، فان سياساتنا ستتجرف باستمرار نحو الساق الطويلة . ولما كانت السياسات المحافظة باسـتمرار موالية للغرب فان سياستنا ستتجرف باستمرار غربا . ان مهمة الأحزاب التقدمية الحالية ليست فى مزيد من التقدمية العلمانية المحاصرة ، بل فى قليل من المحافظة والتقليد حتى يتم فسح المجال للتقدمية كى تنتشر بسهولة ويسر . مهمتها سلبية صرفة فى

نقد المحافظة حتى يخف ثقلها فى وعينا القومى فينشأ التحرر تلقائيا .
ان الجدل المطلوب هو جدل السلب وليس اليوتوبيا ، النقد وليس الوضع ، نقد الموروث القديم وليس اضافة العلمانى فى الجديد ، هدم الاساس القديم ووضع الاساس الجديد كى يبنى من يشاء ، وليس البناء الجديد فوق أساس قديم والا سرعان ما ينهار(١) .

٢ — الاستغراب والتقليد :

واذا ما انعزلت الاحزاب التقدمية فى البلاد المتخلفة عن تراث الامة فانها تقع لا محالة فى التغريب . اذا ما انعزلت عن ثقافة الانا فانها تقع فريسة لثقافة الآخر . واذا كانت الاغلبية هى صاحبة تراث الامة والواقعة تحت تأثيرها فان الاقلية هى صاحبة الثقافة الغربية والمروجة لها . ولما كانت الاغلبية هم المحكومون والاقلية هى الحاكمة أصبح الصراع بين تراث الاغلبية وثقافة الاقلية يمثل الصراع بين المحكومين والحاكمين ، بين جماهير الشعب والسلطة

---

(١) انظر دراساتنا السابقة عن « التراث والعمل السياسى ، التراث والتغير الاجتماعى ، التراث والنهضة الحضارية » فى « دراسات فلسفية »، الانجلو المصرية ، وايضا : « من التراث الى التحرر » ، « الضباط الاحرار أم المفكرون الاحرار ؟ » ، « الجذور التاريخية لازمة الحرية والديمقراطية فى وجداننا المعاصر ».فى « الدين والثورة فى مصر ١٩٥٢ — ١٩٨١ » ، الجزء الاول « الدين والثقافة الوطنية » ، « نشأة الاتجاهات المحافظة فى وطننا العربى الراهن » ، المصدر السابق ، الجزء الثانى ، الدين والتحرر الثقافى ، وأيضا :
Des Idéologie modernistes à l'Islam révolutionnaire, Peuples méditerraneens, no. 21, pp. 3 — 14, Paris, 1982.

السياسية حتى أصبح من الصعب التمييز بين العداء الثقافى والعداء السياسى .

وقد تعلمت هذه الاقلية فى الغرب اما ذهابا اليه أو استقبالا لثقافته من خلال الترجمات . فقد تعلم معظم مؤسسى الاحزاب التقدمية أو جلهم فى الغرب سواء الاحزاب الليبرالية أو القومية أو الماركسية ، بل ان البعض منها كانوا أجانب ، يهودا أو نصارى لا يمثلون التيار الرئيسى فى الثقافة الوطنية فى البلاد . وكان البعض منهم خريجى المدارس الاجنبية وارساليات التبشير خاصة فى الشام ، وهو الموطن التقليدى للثقافات الوافدة منذ مدارس حران ونصيبين والرها والتى حملت لواء الترجمة عن اليونانية فى تراثنا القديم وهذا لا يمنع من كون كلا الفريقين ، القدماء والمحدثين ، وطنيين ذوى ثقافة مزدوجة محلية ووافدة ، محلية اللغة ووافدة الفكر بصرف النظر عن نسبة الولاء لاى من الطرفين . ومما لا شك فيه ان انتشار الثقافة الغربية كطبقة سطحية خارجية على الثقافة الموروثة فى البلاد انما كان جزءا من الغزو الثقافى والهيمنة الثقافية للغرب بصرف النظر عن مدى نجاح هذه الحملة ومدى مقاومتها . وبالرغم من محاولات عدة لتكييف الايديولوجيات الغربية طبقا للظروف المحلية لعمل ماركسية عربية أو ليبرالية مصرية أو قومية عربية الا أنها ظلت فى الاساس النظرى غربية مع تغير طفيف فى أساليب الممارسة وبعض التبريرات الدعائية اعتمادا على الموروث القديم اكتشافا لجذور الماركسية أو الليبرالية أو القومية . ثم تناحرت هذه الايديولوجيات فيما بينها واشتد العداء بين الليبرالية والماركسية وكلاهما غربيتان . ثم اشتد العداء بين القومية العربية وبين الايديولوجيتين الغربيتين السابقتين ، حربا مستمرا بين الاخوة الاعداء . ثم تكاتف الكل على معاداة الموروث

الثقافى القديم كمنافس شرعى قادر على تجنيد الجماهير والقضاء على السلطة الحاكمة ، لا فرق فى ذلك بين ليبرالية وماركسية وقومية كلها غربية قلت أو كثرت . افتقدت الحوار الوطنى بينها ، وكفرت بعضها بعضا ، وانقسمت شيعا وأحزابا وتنافست على الحكم ، فضعفت الثقة فيها ، وقوى رصيد الموروث القديم فى الوعى القومى ، وأصبح جاهزا ومستعدا لقبول أى تنظيم تقليدى محافظ يعبر عنه ، ويحافظ عليه ، وينقذه من الحرب الاهلية بين الاحزاب التقدمية . بل ان البعض منها وجدت فى الشرق أو الغرب حليفا له ضد اخوته الاعداء مما جعله يبتعد أكثر وأكثر عن الثقافة الوطنية ، والسياسة الوطنية ، والاستقلال الوطنى ..

والحقيقة أن كل ذلك هو ادخال ثقافتنا الوطنية الحالية برافديها فى الموروث القديم والامثال العامية بل ادخال سياساتنا وواقعنا وتحدياتنا فى ثقافات وسياسات وتحديات لسنا طرفا فيها . فالثقافة الغربية انما وليدة ظروف خاصة وتياراتها السياسية انما نشأت أيضا من هذه الظروف وعلى أساس هذه الثقافة . فالرأسمالية تطبيق اجتماعى وسياسى واقتصادى للفردية أو الليبرالية الاوربية . والاشتراكية تطبيق للمذاهب الجماعية الغربية ، والماركسية تطبيق لنقد الهيجلية والمثالية والايديولوجية الالمانية فى ظروف نشأة المجتمع الصناعى فى القرن التاسع عشر الاوربى . والقومية نشأت أيضا فى نفس القرن بعد انهيار الامبراطوريات الكارولنجية ثم النمسوية ، وتوحيد ألمانيا وايطاليا ، وانحسار الثورة الفرنسية ،وتحطم فلسفة التنوير على حدود القوميات ، وعزلة الجزر البريطانية . ونشأت القوميات افتعالا فى العالم الجديد ، فى أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية ، ولم تحل مشاكل كندا فى ازدواجية اللغة والثقافة ، ولا

مشاكل الولايات المتحدة فى تنافر القوميات المهاجرة والعنصرية ، ولا مشاكل أمريكا اللاتينية المرتبطة فيما بينها باللغة والثقافة ولكن جزأها الاستعمار ليسهل ابتلاعها بين اسبانيا والبرتغال والولايات المتحدة ، ولا مشاكل الاتحاد السوفيتى وتنافر القوميات فيه ، ولا مشاكل الهند ومحاولات استغلال بعض القوميات فيها ، ولا مشاكل أمتنا التى صعب ايجاد تسمية لها وتشتتها بين صفتى الاسلامية والعربية والقطرية ، وبزوغ الطائفية والاقليات كداء دفين لم تحله الثقافة التقليدية والموروث القديم ولا الثقافة القومية والقومية العربية البديلة ولا حتى الدولة الوطنية التى ورثناها بعد حركات التحرر الوطنى ضد الاستعمار اثر انهزام دولة الخلافة(٢) .

٣ — غياب الواقع الاحصائى .

ونظرا لان الايديولوجيات التقدمية منطلقها نظرى صرف ترى خلاص الواقع ومآسيه فى الليبرالية أو الماركسية أو القومية كاعتقاد مسبق وعقيدة الهية فانها لم تكن فى حاجة الى احصائيات عن تكوين الواقع ذاته ، توزيع الدخل ، ملكية الارض ، أجور العمال ، الدخل القومى ، وسائل الانتاج ، التركيب الطبقى ، الوعى الاجتماعى ، الثقافة الوطنية ... الخ . واهتمت بنشر النظريات المذاهب السياسية فى تاريخ الاشتراكية وأنواعها من طوباوية وأخلاقية وعلمية وفى مآثر الليبرالية وما ينتج عنه من نظم للحكم كما حدث فى أوربا وفى تاريخ

---

(٢) انظر دراستنا « التمايز والتكامل بين القومية العربية والاسلام » فى « الدين والثورة فى مصر ١٩٥٢ — ١٩٨١ » ، الجزء الثالث : الدين والنضال الوطنى .

القوميات وكيف أنها كانت وراء تكوين الدول الاوربية الحديثة مثل ألمانيا وايطاليا . وذلك كله يدور فى اطار نقل العلم ، ونقل التكنولوجيا، ونقل المعلومات ، ونقل الثقافة ، ونقل المذاهب السياسية وكأنه من الممكن تحقيق الاستقلال الوطنى عن طريق التبعية الثقافية . كان الولاء للنظرية لا للواقع ، وللدفاع عن المذهب لا عن مصالح الناس . وساعد على ذلك الدعوة للمذاهب السياسية فى حضارة تراثية نصية ترى أن الاصل هو النص والفرع هو الواقع ، تستنبط الواقع من النص ولا تستقرىء النص من الواقع . ولم يعد هناك فرق بين من يرفع شعار الحرية والديمقراطية أو شعار الاشتراكية والعدالة الاجتماعية أو شعار القومية والوطنية وبين من يرفع شعار الدولة الاسلامية والحاكمية لله . لا فرق بين من يقول قال ماركس أو سان سيمون وبين من يقول قال الله وقال الرسول ، قولا بقول ، ونصا بنص ، ونظرية بنظرية ، ومذهبا بمذهب . وفى كلتا الحالتين الواقع هو الخاسر لانه ساقط غائب ، هنا وهناك .

وتحدث المأساة عندما يقدر لاحد التيارات الوصول الى السلطة، ولا يدرى ماذا يفعل بها . فالواقع لا يتغير بالشعارات بل بالتحليلات الاحصائية والوصف الكمى لمكوناته وأبنيته . على أقصى تقدير يمكن للشعارات أن تعبىء الجماهير وتحرك السواكن . ولكن حتى فى هذه الحالة تكون تعبئة وقتية تزول بمجرد أن يزول أثرها ، ولا تقوم على وعى سياسى بالواقع ولا تهدف الى تحقيق برنامج وطنى ، ولا يكون أحد الشعارات أكثر شرعية وجدارة من شعار آخر ، الكل صراخ مذهبى ، ولا أحد يسمع صراخ الواقع من خلال احصائياته التى تكشف عن مكوناته وأبنيته . واذا سمح ذلك فى الليبرالية باعتبارها دعوى عامة لحقوق الانسان ، وللقومية باعتبارها تربية وطنية للنشىء ،

فانه يصبح غير مفهوم بالنسبة للماركسية وهى نظرة مادية تقوم على تحليل الواقــع المادى وتعرف الظــروف الاجتماعية والاقتصــادية والسياسية التى تكون واقع الامة • وهنا يبدو أصول الفقه القديم أكثر مادية من الماديين المحدثين باسم الاسلام عندما يحلل العلل المادية المؤثرة أو المناسبة والملائمة التى تتحكم فى السلوك البشرى والتى هى علة التشريع والاحكام من أجل القيام بالقياس الشرعى ، تعدية الحكم من الاصل الى الفرع لتشابه بينهما فى العلة • ولكن يبدو أن التخلف والمحافظة اللذين وراء الشعارات العلمانية والدينية لا تفرق بين موروث قديم ووافد معاصر ، فهما شائعان حتى فى أشد الايديولوجيات العلمانية تشدقا بالمادية •

٤ ــ غياب المراحل التاريخية •

ولا تختلف الاحزاب التقدمية فيما بينها فى القفز على المراحل ورغبة كل منها فى تحقيق أيديولوجيتها مرة واحدة ، بضربة واحدة ، وفى مرحلة واحدة • فالليبرالية تريد أن تنقل المجتمع من المحافظة الى التحرر فى جيل واحد ، والقومية تريد أن توحد الامة التى تجزئت منذ مائة عام فى جيل واحد ، والماركسية تريد أن تنقل المجتمع من الاقطاع الى الاشتراكية العلمية فى جيل واحد وبحزب واحد ، وبنفس القادة الذين تربوا فى العهدين ، وبنفس الاطر السياسية • وتكون النتيجة باستمرار خطوة الى امام وخطوتان الى الخلف ، والبداية المستمرة من الصفر ، وعدم وجود تراكم تاريخى كاف لرصيد من الخبرات يعطيه الجيل القديم الى الجيل الجديد • وكانت النتيجة أنه لم تتحقق خطوة واحدة من أى مشروع قومى بل زادت المخاسر وترجعت المواقف الاولى واشتد الواقع تخلفا : احتــلال مزيد من

الاراضى ، زيادة القهر ، اتساع الهوة بين الفقراء والاغنياء ، مزيد من التجزئة والطائفية ، مزيد من التغريب ، ولامبالاة الجماهير بما يحدث حتى ولو دخل العدو جحر دورهم وعواصمهم كما حدث فى بيروت • والعجيب أننا نحارب عدوا يحتل الارض ويبغى المزيد • يتوسع يوما بعد يوم ، ولديه خطة منذ ما يقرب المائة عام أو تزيد الى الثلاثة آلاف سنة للاستيطان فى فلسطين ، جيلا بعد جيل ، ابتداء من مزارع الاستيطان الى مستعمرات الى أحزمـة قرى الى مدن الى قطاعات الى ابتلاع فلسطين كلها وما حولها فى لبنان وسوريا والاردن ومصر • وتمتد ذراع العدو الطويلة الى كراتشى وطنجة ، كل جيل يسلم الامانة الى جيل قادم ليكون لديه دوره فى التوسع والغزو • أما نحن ، فشعاراتنا منذ مائة عام لم تتغير جيلا بعد جيل ، مقاومة الاستعمار والاقطاع والقهر والتخلف والتجزئة ولامبالاة الناس • وربما تظل كذلك لعدة أجيال قادمة •

ولا فرق فى ذلك بين أحزاب تقدمية وأحزاب محافظة • فالاحزاب التقدمية ليبرالية أو قومية أو ماركسية تريد أن تنقل المجتمـع الى مرحلة قادمة فتقفز على الحاضر كله دون أن تحدد مراحل يتم الانتقال فيفها من المحافظة الى التحرر ، ومن التجزئة الى الوحـدة ، ومن الاقطاع الى الاشتراكية العلمية • وكذلك تريد الاحزاب المحافظة العودة الى مراحل ولت وانتهت ترى فيها الخلاص ، لا يصلح هذه الامة الا ما صلح به أولها • وهى أيضا تقفز على الحاضر دون أن تحدد مراحل العودة واتجاهها وهو أساس التشريع فى النسخ والتدرج المرحلى طبقا للاهلية والقدرات • ان أزمة الوعى السياسى فى الاحزاب التقدمية هو أنه لا يقوم على وعى تاريخى ومن ثم كان قصير النظر ،

محدود الافق ، ضيق الصدر مثل الوعى السياسى الامريكى . والعجيب أن يتم ذلك لدى شعوب تاريخية تفخر بأن حضارتها تمتد جذورها الى ماوراء الالف عام !

٥ — غياب الجبهة الوطنية .

ونظرا للتنافس الشديد بين الاحزاب التقدمية فيما بينها على السلطة ، كل منها يقدم نفسه على أنه طريق الخلاص فى حين أن الباقى طريق الهلاك . فلا خلاص للقهر والطغيان الا بالليبرالية ، ولا قضاء على الاقطاع والرأسمالية الا بالاشتراكية العلمية أى الماركسية . ولا نهاية للتجزئة والتشرذم والتشتت والطائفية وحروب الاقليات الا بالقومية . كل منها له تفسير أحادى الطرف للتاريخ ، يفسر الظواهر بعلة واحدة . كل مذهب هو الوطنى فى مقابل المذاهب الاخرى الاقل وطنية والاكثر تبعية لهذا المعسكر أو ذاك . وكأن الدار ليس لـه صاحب ، وكل مذهب يدعى أنه صاحبه . وفجأة يظهر صاحب الدار . الموروث القديم بتنظيماته الدينية تشكك فى كل المذاهب وترفضهـا كلها ، ولا ترضى الا بالحاكمية لله ، طرفا بطرف ، أحادية بأحادية . ثم نصرخ : انقذونا من الجماعات !

ما أسهل الاتفاق على برنامج عمل وطنى موحد تكون الاولوية فيه لتحديات الواقـع ومتطلبات العصر ولحاجات الامة ومصـالح الجماهير . ثم السماح بأكبر قدر من تعدد الاطر النظرية والمداخل الفلسفية والمذاهب السياسية . يمكن تحرير الأرض فى فلسطين باسم حرية شعب فلسطين كما تبغى الليبرالية ، وباسم الطبقة العاملة كما تريد الماركسية ، وباسم القومية العربية كما تريد القومية . ويمكن

القضاء على كل صنوف القهر والطغيان باسم الليبرالية ، وباسم حرية الشعب فى الماركسية ، وباسم حرية الامة فى القومية • ويمكن تحقيق أكبر قدر ممكن من العدالة الاجتماعية باسم الاشتراكية كما تبغى الماركسية ، وباسم الضرائب التصاعدية كما تبغى الليبرالية ، وباسم المساواة فى القومية وشعاراتها فى الحرية والاشتراكية والوحدة • ويمكن توحيد الامة باسم وحدة البروليتارليا العالمية كما تبغى الماركسية ، وباسم وحدة التاريخ المشترك والاهداف المشتركة كما تبغى القومية ، وباسم وحدة المصالح كما تبغى الليبرالية وما تتضمنه من نشاط تجارى حر • ويكون الدفاع عن الهوية ضد التغريب باسم الثقافة الوطنية كما هو الحال فى الماركسية ، وباسم التراث القومى كما تريد الماركسية ، وباسم تنمية الموارد كما هو الحال فى الليبرالية الليبرالية • ويمكن مواجهة التخلف باسم التخطيط القومى كما تبغى الاشتراكية العربية ، وباسم سيطرة الشعب على وسائل الانتاج كما تريد الماركسية ، وباسم تنمية الموارد كما هو الحال فى الليبرالية والاقتصاد الحر • ويمكن أخيرا تعبئة الجماهير باسم البروليتاريا ووحدة الطبقة العاملة مثل الماركسية ، وباسم جماهير الشعب العربى فى القومية ، وباسم الحريات العامة كما هو الحال فى الليبرالية • ويقوى ذلك فى نفوس الجميع حديث الفرقة الناجية ، أن الحق مع فرقة واحدة ، وكل فرق الامة هالكة فى ضلال(٣) •

---

(٣) انظر دراساتنا السابقة « ماذا يعنى اليسار الاسلامى ؟ » « حوار حول الوحدة الوطنية » ، « دعوة الى الحوار » ، « ضرورة الحوار » ، « الشعارات الدينية والتفسير بالمضمون » •

٦ ــ التخلف الثقافى :

وبالرغم من أهمية الموروث الثقافى فى البلاد النامية نظرا لانه مكونها الروحى الوحيد بما فى ذلك الموروث الدينى بعد امتزاجه بالامثال العامية وبالفنون الشعبية فان الاحزاب التقدمية غالبا ما تنسى هذا الموروث الثقافى ولا تبدأ به باسم التقدمية والعلمانية والتحديث . فالماركسية مثلا مازالت تعتبر الدين مثل الثقافة والفن وسائر النشاط الذهنى الانسانى أبنية فوقية تعبر عن الظروف الاجتماعية والاقتصادية لشعب ما فى لحظة تاريخية معينة . يمكن تغييرها بتغير ملكية وسائل الانتاج ، من الملكية الخاصة الى الملكية العامة ، وبنقل نمط الانتاج من الزراعة الى الصناعة . بهذا التحول تتغير الثقافة آليا وتنشأ مفاهيم أخرى للزمان والعمل والانسان والعلاقات الاجتماعية أكثر تطورا وحداثة . والليبرالية تدافع عن الحريات دون أن تدرك الجذور التاريخية لازمة الديمقراطية والحرية فى وجداننا المعاصر التى أدت الى سلب الانسان قدرته وحرمانه من مبادرته واستسلامه لقوة مسيطرة وقدرة قاهرة باسم الايمان ، فدافع عن حق الآخر ، ونسى حقه . والقومية تريد أن تؤسس وحدة على أساس القوم والاشتراك فى اللغة والتاريخ والعادات والثقافة المشتركة فى مجتمع يغلب عليه فكر الامة والفكر الاممى ، وانه يمكن توحيد الناس بناء على الايديولوجيات العامة والعقائد الشاملة مثل التوحيد بصرف النظر عن العرق واللغة ولون البشرة والعادات . ان كل الاحزاب التقدمية تبغى اقامة تنمية مستغلة فى ثقافة غاب عنها مفهوم الاستقلال الذاتى والاعتماد على الذات نظرا لاعتماد العالم والانسان وكل شىء على علة خارجية فعالة مصدر كل شىء ، تفعل فى كل شىء واليها يعود كل شىء . كلها تريد أن تجعل للانسان وللامة دورا فى التاريخ وأن

تدفعها نحو التقدم ومازالت الروح موضـــوعة بين الاعلى والادنى وليس بين الامام والخلف ، ومازالت تصورات الناس للعالم رأسية وليست أفقية وبالتالى يستحيل التقدم نظرا لان مفهوم التقدم نفسه لا تتوافر شروطه النفسية أو أسسه الثقافية . تريد كلها مواجهـــة قضية التفاوت الشديد بين الفقراء والاغنياء ، وتحاول تذويب الفوارق بين الطبقات فى ثقافة تقوم على التصور الهرمى للعالم وأنه كلمـــا صعدنا الى أعلى وصلنا الى مراتب الشرف والكمال ، وكلما نزلنا الى أسفل وصلنا الى مراتب الخسة والنقص ! كلها تدافع عن العقلانية وتحارب الجهل ولكن فى ثقافة مازالت المعارف المسبقة هى مصدر العلم ، ومازال الالهام فيها معرفة يقينية ينتظرها الجميع من النبى المرسل أو القائد الملهم . وكلها تدعو الى العمل والنشاط والجهد فى ثقافة تعطى الاولوية للقول على العمل وللايمان على الفعل . فكل من قال « لا اله الا الله » أصبح عضوا فى الامة حتى ولو أضمر الكفر وحتى لو كان فعله غير مطابق لقوله . ان كل مآسى الحاضر فى القهر والظلم الاجتماعى لا ترجـــع فقط للقوانين المقيدة للحريات ، قانون الاشتباه ، وقوانين الطوارىء ، وقانون القيم ، والاحكام العرفية ، وقوانين الانفتاح ، بل تمتد جذورها الى ما وراء ذلك بكثير ، الى أعماق التاريخ المترسب فى وعينا الوقومى . فالحزب التقدمى ثقافة قبل أن يكون سياسة . وان اقتصر على السياسة فانه يكون متخلفا عن الواقع ، ويكون الواقع أكثر تقدما منه(٤) .

---

(٤) انظر محاولاتنا لاعادة بناء الثقافة الوطنية فى « فى الثقافة الوطنية » ، « مخاطر فى فكرنا القومي » ، « مخاطر في سلوكنا القومي » ، « مخاطر =

٧ — **البيروقراطية .**

ومثل انعزال الاحزاب التقدمية فى البلاد المتخلفة عن الموروث الثقافى القديم فانها أيضا منعزلة عن جماهير الامة . يقتصر نشاطها فى مقار الاحزاب وفى مساكن مفروشة فى أواسط المدن الكبرى . ولا يخرج نشاطها عن ندوة أو محاضرة أو لقاء أو اجتماع لجنة . وقد يتحول هذا النشاط المغلق بين جدران أربعة الى نشاط موسع داخل مقار الاحزاب وفى الشوارع المجاورة أو فى صواوين خيرية فى المناسبات الدينية والاعياد الوطنية . أما المسيرات الشعبية والمظاهرات السلمية التى تضم الآلاف ، تطالب بشىء أو تعترض على شىء فانه سرعان ما يتم الغاؤها اذا أصدرت السلطة السياسية الاوامر لها بذلك خشية الصدام . لذلك لم تشعر الجماهير بها ، وظلت مجرد حلقات فكرية وصالونات أدبية ومنتديات ثقافية كما كان الحال فى أوائل القرن منذ نشوء الاحزاب التقدمية الاولى . ويتركز مُعظم النشاط الحزبى فى أعمال اللجان داخل الحجرات لمناقشة قضايا الوطن أو مسؤوليات التنظيم لا تدرى عنها الجماهير شيئا . وفى اللحظات الحاسمة يتجاوز رجل الشارع التنظيمات النقـابية والاحزاب السياسية ويكون هو الجمهور والمعلم والقائد(٥) . أصبح العمل السياسى أن يقول كل مثقف

فى وجداننا القومى » ، « المقـومات الثقافية للشخصية العـربية » « المسؤوليات الراهنة للثقافة العربية » ، « الفلسفة كمشروع قومى » فى الجزء الأول ، الدين والثقافة الوطنية .

(٥) انظر مقالنا « تحية الى رجل الشـارع » ، « الدين والثورة فى مصر ١٩٥٢ — ١٩٨١ » ، الجزء الرابع ، الدين والتنمية القومية .

ما يعرفه للمثقف الآخر الذى يعرف سلفا ما سيقال له • فانغلقت دائرة الحوار داخل الاحزاب • وما أكثر الاوراق والتقارير واللجان والخطاب والتعليمات • وعلى الرغم من صعوبة انتخابات حرة فى مجتمعات تسلطية ونظم سياسية قهرية ، وعلى الرغم من التزوير والقمع واحتكار الدعاية الانتخابية من الحزب الحاكم الا أن الذى يفلت من الحصار هو من يمثل الموروث القديم أو الليبرالية التى حن اليها الناس بعد طول القهر • أما الماركسية والقومية فلا تنال شيئا لان كليهما لا رصيد له فى الموروث الثقافى الشعبى • ان الجماهير مستعدة للموت والشهادة أكثر ما تكون باسم الدين وليس باسم الليبرالية أو القومية أو الماركسية • والتنظيمات الشعبية الدينية جاهزة : المساجد والزوايا والموالد والطرق الصوفية ودروس العصر • والكوادر السياسية جاهزة ممثلة فى الائمة والوعاظ والفقهاء وعلماء الامة • والايديولوجية السياسية جاهزة ممثلة فى تراث الامة وثقافتها الدينية التى تجعل المصلحة أساس الشرع ، فان ما رآه المسلمون حسن فهو عند الله حسن • ان تلقائية الجماهير خير ألف مرة من تنظيمات الحزب من القواعد الى القمة التى تنتهى الى أن تكون أوامر من القمة الى القواعد •

٨ — الشللية •

ولكى تحيا البيروقراطية ويكون لها جهازها العصبى الذى يبقى على شكلها فى حده الاقصى تظهر الشللية التى تكونت على مدى صداقات العمر منذ الخلايا الاولى أيام الدراسة وزمالة السجون والجمعيات التأسيسية للاحزاب وأخيرا لجان الحزب • فهى شللية تاريخية فى مجتمع تسوده القبلية وروح العشيرة أكثر من روح المبادىء

العامة . وتمثل الشللية جماعات ضاغطة على الحزب تسيره فى اتجاه دون آخر ولاصدار قرار يأخذ جانبا دون آخر بصرف النظـر عن المبادىء العامة للحزب وبصرف النظر عن آراء القواعد وظنون الناس. تظهر الشللية فى اللجان السياسية والاقتصادية وفى الامانات العـامة واللجان المركزية . كما تظهر فى جرائد الاحزاب حيث تسيطر مجموعات خاصة على كامل الصفحات وتحتكر العمل الصحفى كما تحتكر الرأى فى مسائل الحرب والسلام والتنمية والتخلف ، والوحدة والتجزئة ، والادب والفن . ومن طول الاحتكار تتكرر الافكار ، يعلمها القارىء مسبقا ، وبالتالى لا تفترق عن الجرائد الحكومية التى يعلم القارىء مضمونها دون أن يقرؤها . لذلك غلب على كثير من قرارات الاحزاب المجاملات على حساب المبادىء ، وشراء الخواطر على حساب المواقف ، والمساومات المتبادلة على المصلحة العامة . وكان من جراء ذلك أن انعزل بعض الافراد الذين لا شلل لهم والذين لا يستطيعون تكوين شلة مناوئة حرصا على المبادىء العامة للحزب وللحوار المثمر الخصب بين كافة الاتجاهات فيه . جمدوا نشاطهم ، وابتعدوا عن صراعات الجماعات الضاغطة فخسر الحزب جزءا من امكانياته ، وأصيب بالهزال، وأصبحت التجزئة ضاربة فى أحزاب الوحدة ، والطائفية السياسـية ناخرة فى الاحزاب القومية وصراعات القـوى ومحاولات السـيطرة من احداها على الاخرى فى الاحزاب الليبرالية . وانتقل الصراع الطبقى من خارج الاحزاب الى داخلها وأصبح صرعا بين الشلل داخل الاحزاب فى الاحزاب التقدمية .

٩ ـــ الانتهـازية :

ولما كانت معظم الاحزاب التقدمية فى البلاد النامية تتكون من الطبقات المتوسطة وكان العيب الدفين فيها الانتهازية ، التكسب على

حساب الطبقات الكادحة والتطلع الطبقى لمنافسة الطبقات العليا ، ظهرت الانتهازية كداء دفين فى الاحزاب التقدمية . فالجماعات والافراد تقدمية ولكن بحساب دون أن تضحى بمصالحها الخاصة من أجل الصالح العام . نقصتها قيم التضحية والعطاء . ولم تختلف الاحزاب التقدمية فى المعارضة عن أحزاب الحكومة فى السلطة . فالانتهازية طابع عام فى السلوك القومى لنقص فى الطهارة الثورية . وقد يصل الامر الى حد اضرار البعض بالبعض الآخر داخل الحزب الواحد بالرغم من مظاهر التضامن والتآلف والتناصر . وانتشرت الانانيــة وأصبحت أحد المصادر الرئيسية للانتهازية . ولا يختلف فى ذلــك قيادات الحزب العليا عن كوادره المتوسطة . البعض يطلب الشهرة فيتصدر العمل الحزبى بصوره ومقالاته ، والبعض الآخر يطلب السلطة فيسعى الى المطالبة بالجبهة الوطنية والتحالف مع الحزب الحاكم ، وفريق ثالث يترك صفوف الاحزاب التقدمية التى فى المعارضة وينضم الى الحزب الحاكم عسى أن ينال منصبا أو يتقلد وزارة مادام الحزب التقدمى طريقا مسدودا . وقد ينال الحظوة وقد لا ينال . فالطالبون لذلك كثيرون من داخل الحزب الحاكم ومن المتطلعين اليه من الفارين من أحزاب المعارضة . ويكثر المتزلفون داخل الحزب لهذا الفريق أو ذاك طمعا فى منصب أعلى ، ويشتد الصراع من تحت المائدة ومن وراء ستار بين الاخـوة الاعداء . ولا تختلف الانتخابات الداخليــة فى التنظيمات الحزبية عن انتخابات الحزب الحاكم ، أغلبية ساحقة ، تفويض جماهيرى ، قد لا يصل الى التسعينات فى المائة كما هو الحال فى الحزب الحاكم ولكن أدنى من ذلك بقليل . وتشتد جماعات الضغط وتتحرك الشلل الى حد يصل الى التآمر والطعن فى الخلف ابرازا لهذا المرشح وتنحية لذلك المتقدم حتى تظل القيادة العليا للحزب فى يد

الشلة القوية المسيطرة • والصغار الذين لا يقوون على النزال وليس لهم شلل ترعى مصالحهم يرضون باليسير ، منصب هنا ومنصب هناك ، ويسيرون فى الخط العام للحزب الذى تسيطر عليه الشلة القوية طوعا أو كرها • واذا كان الحزب جبهة وطنية تتكون من عدة قوى وتيارات فكرية فسرعان ما تسيطر احداها ، والتى ليست بالضرورة هى الاغلبية لا على مستوى قواعد الحزب ولا على مستوى ثقافة الامة ، وتوجه الحزب كله لصالحها ضربا لمفهوم الحزب كتجمع وطنى وهدما لتكوين الجبهة الوطنية(٦) •

١٠ — غياب النموذج القيادى •

وفى المجتمعات التراثية للنموذج القيادى المتمثل فى سير الابطال وقصص الانبياء والخلفاء الراشدين وحكام المسلمين وفقهاء الامة أثر بالغ فى التكوين النفسى والذهنى والثقافى للجماهير حيث تقارن حاضرها بماضيها ، ما تراه من سلوك حكامها وأفعالهم وبين ما تسمع عنه وتقرأ من سلوك القدماء فتثور على حاضرها وترنو الى ماضيها • ومعظم قادة الاحزاب التقدمية اليوم لا يسلمون من تساؤل الشعب عن سلوكهم ونمط حياتهم والى أى حد يتصفون بما اتصفت به هذه النماذج القديمة التى ترسبت فى وعيه القومى • منهم الباشوات ، ومنهم أصحاب الاراضى ، ومنهم الاغنياء • ويمتد السلوك ليشمل كثيرا من النواحى الاخلاقية وأسرار الحياة الشخصية تلك التى يجرحهم

---

(٦) انظر الدراسة السابقة « التنوير الدينى والتنظيم السياسى » •

الحزب الحاكم بسببها من أجل تشويه سمعتهم أمام الشعب والقضاء على ثقلهم السياسى وما يمثلونه من سياسات بديلة • وطالما تمسك الشعب بقادة كانوا مثالا فى السلوك وكانوا أقرب الى نماذجه القديمة التى يقرأ عنها فى التاريخ • يتكلم بعض القادة عن الفقر وهم أغنياء ، ويعارضون السلطة ويتصلون بالحزب الحاكم من وراء الستار • ومن ثم ضاع أى أثر لقادة الاحزاب التقدمية على جماهير الشعب اذ أنهم يشاركون قادة الحزب الحاكم فى نفس الصفات • لا توجد قدوة أى تطابق القول مع العمل ، المذهب مع السلوك ، الحياة العامة والحياة الخاصة • ويعجب الشعب بهوشى منه ، وغاندى ، وجيفارا من القادة المحدثين ، ويذكر عدل عمر ، وزهد أبى بكر ، وانصاف عمر بن عبد العزيز ، ويتحسر على قادته أصحاب رؤوس الاموال ، وملاكى الارض ، ورؤساء مجالس الادارات ، والباشوات القدامى • ويتعاطف مع أعضاء الجماعات الصامدين حتى ولو خرجوا على السلطان ، واستشهدوا فى معارك غير متكافئة ، كشهادة الحسين •

١ — الزعامة الفردية •

واذا كانت احدى السمات الرئيسية فى المجتمعات الراثية تشخيص الافكار والمبادىء والمذاهب والاديان فان النظم السياسية والتنظيمات الحزبية سواء بسواء تقع فى نفس الخطأ • فاذا كان طبيعيا أن تعتمد النظم الحاكمة على الموروث الثقافى اطمئنانا الى عنصر المحافظة فيه فتتشخص الدولة فى الفرد فانه يصعب أن تقع التنظيمات الحزبية المعارضة أى الاحزاب التقدمية فى نفس الفخ وهى تقوم أساسا على القضاء على عبادة الاشخاص • فاذا لم تتوافر فى

قيادات الاحزاب التقدمية روح البطولة فانها لن تلهب خيال الشعب . وان لم تكن لديها السمات الزعامية فانها تظل أقرب الى موظفى الدولة ومديرى المصالح ورؤساء مجالس ادارة الشركات . وفى مجتمعات تسيطر الدولة فيها على كافة أجهزة الاعلام فان شخصية القائد الحاكم يظل هو المحتكر الاول للحياة السياسية الاعلامية لا يمكن مزاحمتــه الا هامشيا وبلا فاعلية . مازالت كثير من الاحزاب التقدمية رجالات أكثر منها مبادىء ، وأشخاصا أكثر منها برامجا ، وأفرادا أكثر منها قواعدا . فاذا كانت الدولة هى الرئيس ، فالحزب هو الامين العام ، وجريدته هو مدير التحرير أو رئيس التحرير على الرغم من جماعية العمل فى الصحافة كحرفة . يضيف الافراد الى الاحزاب رصــيدا بأشخاصهم ولا يضيف الحزب الى الافراد رصيدا من مبادئه . لا حزب الا بهذا الزعيم أو ذاك . والافضل زعيم بلا حزب عن حزب بلا زعيم ! وقد يأتى رئيس حزب فيرشح نفسه للانتخابات بشخصه فى الدوائر الفردية وليس على مبادىء حزبه . فلعله ينجح فى الحالة الاولى بدلا من أن يرسب فى الحالة الثانية . ويظل رئيس حزب آخر أبا روحيا للحزب وموجها لسياسته حتى ولو لم ينزل المعركة الانتخابية. وقادة الصف الثانى لا يدخلون المعارك الانتخابية حرصا على الوقت ، وتوفيرا للجهد ، وطلبا للسلامة .

١٢ — الصراع على السلطة

من الطبيعى أن يكون هدف الاحزاب التقدمية فى البلاد النامية الحصول على السلطة حتى تنفذ برامجها وتحقق أهدافها . ولكن فى الحقيقة أن ذلك طريق مسدود وسابق للاوان . فالكل يفعل ذلك لا فرق بين حزب تقدمي وحزب تقدمى آخر ، ولا فرق بين الاحزاب

التقدمية فى مجموعها والاحزاب المحافظة ، ولا فرق بين الاحزاب كلها تقدمية ومحافظة وبين الحزب الحاكم المستولى على السلطة بالفعل • ولا أحد منها يتوجه الى الشعب ، للحصول على السلطة من قواعدها وأصولها • فالكل ضحية وهم أن التغير الاجتماعى لا يحدث الا بالسلطة السياسية ، « ان الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » • ولما كانت سلطة الدولة فى كل مكان من خلال الجيش أجهزة الامن والاعلام والثقافة والمؤسسات والمصالح ، صعب منافستها فى السلطة • المعارضة اذن ليست فى ايجاد حكومة بديلة ولكن فى اعداد الشعب بخطة طويلة الأمد على أن يأخذ مصيره بيده ويختار النظام الذى يمثله ويدافع عن مصالحه على نحو ديمقراطى صرف ، محمولا على الاعناق ، وليس قفزا على السلطة بانقلاب عسكرى أو بتنظيم مدنى ، علنى أو سرى • ولما كانت أجهزة الدولة قادرة على جمع المعلومات عن كل صغيرة وكبيرة فان العمل السرى أيضا طريق مسدود • فالسياسات البديلة ليست سرا ، والاعلان عنها ليس جريمة ، ونقد أوجه القصور فى السياسات القائمة واجب وطنى وحق لكل مواطن يكفله الدستور • وطالما استولت أحزاب على السلطة ولم تحدث أى تغير اجتماعى كما حدث مع أحزاب الاقلية • وطالما لم تحصل أحزاب على السلطة وكان لها أكبر الاثر فى تاريخ البلاد ونهضتها مثل الحزب الوطنى الذى دعا اليه الافغانى وصاغ برنامجه محمد عبده وأسسه مصطفى كامل ، ومثل جماعة الاخوان المسلمين فى مصر والتنظيمات اليسارية فيها منذ أوائل هذا القرن •

ان السلطة الفعلية ليست فى جهاز الحكم بل فى يد الشعب • يمكنه أن يقاوم ويقاطع ويدير ظهره للحاكم على ما هو معروف من أعمال المقاومة السلمية • وكما ظهر أخيرا فى السودان ، والفلبين ،

وكوريا الجنوبية ، وقبل ذلك فى الهند وكما يحدث الآن فى فلسطين .
ان دور الاحزاب التقدمية أن تولى ظهورها الى السلطة وتتقدم نحو الشعب لاعداده لتولى السلطة بنفسه عن طريق تثوير ثقافته ، واعداد كوادره ، وتعبئة جماهيره ، ووضع خططه ، وتنفيذ مراحله . ان التسرع بالقفز على السلطة يجعل القافز عليها باستمرار يبدأ من الصفر ، خطوة الى الامام وخطوتين الى الوراء . وان اعداد الشعب لتولى السلطة بنفسه يحدث التراكم التاريخى الضرورى ، خطوة الى الوراء وخطوتين الى الامام . فليحكم من يشاء ، وليجلس على كرسى الحكم من يريد . ولكن السلطة الحقيقية تظل فى يد فقيه الامة القادر على اعادة بناء ثقافتها الوطنية بحيث تكون حاملا لاهدافها القومية . لا يحمل السلاح ضد أحد ، ولكنه يواجه الفكرة بالفكرة ، والرأى بالرأى ، لا يكفر مؤمنا ، ولا يخون مواطنا ، ولكن يضع يده فى يد الجميع للاتفاق على برنامج وطنى موحد بصرف النظر عن المداخل النظرية لــه . برنامج عمل واحد وأطر نظرية متعددة . وهو درس من أصول الفقه القديم : الحق العملى واحد ، والحق النظرى متعدد . الحق العملى يقين ، والحق النظرى ظن . وهو درس فى الوحدة الوطنية ودعوة الى الجبهة الوطنية لخلاص الوطن ، اعتمادا على تراث الامة ، وتلبية لحاجة العصر ، وحثا بوصف القرآن « أشداء على الكفار رحمــاء بينهم » (٤٨ : ٢٩) .

مشروع جريدة إسلامية يومية جامعة

فى هذا الوقت ، وبعد أن انتصرت الامة فى رمضان الماضى ، يفكر الجميع فى اعادة بناء الدولة ، ويطرحون قضايا مصيرية هامة . قد تحدد مصير الامة لمئات من السنين ، وعلى رأسها قضية الديمقراطية وحرية الرأى ، ويقترحون اما تعدد المنابر من خلال تحالف قوى الشعب العامل واما تعدد الاحزاب • وسواء أخذت الامة بالرأى الاول أم الثانى ، فان اعادة بناء الصحافة ستأتى بالتبعية عندما يخصص لكل تيار فكرى صحيفة تعبر عنه ، وتدور فيها المناقشات ، ويتم فيها الحوار بين مختلف الاتجاهات الممثلة فى الصحف الاخرى •

ومصر أكبر دولة اسلامية ناطقة بالعربية كما وكيفا ، ومكانتها فى العالم العربى والاسلامى تبلغ عنان السماء ، وهى كعبة لكل طالبى العلم من أنحاء العالم الاسلامى ، ومنها خرجت معظم الحركات الاصلاحية الحديثة ، وتاريخها يشهد لها بنصرة الاسلام وعزة المسلمين • هذا التاريخ لم يخل مرة واحدة من صحيفة اسلامية جامعة ، تعبر عن وجدان الامة ، عن ماضيها وحاضرها ومستقبلها •

بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ وبث روح جديدة فى كل الاتجاهات الوطنية فى مصر ، كتب هذا الاقتراح الى القيادة السياسية فى مصر فى ذلك الوقت وسلم الى المرحوم د. اسماعيل الفاروقى لايصاله عن طريق صديقه الذى كان وزير الاوقاف والشؤون الدينية فى ذلك الوقت . وكان الرد أن ذلك سابق لاوانه !

وقد تبلور التيار الاساسى فيها فى العصر الحديث منذ رفاعة الطهطاوى الذى يحاول البعض جعله مؤسس الوطنية المصرية ، وهو فى الحقيقة من رواد الفكر الاسلامى السياسى المعاصر • بل ان كل ثورات الامة لم تخل من دافع اسلامى منذ ثورة أحمد عرابى حتى ثورة عمر مكرم ، ونضال علماء الازهر الشريف ضد المحتلين • بل ان ثورة مصر الوطنية سنة ١٩١٩ كانت مازالت فى احدى جوانبها تدور فى الفلك الاسلامى ، بحثا عن ذاتية الامة ، وتجديدا لصلتها بالعالم الاسلامى حولها ، حتى أتت ثورة يوليو المجيدة سنة ١٩٥٢ وتحدث قائدها فى « فلسفة الثورة » عن المحيطين اللذين يدوران حول مصر ، ومصر مركزهما ، المحيط العربى والمحيط الاسلامى ، وذكر صراحة أن الثورة ما هى الا تعبير عن نضال المصلحين المسلمين ، جمال الدين الافغانى ومحمد عبده ورشيد رضا •

وكانت آخر صحيفة تملأ الفراغ هى مجلة « المنار » التى ساهمت فى تكوين الفكر الاسلامى ، وفتحت آفاقا جديدة نحو التغيير الاجتماعى والتجديد الفكرى ، ووضعت مناهج جديدة فى تفسير القرآن الكريم • ثم حاول فريد وجدى تكملتها بموسوعته ، وحاول الاخوان المسلمون فى نشأتهم بجرائدهم ومجلاتهم ، ويحاولها الآن علماء الازهر الشريف بمجلة « منبر الاسلام » وغيرها من المجلات الاسبوعية أو الشهرية • ولكنها جميعا ظلت محدودة الاثر اما لحجمها وتوزيعها ومدى تكرارها ، واما لمضمونها التقليدى ، وكلها لا تغنى عن جريدة يومية جامعة تخاطب الجماهير العريضة يوميا ، وتربطهم بالاسلام والمسلمين ، وتكون قلب الاسلام النابض الحاملة لواء الاجتهاد ، وابراز المشاكل اليومية وحلولها الاسلامية ، فالاسلام ليس نظرية وثقافة فحسب بل هو تطبيق وتحقيق وعمل يومى على

مستوى الجماهير ، والتوحيد قادر على تجنيد الجماهير وتوحيد عقلها وقلبها وعملها •

ولقد دارت فى هذه الامة منذ ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ مناقشات حول وجه مصر الوطنى أولا ، والعربى ثانيا ، والاشتراكى ثالثا ، وكلها أوجه صحيحة لا ريب فيها ولكنها ناقصة اذ توارى الى الوراء وجه مصر الاسلامى مع أنه الوجه السائد داخل مصر وخارجها ، مما ساعدعلى اضعاف وجه مصر الوطنى والعربى والاشتراكى • وبالرغم من محاولات عديدة لتأصيل الاشتراكية الاسلامية ، واقامة القومية العربية فى احدى جوانبها على الاسلام أحيانا وعلى المصالح القومية اقتصاديا وسياسيا دائما ، فان الفكر الاسلامى ظل متواريا ، وظل الاسلام كامنا فى النفوس دون أن يجد ما يعبر عنه من خلاله فى صورة نظرية أم تطبيق ، ولم يجد منفسا الا طرقا منحرفة مثل حزب التحرير الاسلامى ومحاولاته الصبيانية لقلب نظم الحكم من أجل اقامة دولة اسلامية ،أو حركة الاخوان المسلمين السرية وظهورها علنا بين الجين والآخر بما يمثله فكر الجماعات السرية من حرمان وكراهية وقصور نظر وعداء • مع أنه كان من الممكن أن يعبر الاسلام الكامن فى النفوس عن نفسه بطريقة تلقائية طبيعية علنية وسوية من أجل تدعيم نضال الامة فى مواجهة قضايا الاستعمار والتخلف • وتدل صيحات « الله أكبر » التى أطلقها الجنود وهم يعبرون القناة فى رمضان من قوات بدر على أن الاسلام مازال وسيظل هو الدافع الاقوى لتحرير الارض والقضاء على التخلف • مهمة الجريدة الاسلامية اليومية الجامعة هى ابراز الفكر الاسلامى وتأصيل أيديولوجية اســلامية والتعبير عن ثقافة الجماهير وتاريخها ، وملأ الفراغ النظرى الذى نعانى منه فكريا وثقافيا وسياسيا ، خاصة وأننا أمام عدو أيديولوجى يقوم على الفكر

قبل أن يدعم وجوده بقوة السلاح ويؤسس ايديولوجيته على فكرة عنصرى للدين • وما أسهل على المسلمين من محاربته بنفس السلاح بعالمية الاسلام وانسانيته ، ووقوف الجماهير* فى مواجهـة الغزوات الصهيونية •

وكثيرا ما حاولت الامة بناء التجمعات الشعبية ابتداء من هيئة التحرير ، مارا بالاتحاد القومى الى الاتحـاد الاشتراكى العربى ، ولكن غياب الفكر الواضح ، وعدم التزام القيادات بالقضايا وسلبية الجماهير أدى الى ضعف هذه التجمعات لان أحدا لم يمس قلبهـا النابض بعد ووترها الحساس ، ومازال حتى الآن الجـو الفكرى خاليا من فكر وتنظيم يملأ الفراغ ويعبران عن أقوى الدوافع فيه • وفى مقابل هذا الفراغ تزداد المخاطر يوما بعد يوم • وكما نعلم جميعا لم تنته الصليبية بعد ، وأنه منذ حاول الشرق والغرب ضرب العالم الاسلامى فى قلبه مرة من الشرق بهجمات التتار والمغول ومرة من الغرب بحملاته المتكررة على فلسطين فى الماضى ، ثم فشله بفضل تجنيد صلاح الدين الايوبى للجماهير فكريا وسياسـيا وتجهيزه للجيوش الشعبية وتوحيده لمصر والشام أى لافريقيا وآسيا ، حاول مرة ثانية بالالتفاف حول العالم الاسلامى من أطرافه لحسر الاسلام عن جنوب شرق آسيا وأواسطها وجنوب أفريقيا وشرق أوربا ، وبدأت حركات الاضطهاد والتبشير ، واشتد أزرها ، ومازال الخطر جاثما على الفلبين والملايو واندونيسيا وجنوب السودان ومسلمى شرق أوربا وأواسط آسيا • والآن يشتد الحصار من الاطراف من الشرق كما نسمع كل يوم • ويعود الغرب لتوجيه الضربة الى القلب من جديد بالغـزو الصهيونى لفلسطين ، لقطع العالم الاسلامى من وسطه ، والقضـاء عليه بالتآكل من أطرافه • مهمة الجريدة اليومية الاسلامية الجامعة أن

يساهم الاسلام فى قضايا الاستعمار والتحرير ، ويشارك فى قضايا التنمية والتخلف ، ويصنع الوحدة بين الشعوب العربية والاسلامية دون الاكتفاء بالشعارات التى تعبر عن أمانى الجماهير ولا تحقق آمالهم .

وبعد مايو ١٩٧٠ فيما يبدو بدأت القيادة السياسية تدرك أهمية الاسلام ، وظهر شعار « العلم والايمان » كدعامتين للدولة الحديثة ، واستجابت الجماهير للنداء ، وظهرت عديد من القيم الاسلامية لاول مرة فى سلوك الجماهير وفى أجهزة الاعــلام . والآن رجال الفكــر يستجيبون بتأسيس جريدة اسلامية يومية جامعة . والامر أخطــر وأهم من أن يترك للمصادفة أو لمساحة محدودة فى الصحافة اليومية المنتشرة التى غالبا ما يكرر بعضها بعضا أو حكرا على مشاهير الاقلام الذين سادوا الصحافة أكثر من ربع قرن ولا يخرج تحليلهم عن قضايا الوعظ والارشاد أو الفكر الدينى التقليدى . ولن تعانى هذه الجريدة الاسلامية اليومية المقترحة من غياب القراء ، فالقراء موجودون وهم جماهير الامة الاسلامية ، فى حين أن الصحافة اليومية المنتشرة الآن موجودة وقراؤها محسورون عنها فكرا وقلبا وعددا . ولا تنقصنا الاقلام الجديدة الشابة لهذه الجريدة المقترحة ، فلم ينضب معين مصر الاسلامى أبدا .

ويمكن تحديد أهداف هذه الجريدة كالآتى :

١ — تنظير الايديولوجية الاسلامية ، واقامة حوار فكرى مــع الايديولوجيات الاخرى ، وتربية مفكرين شبان جدد يواصلون ما بنته الاجيال الماضية ، واعادة تفسير الحضارة الاسلامية وعلومنا التقليدية على أساس من احتياجات العصر .

٢ ــ تقوية الوعى الاسلامى وتنويره وترشيده على أساس من العقل والواقع حتى يصبح الرصيد الشعبى لكل عمل سياسى مستنير •

٣ ــ اعادة عرض قضايا مصر والعالم العربى المصيرية ، وتحقيق الوحدة العربية بايجاد الروابط الفكرية والثقافية وابرازها تحقيقــا لوحدة الجماهير العربية •

٤ ــ ابراز قضايا العالم الاسلامى فى مواجهة موجات التبشير فى الاطراف وضربات الطعن فى القلب وربط المسلم بأخيه المسلم فى شرق العالم وغربه •

٥ ــ المساهمة فى عرض قضايا آسيا وأفريقيا حيث يقع معظم المسلمين وعلى رأسها قضيتا التحرر والتنمية •

٦ ــ اعادة بلورة قضايا دول عدم الانحياز باعتبار أن الاسلام دعامة عدم الانحياز ، وصاحب فكر سياسى مستقل عن فكر المعسكرات الدولية •

٧ ــ تجنيد الجماهير والقضاء على سلبيتها ، وادخالها فى المناقشات الفكرية وتوجيهها نحو العمل السياسى ، وتحويل الاسلام الى حركة جماهيرية مستنيرة •

وستكون الجريدة جريدة رأى لا خبر الا ما يربط المسلم بأخيه المسلم فى أنحاء العالم الاسلامى ، وستكون أخبار الشعوب لا أخبار الحكام وولاة • وستكون خالية من الاعلانات التجارية والاجتماعية الا من مساحات ضيقة لاعلانات الكتب والثقافة • ويمكن للجريدة أن تقع فى ثمان صفحات لا أكثر ، يمكن تقسيمها اما جغرافيا أو فكريا وهو الافضل • فيمكن تخصيص صفحتين لكل من مصر ، والعــالم

العربى ، والعالم الاسلامى ، والعـــالم الغربى أو الشرقى جغرافيا ، أو تخصيص صفحتين لكل من الفكر الاسلامى النظرى ، والمشاكل الواقعية للعالم الاسلامى ، واعادة تفسير الحضارة الاســـلامية ، والحوار مع الحضارات المجاورة فى الشرق والغرب • ويمكن الجمع بين التقسيمين الجغرافى والفكرى عندما تقع الجريدة فى اثنتى عشرة صفحة كغيرها من الصحف اليومية • أما مشاكل التمويل فتهون بالنسبة للهدف • واذا تعذر التمويل مطلقا واســـتحال توفير الورق فيمكن تخصيص احدى الصحف اليومية لهذا الغرض ، وكلها فى النهاية ملك الشعب الذى سيّجد فى هذه الجريدة الاسلامية اليومية الجامعة أصدق تعبير عن أقوى دافع فيه • وهذا مشروع قابل للتعديل والتفصيل •

والرجا عرض هذا المشروع على السيد نائب رئيس الجمهورية للشؤون الدينية ، ثم على السيد رئيس الجمهورية •

الاسلام والقرن الخامس عشر

● **يشترط فى فقهاء ومجتهدى اليوم أن يكونوا تعبيرا عن أمـــة الفقـــراء والمقهورين .**

● **أين نحن من عصر الفضاء ؟ مشاكلنا تجعل عصرنا عصر البيضة والفرخـــة .**

● **ان مستقبل العالم الاسلامى مرهون بالاسلام الثورى قيادة وجماهيرا وفكرا .**

١ ــ الاجتهاد مصدر من مصادر الشرع بعد الكتاب والســـنة والاجماع ، وهو كذلك بنص الكتاب والسنة وباجماع المسلمين وبدليل العقل . لم ينكره من القدماء الا الاقلون . وبالتالى فهى ليست قضية خلافية عند القدماء ولا عند المحدثين . فلا يوجد أحد الآن ينكـــر شرعيته . بل ان محمد اقبال فى « تجديد الفكر الدينى فى الاسلام » يجعله مبدأ الحركة فى الاسلام . ولكن أيام الحكم العثمانى ، ونظرا لتخلف المجتمعات الاسلامية ، وسيطرة الحكام ورجال الدين قيلت هذه العبارة « قفل باب الاجتهاد » بعد الائمة الاربعة . وهذا غير صحيح على الاطلاق . فمازال الواقع متجددا ، ومازالت حياة المسلمين تزخر بالوقائع الجديدة التى تحتاج الى أحكام وبالتالى فالاجتهاد فى كل عصر ضرورة وواجب .

كتاب الموقف العربى ، الاسلام والقرن الخامس عشر الهجرى ، ١٩٨١ .

أما الصحوة الاســلامية المعاصرة فهى ذات أسس اجتماعيــة وسياسية واقتصادية وحضارية وليست مجرد صحوة فقهية ، بل ان مظاهر العبادات الخارجية والتمسك بالمظاهر الدينية لتعد صــحوة على السطح وليست صحوة الاعماق الموجودة بالفعل بعد أن جرب المسلمون فى حياتهم معظم الايديولوجيات العلمانية المعاصرة من ليبرالية وقومية وماركسية ولكنها لم تنجح الا نسبيا فى حل القضايا الاساسية التى يمر بها المسلمون الآن •

أما شروط المجتهدين عند القدماء فشرطان : الاول العلم بقواعد اللغة العربية ، والثانى العلم بأسباب النزول حتى يمكن للمجتهد فهم الاصول • ولكن ذلك لا يكفى بل لابد من اضافة الوعى بمصالح الامة والإنتساب الى وعى أغلبيتها المحرومة والتعبير عن مصالح غالبيــة المسلمين • فآفة رجال الدين كانت دائما موائد الحكام وقصورهم ولكن فقهاء اليوم ومجتهديهم يشترط فيهم التعبير عن أمة الفقــراء والجياع والمطحونين والمقهورين •

والقضية الإساسية التى يجب أن يعمل فيها المجتهد رأيه ليست أحكام العبادات والمظاهر الخارجية ، وحلق عانة الميت وأحكام الظراط والاستنجاء واتجاه الغائط بل القضايا المصيرية التى تواجه مصير الامة الاسلامية مثل تحرير الارض ، والتنمية والقضاء على مظاهر التخلف وتجنيد جماهير المسلمين وتحويل الكم الى كيف •

فالمشكلة الآن هى الغنى والفقر ، الملايين فى أيدى الاقلية والموت جوعا بل عطشا للملايين فى تشــاد واريتريا والصومال والســودان وبنجلاديش • فنحن أمة يضرب بها المثل فى الغنى والفقر • كما أننا أمة أصبح يضرب بنا المثل فى تسلط الحكام ومواجهة الرأى بالسيف ،

والفكرة بالمعتقل ، وبالتالى نشأت لدينا أزمة الحرية والديمقراطية . فالقضية الثانية اذن هى قضية الحرية ، والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقول الحق فى مواجهة الحاكم الظالم . كما أننا أمة يضرب بها المثل فى التخلف سواء فى التنمية والتعليم أو الخدمات . وأصبح ما يسمى بالبلاد المتخلفة يشمل العالم الاسلامى فى آسيا وأفريقيا فى مقابل اليهود والنصارى الذين نأخذ منهم أساليب القضاء على التخلف والمعونات الفنية . وكأن خير أمة أخرجت للناس أصبحت أسوأ أمة ، وكأن الامة المغضوب عليها الضالة أصبحت خير أمة .

٢ — نحن لا نعيش فى « عصر الفضاء » لاننا لسنا فى القرن العشرين ، فهذا هو عصر المجتمعات الاوربية التى استطاعت استثمار موارد الارض . لما ضاقت بها الارض اتجهت الى الفضاء تعزيزا لقوتها واستثمارا لعلمها . أما نحن فاننا نعيش مطلع القرن الخامس عشر وبعد حضارة اسلامية أولى بدأت فى القرنين الاول والثانى وازدهرت فى القرنين الثالث والرابع وبلغت أوجها فى القرنين الخامس والسادس ولكنها بعد ذلك بدأت فى التوقف والانهيار ابتداء من القرن السابع ، واستمر الحال كذلك على مدى خمسة قرون . ثم حاولنا منذ قرنين من الزمان ، الثالث عشر والرابع عشر النهضة من جديد . لقد أرخ ابن خلدون للحضارة الاولى ، ومازلنا فى حاجة الى من يؤرخ للقرون السبعة الاخيرة ، أسباب الانهيار وشروط النهضة .

لقد حاول الاصلاح الدينى (الافغانى) ، والفكر الليبرالى (الطهطاوى) ، والفكر العلمى (شميل) الكرة من جديد ولكننا مازلنا لم ننتقل بعد من ثنايا الاصلاح الى النهضة الشاملة . فمازال العقل

لدينا يتوارى أمام الخرافة والالهام ، والانسان غائبا أمام الله ، والطبيعة مسلوبة أمام ما يأتى من فوق الطبيعة ، وبالتـــالى فمازلنا مجتمعات تناضل من أجل اعلاء شأن العقل ، واكتشاف الطبيعة وتأكيد الانسان ، والمساهمة فى صنع التقدم ، والنضال من أجل الحـــرية والديمقراطية . أين نحن من عصر الفضاء ؟ ان الارض مازالت محتلة ، ثرواتها منهوبة ، صحراء جرداء غير مستثمرة ، زرعهـــا يعطب فى السودان ، أرضها فى حاجة الى ماء ، حقولها فى حاجة الى عمل وعرق . أين نحن من عصر الفضاء ؟ ان التلوث ينشأ لدينا من روث البهائم والمجارى الطافحة وأقمام الزبالة على نواصى الطرقات وليس من النفايات النووية أو مخلفات المصانع . نحن لا نستطيع أن ندعى عصرا لا نعيشه ، وبالتالى نستولى على تاريخ غيرنا وعصوره . يكفى أن مركبات الفضاء تطير فوقنا وتصور بلادنا سلما وحربا ، وبالتـــالى تم غزو فضائنا بعد غزو أرضنا وسمائنا . ان التبول فى الطرقات ، والسعى وراء لقمة العيش ، يجعل عصرنا عصر البيضة والفرخة ، ويجعل جيلنا جيل الارز والسكر والزيت ، فاذا ما ملئت البطون عملت العقول ، واذا ما حلت مشاكل الارض انتبهنا الى ما يدور فى السماء .

٣ — ان مستقبل المجتمعات الاسلامية مرهون أساسا بحـــل القضايا المصيرية للمسلمين وعلى رأسها ، الحرية ، والتحرر ، والتنمية ، وتجنيد الجماهير . فالحرية بالنسبة للمجتمعات الاسلامية قضية حياة أو موت . ان اختلاف الائمة رحمة بينهم ، وللمخطىء أجر وللمصيب أجران ، ولماذا تكون الفرق كلها هالكة الا واحدة ، وهى فرقة الحكومة ؟ ان الحق كثير فى العمليات على ما يقول الاصوليون القدماء . ومادام التسلط والقهر والمنع والكبت هو علاقة الحاكم بالمحكوم فسيظل العالم

الاسلامى لفترة طويلة يعانى من تخلفه وفقره لانه لم يتحقق بعد شرط التقدم وهو الحرية .

وتحرير الارض بالنسبة للمجتمعات الاسلامية مسألة حياة أو موت . لقد حاول الاستعمار الاوربى فى أوج النهضة الاسلامية ضرب العالم الاسلامى فى القلب عن طريق البر أيام الحروب الصليبية ففشل . ثم حاول ذلك عن طريق البحر بالدوران حول الاطراف على سواحل أفريقيا وآسيا فى القرن الرابع عشر ، فيما سمى بالكشوف الجغرافية ، فنجح هذه المرة . وبدأت الغارة على العالم الاسلامى بالاستعمار والتبشير . ولما بدأ العالم الاسلامى فى التحرر وأخذت دوله فى الاستقلال عاود الهجوم وصوب الى القلب برا من جديد فى فلسطين ، فأتى الاستعمار فى صورة الصهيونية للاستيلاء على فلسطين . تحرير الارض اذن قضية مصيرية لانقاذ القلب واحياء الاطراف والقضاء على جميع أنواع الاستعمار العسكرى والاقتصادى والثقافى والحضارى فى الامة الاسلامية .

والتنمية قضية أساسية ، فلا يعقل أن تكون خير أمة أخرجت للناس يضرب بها المثل فى الفقر والتخلف . ولا يعقل أن تكون الامة التى ورثت الاسلام آخر تطور للنبوة ، والذى اكتملت فيه الانسانية ، والذى استقل فيه وعى الفرد ، لا يعقل أن تكون أمة التقدم متخلفة فى حاجة الى معونة أمم سبقتها فى التطور ، ومازالت وراءها فى مراحل سابقة من تطور النبوة . لقد وصف القرآن الارض بأنها الارض التى اذا نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنتجت من كل زوج بهيج ولم يصف الارض القاحلة الصفراء . ووصف الجبال والوديان والانهار ، والحديد ، والانعام ، والطير ، والاسماك . كل ذلك لدفع الامة نحو الطبيعة

واستغلال مواردها ولم يجعل الارض مكانا للموبقات والنفايات ولانواع البصاق • لقد تعلم الغرب منا فى فترة إزدهار الحضارة الاسلامية وسار مع ابن رشد وترك الغزالى • ونحن سرنا مع الغزالى وتركنا ابن رشد ، وأصبحنا نتتلمذ عليه الآن • ولكن الغرب أخذ منا وبنى وأضاف ، ونحن مازلنا نأخذ ونطلب المزيد وكأن الغرب سيظل باستمرار مبدعا منتجا وسنظل نحن مستهلكين ناقلين • التنمية اذن ليست فقط فى استيراد العلم بل فى ابداع العلم ، وليست فقط فى نقل التكنولوجيا بل فى ابداع التكنولوجيا ، وذلك هو التحدى لعلماء المسلمين فى جيلنا •

أما قضية تجنيد الجماهير فهى قضية مصيرية ، فضرب بنا المثل ، كالهند ، فى الكم البشري الهائل دون كيف ،كغثاء النجل ، أو كالجراد والنمل الذى لو حط على الجزيرة البريطانية لاغرقها — كما يقول الافغانى • تجند إسرائيل ثلاثة ملايين تحت السلاح وهى ثلاثة ملايين ونصف ! ونحن ثمانمائة مليون ولا نستطيع أن نجند ثلاثة ملايين مثلها • نصور فى أجهزة الاعلام الغربية كتل بشرية يصرعها الجوع والعطش والاوبئة أمام فصح هيئة الامم ورهبان الكنيسة ! وماذا عن خلافة الارض وارثها التى وعد الله بها المسلمين ؟ وماذا عن الامانة التى رفضتها السموات والارض والجبال وأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ؟ وماذا عن شهادة أن لا إله الا الله ؟ وقوة الشهادة لدى المسلم فى رفض الآلهة المزيفة « إلا الله » من أجل الله الواحد القهار ؟

ان المستقبل الاسلامى مرهون بهذا التحدى الحقيقى للامة الاسلامية التى أصبح تاريخها المعاصر مرتعا لعديد من التجارب

والايديولوجيات العلمانية التى لم تحرك الا الاقلية وظلت الاغلبيـة فى تراثها التاريخى الذى يعبر عن أعمق أعماقها • والآن تنفر جماهير الامة من طلائعها ، ولا تجد الا تراثها المحافظ ، وشعائرها ، ودينها الذى ورثته ابان القرون السبعة الاخيرة ابان الحكم العثمانى • ان التحدى الآن هو تنوير الجماهير الاسلامية وتحويلها من المحافظة الدينية الى الاسلام الثورى ، ثم اكتشاف الطلائع قوة الاسلام حتى يمكنها أن تكون أكثر أهلية فى قيادة الجماهير الاسلامية •

ان الغرب مازال يمثل تحديا لنا ، وقد صورنا فى الاستشراق ثم فى « الانثربولوجيا » على أننا شعوب متخلفة ليس أمامها الا الاخذ عن الغرب أساليب النهضة والتقدم • ولكن اكتشاف الشعوب قدراتها على الحركة سواء فى هباتها الثورية أو فى ثوراتها الاسلامية كما حدث فى مصر وايران والجزائر • بل وفيتنام وأمريكا اللاتينية ، تجعلها قادرة على قبول التحدى وأن تجعل تراثها وروحها وتاريخها وحضارتها وعاء لحاضرها ومصيرها ومصالحها • فالمستقبل للاسلام الثورى ، أو لثورة الاسلام قيادة وجماهيرا وفكرا •

أحاديث فى اليسار الاسلامى والوحدة الوطنية

أ ــ الدين والتراث والثورة :

ــ سؤال : أثارت قراءة حسين مروة للتراث فى كتابه « النزعات المادية فى الفلسفة العربية ــ الاسلامية » عام ١٩٨١ كثيرا من الجدل واعتبرت المحاولة ضمن المشاريع الفكرية المهمة • كيف تقيمون هــذا العمل ؟

الوحدة ، السنة الاولى ، العدد ٦ آذار / مارس ١٩٨٥ ، الرباط ، المغرب . وقد أجرى الحديث فى القاهرة اثناء ندوة الاصالة والمعاصرة التى نظمها مركز دراسات الوحدة العربية بالقاهرة ، سبتمبر ١٩٨٤ .

تقديم وحوار : قيس خزعل جواد . ارتبط اسم د. حسن حنفى بأصحاب المشاريع الكبيرة على صعيد دراسة التراث ، بل ان بعضــهم يحصى أربع قراءات مهمة للتراث أعتبرها مشروعات فكرية متكاملة(١) ، المشروع الاول للاستاذ حسين مروة فى كتابه « النزعات المادية فى الفلسفة العربية الاسلامية » (جزءان) والمشروع الثانى للاستاذ الطيب تيزينى فى كتابيه : « من التراث الى الثورة : حول نظرية مقترحة فى قضية التراث » و « الفكر العربى فى بواكيره وآفاقه الاولى » . وهذا المشروعان تقيدا بالمنهج الماركسى فى التحليل • أما المشروع الثالث الذى انطلق من منهجية مادية أيضا ولكنه تميز عن المشروعين الاولين ببعده الثقافى فهو للاستاذ محمد عابد الجابرى الذى بدأه بمقدمة منهجية مهمة فى كتابه : « نحن والتراث : قراءات معاصرة فى تراثنا الفلسفى » ثم أعقبه بمحاولته الجامعة : =

---

(١) انظر تعقيب الاستاذ السيد ياسين على دراسة د. محمد عابد الجابرى المقدمة لندوة التراث وتحديات العصر فى الوطن العربى التى نظمها مركز دراسات الوحدة العربية فى القاهرة ، ٢٤ ــ ٢٧ أيلول / سبتمبر ١٩٨٤ .

● د. حنفى : بادىء ذى بدء يجب التمييز بين فئتين من الناس :

=

« نقد العقل العربى » . أما المشروع الفكرى الرابع فهو للاستاذ حنفى ، وهو متميز عن غيره بكونه لا ينطلق من منهجية مادية فى تحليل التراث ، بل هو قراءة اسلاموية هدفها طرح نظرية ثورية للشعوب الاسلامية لمواجهة تحديات العصر .

ان حنفى يبحث فى داخل التراث ، يدقق فى المدارس الفلسفية وينتقى منها ما يلزم للرد على الواقع العربى المتخلف . وهو لا يتخذ من الفلسفة اداة معرفية فحسب ، بل يعتبر أن جوهرها يكمن فى قدرتها على بلورة نظرية ثورية تمتلك ناصية النهضة . فالاسلام فى نظره لا ينفى المؤمن الى الصوامع والجوامع بل يمده برسالة حضارية قوامها الثورة على الطغيان والقهر والتخلف والتجزئة واقامة مجتمع عادل يؤمن بالاجتهاد والتنوع فى اطار الوحدة .

وللتقرب من فكر حنفى سنحاول الاجابة عن الاسئلة التالية : من هو حنفى ؟ وكيف ينظر الى الدين والى الثورة ؟ وهل يرى امكانية لاضطلاع حركة الاصلاح الدينى بمهمات النهضة العربية الشاملة ؟ وما شروط هذه النهضة ؟ وكيف السبيل لتجديد التراث ؟

يختص حنفى بموضوع التفسير واشكالية النص كما يتضح ذلك من ثلاثيته الاولى (بالفرنسية) وهى : مناهج التفسير : محاولة لاعادة بناء علم أصول الفقه ، تفسير الظاهريات : الحالة الراهنة للمنهج الظاهرياتى وتطبيقه فى ظاهرة الدين ، ظاهريات التفسير : محاولة فى التفسير الوجودى ابتداء من العهد الجديد(٢) . ويهدف الى خلق تيار اسلامى مستنير يقوم

---

(2) Les Méthodes d'Exégèse, essai sur la science des fondents de la Compréhension, clm Usul al - Fiqh Le Caire, 1965 .

— L' Exégèse de la phénoménologie, l'état actuel de la méthode phénoménologique et son application au phénomène réligieur (Pari , 1965) .

— La phénoménologie de l'Exégèse, essai d'une herméneutique existentielle à partir du Nouveau Testament, (Paris, 1966) .

الاولى عاش أصحـابها طويلا فى الايديولوجيات العلمانية ومنهـا

=

على العقل والطبيعة وحرية الانسان والمساواة الاجتماعية والتقـدم . وفى ظل ظروف القهر شرع يعرض لهذه الموضوعات بطريق غير مباشر ابتداء من الفلسفة الغربية فصدر له العديد من المؤلفات(٣) . ثم حـدد مشروعه أخيرا بطريق مباشر فى « التراث والتجيد » باقسامه الثلاثة : « موقفنا من التراث القديم » ، « موقفنا من التراث الغربى » ، « موقفنا من الواقع أو نظرية التفسير » محددا الموقف الحضارى للمفكر الاسلاموى ، الآن فى جبهاته الثلاث ، لاعادة بنـاء القديم ومن اجـل تاسيس علم « الاستغراب » أى وضع الغرب كموضوع للعلم ورده الى حدوده الطبيعية، وتحرير عقل الامة من تقليد القدماء أو الآخرين ووضع شروط الابداع الذاتى.

يرى حنفى أن الدين يقاس بوظيفته . فاذا ما نظرنا الى جوهر الدين سنعرف أنه جاء لخلاص الانسان ولتنظيم حياته وعمله وعلاقته باللـه وبالآخرين ، وبالتالى فهو لا يقر الظلم والاستغلال والتعسف ، ولكن وظيفة الدين تتغير بتغير القائمين عليه . ولذلك يرى حنفى أن « الدين لدى الشعوب التاريخية (التراثية) هو مصدر قيمها ، ومنبع فكرها ، وأصل تراثها ، وموجه سلوكها ، تلجأ اليه ساعة الشدة ، وتتجه نحـوه فى اللحظات الحاسمة من تاريخها ، وهو أيضا عامل فى تقدمها أو تأخرها طبقا للوظيفة التى يؤديها فيها ، وطبقا لاستعمال الطبقات الاجتماعية له . تثور به الجماهير ، وتتحكم به السلطة ، تواجه به الشعوب فى مقاومتها المحتل الاجنبى ، ويستغله المحتل الاجنبى من خلال السلطة الدينية طلبا لطاعة الجماهير وانصياع الامة »(٤) . وحنفى يعزى ما ألم بالواقع العربى

=

---

(٣) نماذج من الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، لسنج : تربية الجنس البشرى ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، سارتر : تعالى الانا موجود ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

(٤) حسن حنفى ، الثورة العرابية ، مائة عام ١٨٨١ — ١٩٨١ ، كتاب الموقف العربى ، القاهرة : دار الموقف العربى ، ١٩٨١ ، ص ٣٤ . وأيضا الجزء الثالث : الدين والنضال الوطنى .

الماركسية والليبرالية والقومية والاشتراكية وتيار الوطنية .. والفئة

بكل ابعاده المأساوية الى استغلال السلطة للدين وتوظيفه لصالحها ، ولم يكن ذلك ممكنا قبل القرن الخامس الهجرى حيث قاد الاجتهاد الى عقلانية المعتزلة ، ولكن بانتصار الاشعرية وتحولها الى فكر رسمى للدولة السنية ساد تصورها للعالم بعد أن كانت حركة تحريفية للمعتزلة ومراجعة لها ونكوصا عنها . فالانسان فى نظر الاشعرية يظل قاصراً ، عقلا وارادة ، عن أن يستقل فى فهمه وفعله ، يظل العقل تابعا للنقل ، وتظل الارادة الانسانية تابعة للارادة الالهية ، فسلطة الحاكم مستمدة من سلطة الله . « من هذا التصور المركزى للعالم جاءت فكرة الزعيم الاوحد ، والمنقذ الاعظم ومبعوث العناية الالهية . وتحولت سلطوية التصور الى تسلطية النظم والاعلاء من شأن القمة على حساب القاعدة .. فلا يوجد حوار بين القمة والقاعدة بل يوجد أمر وتنفيذ ، سمع وطاعة »(٥) . فأهل السنة — حسب حنفى — فصلوا بين العمل والايمان ، واكتفوا بالايمان وارجأوا العمل الى يوم القيامة ، وبذلك ساد الفسق والنفاق فى حين جعل المعتزلة والخوارج الايمان بلا عمل كفرا صارخا ، فلا ايمان بوجود سلطة طاغية ، لذلك استطاع المعتزلة معارضة النظم اللاشرعية القائمة ، وتكوين جبهات معارضة ، وفكر معارض . كما استطاع الخوارج تنظيم المقاومة الفعلية والخروج على النظم اللاشرعية القائمة بالسيف(٦) .

أما متى أصبحت النظرية الثورية شاغله الوحيد فيحدد حنفى انه « اثر هيمة حيران (يونيو) ١٩٦٧ ، أدركنا اننا حاولنا أن نقيم مجتمعات ثورية دون وعى ثورى ودون نظرية ثورية ، فعكف كثير من المفكرين على

(٥) حسن حنفى ، « الجذور التاريخية لازمة الحرية والديمقراطية فى وجداننا المعاصر » فى كتاب : الديمقراطية وحقوق الانسان فى الوطن العربى ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٣ ، ص ١٨٥ . وأيضا الجزء الثانى : الدين والتحرر الثقافى .

(٦) حسن حنفى ، مبحث « التفكير الدينى وازدواجية الشخصية » ، فى فكرنا المعاصر ، بيروت : دار التنوير ، ١٩٨١ .

الثانية هم من عاش التجربة الاسلامية وتطور داخلها • بالنسبة للاولى

=

التعرف على مقدمات الثورة وشروطها . ولما كان الحديث عن الثورة حديثا مباشرة مازال يخضع للرقابة الشديدة فى مجتمعاتنا ابان الثورات العربية الاخيرة لجأت الى التراث الغربى كوسيلة للحديث عن الثورة والتقدم والوعى والجماهير »(٧) . وانتقل حنفى نقلة فكرية نوعية بعد انتصار الثورة الايرانية ، فقد رأى أن النظرية الثورية تنبع من تراث الامة ذاته ، وأن المهمة تكمن فى تثوير هذا التراث ، لذلك فقد حدد برنامجه الثورى فى كتابه « التراث والتجديد — القاهرة ١٩٨٠ » ومن ثم فى مجلته التى لم يصدر منها الا عدد واحد وهى « اليسار الاسلامى — ١٩٨١ » •

أما كيف تتم عملية التثوير هذه .. فعن طريق « الكشف عن العناصر الثورية فى الدين أو بيان أوجه الاتفاق بين الدين والثورة أو تأويل الدين على انه ثورة . فالدين هو ما لدينا بالاصالة ، والثورة هى مكتسبات عصرنا (...) وقد زخر التاريخ الاسلامى بالثورات الدينية والاجتماعية والسياسية مثل ثورة القرامطة وثورة الزنج فى تاريخنا القديم والحركات الاصلاحية مثل المهدية فى السودان والسنوسية فى ليبيا ، والاسلام فى الجزائر ابان حركة التحرير الوطنية (...) كما يتأصل « اليسار الاسلامى » فى ثورات الاديان فى التاريخ البشرى . فتاريخ اليهودية ملىء بالثورات مثل ثورة ابن عقيبة ضد الرومان ، وتاريخ المسيحية زاخر بالثورات مثل ثورة الفلاحين فى ألمانيا فى القرن السادس عشر بقيادة توماس مونزر ، وثورة القساوسة الكاثوليك فى أمريكا اللاتينية »(٨) .

وهكذا اتجه حنفى لبعث الروح فى محاولات الاصلاح الدينى التى بدأت بالمشروع الاسلامى الذى طرحه جمال الدين الافغانى وهو الاسلام
=

---

(٧) حسن حنفى ، لسنج ، تربية الجنس البشرى ، بيروت : دار التنوير ، ١٩٨١ ، ص ٧ .

(٨) حسن حنفى ، اليسار الاسلامى ، كتابات فى النهضة الاسلامية ، العدد الاول ، ١٩٨١ .

فقد اتجه بعض أصحابها ـ بعد الفشل النسبى الذى ألم ببرنامجها فى

=

فى مواجهة الاستعمار فى الخارج والقهر فى الداخل ، ولاعادة توزيع الثروة ولتوحيد الامة والحفاظ على الهوية ، والاسهام فى قضايا التقدم وتعبئة الناس .. وبما أن هذا المشروع قد خبا لدى محمد عبده ورشيد رضا ، لذلك فحنفى يحاول من جديد اعادة بناء القديم كله ليكون قادرا على مواجهة تحديات العصر والانتقال من الاصلاح الى النهضة ، وذلك بالاعتماد على سلطة العقل واجتهاد المحدثين . فالتراث ليس قيمة فى ذاته الا بقدر ما يعطى من نظرية علمية فى تفسير الواقع والعمل على تطويره .. ويمكن توظيف التراث ليكون نظرية للعمل وموجها للسلوك ، وذخيرة قومية يمكن اكتشافها واستغلالها واستثمارها من أجل اعادة بناء الانسان وعلاقته بالارض وهما حجرا العثرة اللتان تتحطم عليهما كل جهود البلاد النامية فى التطور والتنمية .. فالثورة الصناعية والزراعية فى البلاد النامية لا تتم الا بعد القيام بثورة انسانية سابقة عليها وشرط لها (...) فالنهضة سابقة على التنمية وشرط لها ، والاصلاح سابق على النهضة وشرط لها ، والقفز الى التنمية هو تحقيق لمظاهر التقدم دون مضمونه وشرطه(٩) .

أما شروط قيام النهضة العربية الشاملة فتكمن فى نظر حنفى فى عملية اعادة صياغة للتراث وتجديده من خلال علم أصول الدين الذى لابد أن يستخدم الادلة اليقينية لاثبات العقائد الدينية أى تأسيس العقيدة الاسلامية على أسس عقلية برهانية حتى يمكن فهم العقيدة وعرضها والدفاع عنها ، وهو مواز لعلم أصول الفقه الذى يستنبط الاحكام الشرعية من أدلتها ، كلاهما علم أصول ، الا أن الاول يؤسس النظر فى حين أن الثانى يؤسس العمل(١٠) . وقديما قال علماء أصول الدين : أن كل الحجج النقلية حتى

=

---

(٩) حسن حنفى ، التراث والتجديد ، موقفنا من التراث القديم . القاهرة : المركز العربى للبحث والنشر ، ١٩٨٠ ، ص ٩ ، ١٠ .

(١٠) حسن حنفى ، دراسات اسلامية ، بيروت : دار التنوير ، ١٩٨٢ ، ص ١١ .

عالمنا العربى الاسلامى — الى الاسلام ، وبدأ يجرب الاسلام ويكتشف

ولو تضافرت على اثبات شىء على انه حق لا يكون ذلك الا بحجة عقلية واحدة .. وسيادة العقل مسألة أساسية لدى حنفى ، فاذا كان لسنج يقول بأن وظيفة العقل تصحيحية تقويمية لشىء موجود سلفا ، وان الوحى هو الذى يمد العقل بالحقائق لانه غير قادر على الوصول اليها بمفرده ، فان هذه المقولات هى حدود فلسفة التنوير .. أما المعتزلة فقد اثبتوا قدرة العقل على الوصول الى حقائق الوحى بمفرده وهو موقف ثورى عقلانى تكزر لدى دعاة الجناح الجذرى فى فلسفة التنوير بفرنسا .

وتجديد التراث الذى هو شرط سابق على النهضة هو بمثابة قضاء على معوقات التطور والتنمية والتمهيد لكل تغيير جذرى للواقع .. هو عمل لابد للثورى أن يقوم به .. وهو نفس الوقت عمل عقلانى . فالتراث والتجديد — حسب حنفى — « يؤسسان معا علما جديدا هو وصف للحاضر وكأنه ماضى يتحرك ، ووصف للماضى على انه حاضر معاش (...) ولما كان التراث يشير الى الماضى ، والتجديد يشير الى الحاضر ، فان قضية التراث والتجديد هى قضية التجانس فى الزمان وربط الماضى بالحاضر وايجاد وحدة التاريخ »(١١) . وبالتالى فالتراث والتجديد يمثلان عملية حضارية هى الشعور بالتاريخ والوعى به . لان الوعى التاريخى شرط أساسى لاكتشاف الذات والهوية ، فلابد أولا من تحديد الوجود . فنحن لا نعيش فى القرن العشرين وليس لنا عصر وسيط وحديث ، وانما نحن فى أوائل القرن الخامس عشر الهجرى ، وذلك يفرض علينا معرفة دقيقة ببعدنا التاريخى . «ان تقدم الشعوب مرهون باكتشاف شعورها التاريخى، والشعور التاريخى هو شرط الوعى التاريخى ، ويبدو أن من أسباب تعثر نهضتنا الحالية التى بدأناها منذ القرن الماضى هو أننا لم نكتشف بعد الشعور التاريخى ، فمنذ اتصالنا بالحضارة الغربية ونحن نؤرخ لانفسنا بتاريخها وعصور ومراحل تطورها حتى لقد تصورنا أنفسنا فى القرن العشرين (...) ان غياب البعد التاريخى فى تراثنا القديم أورثنا غياب الوعى التاريخى فى وجداننا المعاصر ، ويكون السؤال : لماذا غلب مبحث

---

(١١) حسن حنفى ، التراث والتجديد ، ص ١٧ .

ايجابيات كان فى غفلة عنها ، ومن هؤلاء خرجت مجموعة من الدراسات

= التاريخ فى تراثنا القديم هو بداية الكشف عن الجذور من أجل اعادة بناء شعورنا القومى ، وينشأ السؤال عندما تتوقف الحضارات وتبدأ بالنهوض من جديد .. لذلك كانت فلسفة التاريخ مواكبة لنهضة الشعوب »(١٢) .

شرط آخر اساسى للنهضة هو المبحث الانسانى ، فالانسان وان كان حاضرا فى كل علم أو مذهب أو فكرة فى تراثنا القديم ، لكنه مغلق بمئات الاغلفة اللغوية والعقائدية والالهية والتشريعية التى ان أمكن ازاحتها ، فسيظهر الانسان على أنه أساس كل دين وشريعة : « ان المهمة ليست سهلة لانها تبغى نقل تمركز الحضارة من الله الى الانسان وتحويل قطبها من « علم الله » الى « علم الانسان » (...) فالانسان اما محاصر بين الطبيعيات والالهيات ، واما يفك حصاره ولكنه يتسطح وهو يئن تحت كم هلئل من الطبيعيات والالهيات ، وهو نفس ما يحدث الآن فى وجداننا المعاصر من حصار للانسان بين السلطة وضنك العيش »(١٣) .

لا تقوم النهضة بدون توفر شروطها السابقة الذكر ، ولا تحدث بدون الاستعانة بكل الاجتهادات ، فلابد من التنوع فى اطار الوحدة . ولذلك فان برنامج حنفى الوطنى هو تحويل تجديد التراث من نظرية فى الثقافة والحضارة الى نظرية سياسية تقوم على أساس الدعوة للابقاء على الاختلافات فى الاطر النظرية .. وايجاد برنامج عمل واحد عن طريق رصد أهم القضايا التى تشغلنا جميعا(١٤) . فالصواب النظرى قد يكون متعددا ، =

---

(١٢) حسن حنفى ، دراسات اسلامية ، ص ٣١٧ — ٣١٨ .

(١٣) المصدر نفسه ، ص ٣٠٩ .

(١٤) يعدد حنفى أهم القضايا هذه بـ : قضايا تحرير الارض ، قضايا القهر والطغيان والدفاع عن الحريات ، قضايا الفقر والغنى وضرورة اعادة توزيع الدخل على الامة ، قضايا الوحدة والتجزئة ، الهوية والتغريب ، التقدم والتخلف ، وتعبئة الجماهير وتجنيد الامة .

أشهرها دراسة حسين مروة والطيب تيزينى • وهى دراسات تقرأ

=

ولكن العمل يحتاج الى اتجاه ومدرسة واحدة . ولقد عرف حنفى مشروعه فى « اليسار الاسلامى » بأنه يمكن أن تلتقى عليه الاتجاهات التحديثية كلها : الاخوة فى الله «الاخوان المسلمين» والاخوة فى الوطن « الماركسيين » والأخوة فى الثورة « الناصريين » والاخوة فى الحرية « الليبراليين » . وهو لا يجد حرجا فى أن يعتبر نفسه اسلاميا أو عربيا أو عالميا أو قوميا ، دينيا أو علمانيا ، فالاسلام دين وقومية ، عربى وعالمى ، دين ودولة .. و « اليسار الاسلامى » لا يعبر عن ثورة المسلمين وحدهم بل هو أيضا ثورة أهل الكتاب الذين يمثلون جزءا من تراث الامة وتاريخهـا الوطنى ونضالها ضد الاستعمار ، بل ان طليعتهم الثورية تعتبر الاسلام تراث الامة »(١٥) .

تلك هى معالم فلسفة حنفى الثورية التى يعتبرها ماريان فان دين بوم قوى محركة لاعادة وعى البروليتاريا الاسلامية من اجل اقامة مجتمع عقلانى بلا طبقات ، بحيث يتم تحويل الدين من الثيولوجيا الى الانثروبولوجيا. والاسلام لدى حنفى ليس نظرية للبؤسـاء ولكنه فكر معارضة هـذا البؤس(١٦) .

لكن قبل أن نختتم هذا التقديم وننتقل الى الحوار المباشر مع حسن حنفى ، لابد أن نشير الى حملة النقد الواسعة التى بدأ يتعرض لها فكره فى الآونة الاخيرة من أصحاب اليمين وأصحاب اليسار على حد سواء . واذا كان النقد من اليمين لم يضف جديدا ، بل جاء تكراراً للمواقف السلفية التقليدية التى ترفض أية محاولة للتفسير اليسارى للاسلام ، ولو من داخله ، فان أخطر الانتقادات وأحدثها هى التى جاءت بقلم د. فؤاد زكريا
=

---

(١٥) حنفى ، اليسار الاسلامى ، العدد الاول ١٩٨١ .

(١٦) رسالة دكتوراه قدمها ماريان فان دين بوم الى جامعة أمستردام فى آيار / مايو ١٩٨٤ بعنوان تحرر الانسان فى المنظور الاسلامى .

التراث الوطنى الاسلامى من منظور الايديولوجية التحديثية العلمانية ..
مع عدم القطع بين الماضى والحاضر . بل هى ضمن محاولة تجـديد
الماضى بانتقاء جزء منه .

=
الذى نشر مؤخرا مقالا عن « مستقبل الاصولية الاسلامية »(١٧) حمل فيه بعنف ، وفى خمس وثلاثين صفحة من القطـع الكبير ، على الموقف الاصولى الاسلاموى لحسن حنفى ، آخذا عليه ، من موقع علمانى ، جملة من التناقضات والمواقف المداهنة للفكر الدينى ، واللاغية للعقل النقدى وللعصر ولتوطراته ، والمتعاطفة مع « الصحوة الاسلاموية » التى لا تمثل « مظهرا لمزيد من التقدم فى الوعى الاسلامى ، كما يزعم المنتمون اليها ، وكما يجاريهم كثير من الكتاب ، المحليين والاجـانب ، الذين ينافقونهم لاسباب متباينة .. بل هى ، فى واقع الامر ، بصورتها الراهنة ، مظهر لذلك التخلف الذى ساد العالم الاسلامى ، والعالم العربى بوجه خاص ، فى السبعينات من هذا القرن . فالصحوة هى الانعكاس المباشر للهزائم والاحباطات فى وعى الناس ، وليست رد فعل عليها أو محاولة لتجاوزها . وليس الهروب الى الشعائر الشكلية واغماض العين عن المشكلات المتجسدة فى الحياة الواقعية أو الطاعة العمياء والغاء العقل النقدى أو العودة الى الماضى والتغاضى عن كل ما أتت به قرون عديدة من تحولات وتغيرات ، ليس هذا كله سوى فكر الهزيمة نفسه وانعكاس للاحباط العام الذى ولدته على وعى البشر .. وتعبير مباشر عن بلوغ الانحطـاط الفكرى ذروته .. فالجو العقلى نفسه الذى جعل من ثروت أباظة أديب مصر الرسمى ، ومن أنيس منصور ومصطفى محمود أهم المفكرين والفلاسفة ، ومن أحمد عدوية أكثر الفنانين شعبية ، هو الذى جعل من التطرف الدينى أوسع الاتجاهات انتشارا بين الاجيال الجديدة من الشباب »(١٨) .

---

(١٧) مجلة فكر ، العدد ٤ ، ديسمبر ١٩٨٤ ، ملف عن « الفكر الدينى والفكر العلمانى » ، ص ١٦ — ٥٠ .

(١٨) المصدر نفسه ، ص ٤٩ .

ان هذه المحاولات مهمة ، فهى تلقى الضوء على جوانب من التراث الاسلامى ، وربما تضفى عليه بعض الآراء الاستشراقية التى كانت تقال عن التراث ولكن بدون أن يكون لها دلالة •• وهى وان كانت محاولة تحليلية وضعية فانها لا تفيد الجماهير بشىء •• قد تحمس بعض الشباب لقراءة التراث من منظور خاص يقـول ان البحث عن النزعات المادية لا يشترط الذهاب الى الغرب فقط ، بل قد نجد هـذه النزعات فى التراث الاسلامى نفسه •

ان مساوىء هذه المحاولات أكثر من محاسنها ، وذلك لعـدة أسباب : أولها أنها محاولة للقفز على التراث من الخارج ، أى اسقاط مذاهب خارجية على التراث الاسلامى • مرة ماركسية وأخرى ليبرالية ثم وجودية فقومية فوضعية وظاهراتية • وفى هذه الحالة نسقط على التراث الاسـلامى وجهات نظر غربية وننسى خصـوصية التراث الاسلامى • وبالتالى تنشأ صراعات حول قراءة التراث لا تمت بصلة الى صراعات التراث العربى الاسلامى الداخلية بقدر ما تعبر عن مناهج متباينة اتخذت من التراث ذريعتها للتصارع • ان عيب هذه المحاولات يكمن فى كونها قراءة غربية بمنهج غربى •

أما العيب الثانى فهو فى دراسة جزء من التراث ، اقتطـاعه وتسميته ماديا أو علميا أو طبيعيا أو داروينيا أو تاريخيا ، وتقديم هذا الجزء على أنه التراث • مع أن هذا الجزء يقابله جزء آخر متصارع معه فى حيوية متميزة للتراث الاسلامى • وحتى ما سمى بالنزعـات المادية التى أسماها القدماء بالنزعات الطبائعية أو أصحاب الطبائع أو مدرسة الطبائع أو الطبائعيين مثل النظام والجاحظ ومعمر وثمامة والهشامين •• وكل هؤلاء لا يرون غضاضة على الاطلاق بالايمان بالله

ذاتا وصفات وأفعالا ، علما وقدرة وحياة ، سمعا وبصرا وكـلاما وارادة .. الخ . وفى نفس الوقت يؤمنون بالطبيعة وبقوانين الطبيعة، وبأن القانون ثابت عام شامل ، وان النار تحرق ، وان الثلج يذوب ،وأن الحديد يتمدد بالحرارة ، ويؤمنون بالقوانين العقلية والرياضية ، وان ١ + ١ = ٢ ، وانه لم يحدث أن ١ + ١ = ٥ ، ولم يحدث أن كانت النار قادرة على تبريد الماء بل على تسخينه .. هذه هى قوانين الطبيعة عندهم . فلو قلنا أن الله قادر على أن يجعل ١ + ١ = ٥ أو أن يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا الى آخر هذه الاشياء ، فلن يكون ذلك الا لتبرير المعجزة ، مع ان المعجزات ليست بالضرورة كسرا لقـانون الطبيعة . فعندما كان موسى وعيسى يحاولان صدم الشعور اليهودى لاثبات ان الله قادر بالمعجزات ، كان ذلك باذن الله ، فاليوم ليست لنا حاجة الى كسر قوانين الطبيعة لاثبات الايمان بالله وبقدرته . الاسلام تحدى بالقرآن ان يأتى بشر بمثله وهو تحد خلقى ابداعى فنى فكرى تشريعى ، أما قوانين الطبيعة فهى ثابتة كسنن الله فى الكون .

ان العيب الثانى هذا يكمن فى اقتصار هذه الدراسات على نظرة مادية طبائعية علمية للعالم ، واغفـال مسألة كونها فى صراع مـع نظرة ايمانية أقل علمية ، وهى النظرة الاشعرية التى ترى ان الله قادر على تغيير قوانين الطبيعة ، وقادر على أن يجعل الشمس تشرق من الغرب وتغرب من الشرق . ومن هذا المنظور خرج التيار الآخر العلمى الاسلامى الطبيعى ، ونشأ حوار بين الاثنين كانت نتيجته الحضـارة الاسلامية والتراث الاسلامى . ان العيب فى هذه الدراسات هو عدم رؤيتها للحركة الداخلية فى التراث .

أما العيب الثالث والاخير فهو أن هذه الدراسات لا تخرج عن وسط المثقفين فى اطار الاهتمامات والتجديدات التى تروج بين الحين والآخر فى كل عهد وزمان وتتعدد الى وجودية مرة وشخصانية أخرى وظاهراتية ثالثة .. الخ . ولكنها لا تتحول الى حركة جماهيرية عامة كأفكار الافغانى ومحمد عبده وعلال الفاسى وعبد الكريم الخطـــابى وجمعية العلماء فى الجزائر والطاهر بن عاشور فى تونس . بحث هؤلاء جميعا فى داخل التراث وأخذوا التراث ككل وليس كجزء وفى نفس الوقت كتبوا ليس لجمهرة المثقفين المحدودين فحسب ، بل لحركـــة جماهيرية واسعة ، وتحولت أفكارهم الى جيل ثان وثالث ، بل أصبحت حركة اسلامية ناشطة ومتجددة . أما النزعات المادية فى الاسلام أو من التراث الى الثورة فهما سيبقيان فى أطر محدودة لا تحرك الجماهير ولا تنتقل الى جيل لاحق . وأخيرا فان هذه الدراسات تبقى تغريبية ، غربية ، تأتى من خارج التراث الاسلامى ولا تنبع من داخله ، كما لا تأخذ بعين الاعتبـــار كلية وشمولية التراث الاسلامى وحركتـــه الداخلية ، كما تهمله الجماهير صاحبة المصلحة الحقيقية فى تجـــديد التراث واعادة قراءته .

ــ سؤال : يرى الطيب تيزينى من خلال قراءته للتراث ان هناك ثلاثة مواقف من التراث : الاول هو موقف العصرويين الذين أخذوا فكرهم من خلال تبلور العلاقة بين الغازى والمغزو ، أى المقلد والمقلد . وهؤلاء قد ارتبطوا بالغرب الى درجة انهم ينظرون الى الاصالة وكأنها لغم موجه للمعاصرة ، لذلك رفضوا التاريخ والتراث العربى الاســـلامى رفضا قطعيا ، منهجيا وأخلاقيا . أما الموقف الثانى فهـــو : موقف السلفويين وهم النقيض الكامل للاولين ، والموقف الثالث هو موقف

التلفيقويين الذين يجمعون بين الاثنين ويبشرون بولادة وتبلور البديل المطلوب ، والنتيجة التى يصل اليها تيزينى هى أنه لا اشكالية هناك اسمها الاصالة والمعاصرة ، بل هناك التباسات سلفوية وعصروية وتلفيقوية . ان موقف التيزينى هذا هو جزء من قراءاته الخاصة للتراث ، كيف تقيمون هذا الموقف وما الذى تأخذونه على مشروع التيزينى الفكرى ؟

● د. حنفى : ان هذه التقسيمات ليست جديدة فى شكلها العام ، فهى موجودة وشائعة عند أغلب الدارسين ، وهى لا تعبر عن واقع بقدر ما تعبر عن فكر . لقد قام السيد رشيد رضا فى كتابه « الخلافة العظمى » بنفس الشىء اذ تكلم عن حزب الخلافة أو السلفيين وعن حزب التجديد الغربى أى العصريين ، ثم حزب الاصلاح . ان هذا التقسيم الثلاثى شائع ومعروف لدى الجميع . أما الحكم بأن تيار التجديد الغربى والتيار السلفى جاء كل واحد منهما كرد فعل على الآخر فهو حكم قد وقع ضحية العلمانية ، حكم منقطع الصلة بالتراث ، انه ليس موقفا من التراث ولكنه انكار لهذا التراث ، لا يوجد فى الاساس موقف كهذا ، فحتى لو تفحصنا ذلك عند ما يسمى بفكرنا المعاصر وممثليه : شبلى شميل والتيار المادى الداروني . حتى هؤلاء كانوا يرون فى التراث الاسلامى جوانب ايجابية كثيرة تساعد الامة على النهوض ، وهم لا يقفون كنقيض كامل للتراث .

ان فى فكرنا العربى المعاصر تيارا مقلدا للغرب ، ولقد سبب المغالون فى هذا التيار ردة فعل لدى معارضيهم أساسها رفض لكل ما يأتى من الغرب .. هذا يعنى أنه لولا الحركات التغريبية فى عالمنا الاسلامى لما نشأت الدعوات الرافضة للغرب ، ولا يخرج الامر عن

هذه الحدود • يبقى التيار الذى سماه التيزينى بالتلفيقى • ان من الظلم أن نسميه تلفيقا ، لان التلفيق لا ينتج فكرا أصيلا مبدعا • ان هناك مطلبين ، الاول هو الدفاع عن الهوية ، والثانى مواجهة العصر والدخول فى تحدياته الرئيسية • فاذا كانت المناداة بهذين المطلبين تلفيقا ، فهذا معناه اننا كلنا ملفقون ، كلنا نريد أن نحمى تاريخنا وتراثنا وأن نتطور من خلال التواصل وليس من خلال الانقطاع ، ولا نريد أن نكون تركيا أو بولندا • ان مسؤولية الانسان عن تراثه ومواجهة تحديات العصر ليست تلفيقا بل اجتهاد تقره الشريعة الاسلامية •• مسؤولية من هذا النوع هى أساس الاجتهاد فى العقيدة• ان التلفيق كلمة تحتوى على نوع من الادانة • ان هذا التيار ليس جديدا أيضا فقد سماه رشيد رضا « حزب الاصلاح » وسماه الافغانى « الحزب الاسلامى الوطنى » ونسميه نحن « اليسار الاسلامى » ، ويسميه كثير من الاخوة « الاسلام السياسى » • ان هذا ليس تلفيقا أو توفيقا • فانا مسلمون ، وهذا حكم واقع ، ونحن منفتحون فى الوقت نفسة على قضايا العصر ، وهذا أيضا حكم واقع • ونظرا لسيادة أجهزة الاعلام على التوجيه الاسلامى ونظرا لاننا بقينا مدة طويلة فى عصور تخلف وانحلال فقد تصورنا بأن الاسلام مضاد للتقدم وللعصر ، كما بين ذلك محمد عبده فى كتابه المشهور « الاسلام والنصرانية بين العلم والمدنية » • بسبب هذا الارث الذى ورثناه والذى أدخل فى الاذهان أن الاسلام شىء والتقدم شىء آخر ، نرى اليوم أن أى محاولة لقراءة ابداعية فى الاسلام تأخذ بعين الاعتبار قضايا العصر تهم بالتوفيقية ، وكأنه لا مصالحة ولا تعاون ولا صلة بين الماضى والحاضر، بين متطلبات الهوية ومتطلبات الانفتاح على طبيعة العصر •

أقول اذن كلما استنار العقل وكلما شعر الانسان بأهمية المطلبين

قل حكمه على هذا التيار بأنه تلفيقى • ومع ذلك فهناك من يحاول أن يجمع بين الاسلام وقضايا العصر بطريقة تطعيم خارجى مصطنع ، من خلال تطعيم بعض الجوانب فى الفكر الاسلامى والشريعة الاسلامية ببعض النظريات الحديثة ، فاذا كان هذا هو المقصود ، فانه يستحق أن نقول عنه انه تلفيق •

والحقيقة أن أى محاولة فى الاقتصاد أو فائض القيمة أو الاجر أو السياسة الى غير ذلك تبحث فى التراث عن تأييد لها انما تدل على نقص فى الوعى بالتراث الاسلامى • ففى هذا التراث تستطيع أن تجد كل ما تريده • فاذا كان للانسان دور اصلاحى فى مجتمعه ، فانه لا يحتاج بالضرورة الى منهج جدلى أو مادى ولا الى نظرية فى فائض القيمة ولا فى الصراع الطبقى • واذا أردنا أن نغير الامة وأن نجد أدوات تساعدنا على النهضة والاصلاح ، ففى التراث الاسلامى بكل علومه أدوات ووسائل تساعد على ذلك وتهىء للدخول الى ساحة تحديات العصر •

وبالتالى فكلما زاد وعينـــا بالتراث قلت حاجتنا الى هذا التطعيم• فالتجديد انما يكون من الداخل كمـــا فعل بدافع المسؤولية الامـــام الشافعى وأبو حنيفة ومالك وابن حنبل وكل الفقهاء القدماء وفى ذهنهم الاصول الاسلامية وامام أعينهم القضايا الرئيسية لعصرهم • نجدد ونبدع ونجتهد ، وللاجتهاد نماذج عديدة ، فعندما رأى ابن حزم ضياع المسلمين بالاندلس أصدر فتاوى فقهية فى الارض والعنـــاية بالتجارة ومقاومة العدو ، وعندما رأى ابن تيمية الشىء نفسه لما هاجم التتار العالم الاسلامى وكادت الحضارة الاســـلامية أن تنقرض فى آسيا وفى العراق والشام أصدر أحكاما فقهية شرعية بمحاربة العدو

والدفاع عن الديار . وهكذا ، فكلما وعى الانســـان التراث القديم وزاد احساسه بمشاكل العصر لجأ الى التوفيق أو الاجتهاد . وأنا فى كل مرة أجد اننى بحاجة الى أن أستعير أو أقتبس بعض النظريات الحديثة لاجعل ثقافتى الاسلامية قادرة على مواجهة تحديات العصر، ألجأ الى هذا الاجتهاد . ولقد فعل العلماء القدماء هذا حتى فى مسألة التأويلات للعقائد الدينية ، فلم يروا حرجا على الاطلاق فى الحديث عن الله فى صفاته وذاته وأفعاله بإعتبار أن ذلك كله مجاز وكل ذلك قياس للغائب على الشاهد ، وان الانسان هو الحى المتكلم المــريد بالحقيقة ، وان الله هو قادر حى عليم مريد بالمجاز ، لاننا لم نر الله ولم ندرك صفاته لا بالحس ولا بالتجربة ولا بالعقل ، وشـــتان بين الانسان المخلوق المحدود الميت الفانى وبين الله الذى لا يموت . فكل محاولة لوصفه هى قياس للغائب على الشاهد ، هكذا قال القدماء . اننى لا أحتاج الى هيجل وماركس أو فيورباخ لاكتشاف أن الانسان يصف الله بما يصف به نفسه .

أقول اذن ان التجديد من الداخل وليس من الخارج ، الثقــة بالذات والقدرة على الابداع ، والقدرة على أن يتحمل الانســـان مسؤولية ما تحمله القدماء من قبل ، وانا لسنا نقلة علوم لا من القدماء ولا من الغرب المعاصر ، لكننا مبدعو علوم . وانه فى حقيقة الامر فان النهضة العربية الاسلامية الحالية لن تسير خطوة الى الامام أكثر مادامت تعتبر نفسها ناقلة علم وكأنها تلميذ ينقل من أســـتاذ على الدوام . اننى أؤكد بأن المسؤول الاول عن نشأة الحركات الســـلفية المعادية للغرب هم التغريبيون فى مجتمعاتنا ، انهم هؤلاء الذين يقولون بضرورة تغريب التراث لانهم لا يثقـــون بالتراث ولانهم منبهـــرون بالغـــرب .

— سؤال : يرى د. محمد عابد الجابرى ان اشكالية الاصالة والمعاصرة فى الفكر العربى الحديث والمعاصر لا تعنى بالضرورة وضعا طبقيا ولم تعبر بالضرورة عن مصـــالح طبقية ، وان الفكر يتمتـــع باستقلال نسبى عن الواقع وان الاشكالية فى الحقيقة هى فى جزئها الاعظم ثقافية ، كيف ترون ذلك ؟

● د. حنفى : تكمن أهمية ما يقوله د. الجابرى فى كونه يتجاوز التحليلات الماركسية التقليدية للتراث التى قام بها حسين مروة والطيب تيزينى وصادق العظم وغيرهم . انه يحاول بقدر الامكان أن يبين أن هناك بنية فوقية تتجاوز التحليلات الطبقية ، وان التراث الاسلامى يخترق ما يسمى بالتحليل الطبقى . ان تحليلات الجابرى هذه أكثر أصالة وابداعا وأكثر اتجاها نحو خصوصية المجتمعات التى ندرسها .. ومع ذلك يبقى السؤال ماذا نفعل فى المستوى الثقافى ؟ هنا فقط يبدأ — ربما — نوع من التمايز بينى وبين الجابرى .

ان وجود المغرب كبلد عربى اسلامى قريبا من الغرب وفرنسا بالذات جغرافيا ، جعل تحليلات الثقافة تخضع لكثير من اتجاهات العلوم الانسانية فى الغرب ، كعلم النفس وعلم التاريخ والتيارات الفلسفية الاخرى فى الغرب .. الخ ، ومن ثم اذا ما حللوا الثقافة فانهم يقعون ضحية بعض المفاهيم التى تفرض نفسها فى النهاية على المستوى الثقافى مثل القضية الابستمولوجية (المعرفية) ، مثل القراءة والفصل بين القراءة والمقروء . ومع ذلك تظل أهمية دراسة الجابرى فى كونها تحاول أن تجعل من العقل العربى المعاصر المصب للتراث العربى القديم ، وفى الوقت نفسه البداية للدخول فى التحديات الاساسـية

المعصر • يكفى موقف الباحث مع مجتمعه •• هذا الموقف لا ينفصل عن موقفه كعالم ، وبالتالى يجد المفكر نفسه وقد وحد فى شخصيته بين العالم والمواطن ، بين المفكر والمناضل ، وهذا ما يتميز به الجـابرى باعتباره أحد رواد الفكر العربى المعاصر وفى نفس الوقت أحد المناضلين العرب المعاصرين •

— سؤال : بعد الحديث عن مشاريع حسين مروة والطيب تيزينى ومحمد عابد الجابرى نتطرق الى المشروع الفكرى الرابع وهو مشروعكم لقراءة التراث ، وهو ما يطلق عليه البعض « القراءة من الداخل » الى أين وصلتم فى هذا المشروع وكيف تقيمون بداياته ؟

● د• حنفى : لقد حاولت فى حقيقة الامر — قدر الامكان — أن أبدأ بداية جذرية وألا أتسرع لان فى ذهنى كبوات الحركـات الاصلاحية الحالية منذ ابن تيمية والافغانى ومحمد عبده ورشيد رضا وحسن البنا والجماعات الاسلامية •• الخ • أنا أريد أن أجعل الاسلام حركة ثورية مستمرة وأن نتعلم جيلا بعـد جيل وأن يحدث تراكم للخبرات الاسلامية ، لكى نكون رصيدا ضخما يمكن أن يحدث حركة كبيرة • فالى جوار العرب توجد حركة تمكنت جيلا بعـد جيل من الانتقال من حركة صهيونية ثقافية الى حركة صهيونية سياسية ثم الى تأسيس « دولة » ومنها للانطلاق الى التوسع الى أن وصـلت الى « الدولة الامبريالية » ، وتطرح نفسها اليوم كبديل كلى لدول المنطقة العربية • ان هذا التحدى المتنامى الى جوارنا يدفعنا الى الاسراع النهضة • ولابد من معرفة أسباب كبواتنا المتلاحقة تاريخيا • فنحن فى كل محاولة للنهضة نكبو ، فمحمد عبده أقل من الافغانى ، ورشيد رضا أقل من محمد عبده ، وجماعة الجهاد أقل من الكل ••.الخ • ما

السبب ؟ بالنسبة الى حاولت أن أبدأ منذ البداية : كيف نشــأت الحضارة الاسلامية الاولى • كيف نشأت العلوم : علوم العقيدة ، علوم الشريعة ، الحكمة ، التصوف ، والعلوم النقلية الصرفة : القــرآن ، الحديث ، الفقه ، السيرة ، التفسير ، والعلوم العقلية الصرفة كالطبيعة والكيمياء والرياضيات ، والعلوم الانسانية كاللغة ، الادب ، الجغرافية، التاريخ •• الخ • وكيف استقرت هذه العلوم لانها هى التى مازالت تواجه أجهزة الاعلام والتى يقرأها الطلاب فى المدارس والتى يعلمها المشايخ فى المساجد •

أقول اذن ان التراث الذى كتب ودون من هذه العلوم غلب عليه فى النهاية تيار واحد وهو الذى يسمى بالتيار الاسلامى المحافظ : الاشعرية فى علم العقيدة ، والفقه عند الحنفى أو الشافعى ، وكتب السيرة الكبيرة المعروفة •• الخ • ان هناك تيارا واحدا من تراثنا القديم قد استقر وهو تيار الدولة بعد أن كان لابد للدولة أن تستقر وترفض كل التيــارات الفكرية الاخرى المعارضة مثــل الخوارج ، الشيعة ، المعتزلة • هذه كانت الصورة التى أمامى •• وكان لابد من طرح السؤال التالى : هل من مصلحة المسلمين تأييد الدولة وتأييد أنظمة الحكم والترويج لتراث الدولة كما كان الحال دوما أم لابد من محاولة تقديم آخر ، فكر تراث أقرب الى اذكاء روح المعارضة عند الناس حتى تتمكن من أخذ حقوقها المفقودة •

حاولت اذن النظر الى الازمة التى نعيشها فى هذا العصر وانحسار دور الجماهير وضياع حقوقها ، ومن خلال بحثى فى التراث القديم وجدت الحل فى تراث المعارضة • لكن تراث المعارضة دون وكتب من قبل مؤرخى السلطة ، وهو التراث السائد ، فكان على اعادة كتابة التراث

كله حتى أستطيع أن أحجم تراث السلطة ، وأبرز التيارات العقلانية عند المعتزلة والخوارج ، أو التفاؤلية المستقبلية عند الشيعة . حاولت ذلك وفى ذهنى حال الناس الآن ، الذين لا يزالون يتصرفون وفق ثقافاتهم الاسلامية ، على الرغم من ترويج أجهزة الاعلام الغربيــة لثقافتها ، الا أن الاسلام بقى عميقا فى قلوب الناس . ولكن المؤسف هو أن التراث الذى يعتمدون عليه فى تصوراتهم للعالم هو التراث الذى لا يدافع عن مصالحهم . خذ مثلا أنا . اننى أريد أن أجعـل الناس يفكرون ويعتمدون على العقل ، لكن التراث السائد الذى تعلمناه فى المساجد هو التراث الذى يعطى الاولوية للنقل على العقل . أنا أريد أن أذكى فى الناس روح المسؤولية والاعتماد على النفس ، لكن التراث الذى تعلمناه من المشايخ وأجهزة الاعلام الذى تروجه الدولة هو التراث القــدرى الذى يقــول بأنه مهمــا فعل الانســان فان الله يفعـل ويقــدر لــه كل شىء . انهــا كلمــة حق يراد بهــا باطل ، أنا أريد أن أذكى فى روح الناس المعارضة للحكم ، والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وأن الحاكم يمكن أن يعزل أو يخلع فى الاسلام اذا تهاون فى الدفاع عن البلاد ، اذا لم يحصن الثغور ، اذا لم يدافع عن الحدود ، اذا تصالح مع الاعداء . كل ذلك وارد فى الفقه الاسلامى ، لكن الذى ساد فى المساجد وفى أجهزة الاعلام وفى كتب الفقه هو فى اطاعة أولى الامر ، فأصبحت الثورة جريمة .

أقول اذن كانت هذه هى الصورة التى أمامى ، فأردت أن أعيد كتابة التراث الاسلامى ، حتى يتعرف الناس على أشياء هم فى حاجة اليها ، كى يأخذوا حقوقهم بأيديهم ، فبدأت بعلم العقيدة وسأصدر «من العقيدة الى الثورة» بعد شهر أو اثنين . أحيى فيه العقيدة الاسلامية

من جديد ، وأقول إن الله ليس بعيدا عن قضايا الاحتلال والتخلف والغنى والفقر والهوية والتغريب والوحدة والتجزئة وتجنيد الناس • فالله قريب جدا منك وأنا أريد أن يدافع الفلاح باسم الله عن أرضه ، والفقير يدافع عن قوت يومه باسم الله ، والمظلوم يأخذ من الظالم حقه باسم الله ، حتى يتحول الاسلام الى قلوب الناس من جديد ، الى نشاط وفاعلية وطاقة بدل أن نتركه مختزنا فى القلوب لا يظهر الا فى العبادات والشعائر وفى مواسم الحج التى تخدم فى أحيان كثيرة المركز الاجتماعى للحاج •

اننى أقرأ التراث الاسلامى القديم وفى ذهنى أغلبية الامـة ، الاغلبية الصامتة • معظمنا أمى ، أمى ليس بمعنى القراءة والكتابة ، وانما لافتقادنا الباع الطويل فى الثقافة • أنا أكتب لجماهير الامة ، أى للناس البسطاء فى الامة ، ليس للاقلية المثقفة ، سـواء كانت اسلامية أو غربية ، أكتب وفى ذهنى هؤلاء الناس الذين يريدون أن يظلوا مسلمين ومستقلين ، قادرين على العيش فى مجتمع تسود فيه العدالة والحرية • لا حل أمام المسلمين الا عندما يظهر الله فى قلوبهم لصالحهم وليس ضدهم • فالله سند للفقراء وهو سبيلهم للحصول على الخبز والحرية وعلى الوحدة والتقدم •• والا فان السلطة ستستغل الدين لابقائهم فى ظروف الاستكانة ، حيث تشيع لدى بعض المتصوفة مقولات الصبر والرضا والقناعة والزهد والخوف •• الخ • فهل يا ترى الفقر فضيلة أم رذيلة ؟ وهل الغنى فضيلة أم رذيلة ؟ ان القرآن الكريم يقول فما أصبركم على النار • ونحن فى نار ، نار الاحتلال والخوف والتخلف والهزيمة والضياع ، نار التشتت ، فكيف أدعـو الناس الي الصبر والتصوف والقناعة ؟ كيف أقتنع بمجتمع يقوم على

السلب والنهب ؟ اننى أعيد بناء علوم التصوف ، وأحول القيم السلبية الى قيم ايجابية للحفاظ على الحقوق والدفاع عن المساواة الاجتماعية واقامة مجتمع يكون العمل وحده هو مصدر القيمة .. الخ .

نفس الشيء ينطبق على مسألة تطبيق الشريعة الاسلامية .. ان الشريعة أتت دفاعا عن الحقوق قبل أن تكون التزاما بالواجبات ، فلا يوجد قانون ولا حد الا فيهما دفاعا عن النفس وعن العقل وعن المال وعن العرض والشرف .. الخ . فلم يوضع الناس من أجل القانون ، ولكن القانون والشريعة وضعا من أجل الناس.وبالتالى فتطبيق الشريعة الاسلامية فى بعض البلدان هو كلمة حق يراد بها باطل ، فليس الهدف من الشريعة هو تخويف الناس والقتل وقطع اليد والرجم .. الخ ، وكأنه لا يوجد فى الشريعة سوى الشرطة والعسكر والجند والارهاب . وبذلك يضعون الاسلام كوسيلة للضغط الاجتماعى وليس للتغيير الاجتماعى والمطالبة بالحقوق . وهكذا تستخدم قوانين تطبيق الشريعة كأسلحة للقهر . فالذى يفترض أن تقطع يده ليس هو السارق لرغيف الخبز بل سارق الملايين ، والذى يرجم ليس هو الانسان العادى وأجهزة الاعلام مليئة بالاثارات الجنسية ، لكن مسؤول الاعلام . اننى أحاول أن أعيد بناء ما هدموه ، وأستخرج من الشريعة أحكاما موجودة فيها ، حتى يكون هناك تواصل بينى وبين القدماء ، وحتى تستطيع الامة أن تجد فيها دفاعا عن مصالحها .

الامر نفسه يتكرر فى مسألة الحكمة والفلسفة ، فبدلا من البحث فى الاشراق والعقل الفعال والاتصال بالعقل الفعال والاطمئنان بالقلب والسعادة فى الرؤية الالهية ، وكل هذه التصرفات الاشراقية ، بحيث اننى لو زرت جنوب السودان لوجدت ان الاسلام هناك هو الطرق

الصوفية حيث تترك الارض الخصبة والمياه لكى يستصرخ الناس وهم يتراقصون ليلا اتحادا بالله وتوحيدا به • من كل ذلك أحاول أن أعطى الناس مجموعة من الكتابات الاسلامية تدفعهم للعمل والتقدم ، كيلا يتهموا الاســلام بالرجعية ويلجأوا الى الغرب بحثــا عن حلول فى الماركسية أو الليبرالية أو القومية أو الوطنية • ان الاسلام قــوة وطاقة محركة باتجاه النهضة ، اسلام الشعوب المستضعفة ، الاسلام الحقيقى ، ليس اسلام الملوك والسلاطين والامراء وناهبى أمــوال المسلمين •

اذن فمشروعى يهدف الى الاصالة ، الى اعادة الحيوية للحركة الاصلاحية •• التى ربما اقتربت هذه المرة من الاعتزال ، صحيح ان محمد عبده يقول أن الانسان حر ويختار ما يريد ومسؤول ، وعقله قادر على التمييز بين الخير والشر والحسن والقبيح ، لكن أحدا لم يحاول أن يتجزأ أكثر ، أن يعيد تصور العقيدة الاسلامية وفى ذهنه تحرير الارض وتوحيد الامة وتحقيق العدالة الاجتماعية والقضاء على الاستبداد والقهر •• الخ • اننى أريد اسلاما ينفع الناس • ولربما لو عشت بعد مئة سنة لقلت شيئا آخر ، ولو عشت قبل مئة سنة لقلت أيضا شيئا آخر ، ولو عشت فى عصر الغزالى لكتبت احياء علوم الدين • لكننى الآن لا أكتب احياء علوم الدين ، أكتب احياء علوم الدنيا لان الامة بحاجة الى علوم دنيا •• الى صناعة وتجارة وزراعة وأجهزة عسكرية •• الخ • ان مشروعى هو اعادة التراث وبنــاؤه بحيث لا ينفصل الانسان وهو يقرأ تراثه عن ماضيه ويهرب الى الغرب •

ذلك هو البعد الاول فى مشروعى أما البعد الثانى الذى أرجو أن أبدأه قبل أن تنقضى عشر سنوات وهو دراسة الغرب وتحجيمه طالما

أن الغرب فارش ذراعيه يضمنا نحوه ونحن ننهل منه ، طالما أن موقفى من الغرب مستلهم من موقف التلميذ من الاستاذ . انه المدرس الابدى وأنا التلميذ الابدى ، فان أردت أن أعرف فطبقا للاوانى المستطرقة يأتى العلم منه . وأنا لا أتعلم شيئا اذا كان معدل انتاج الغرب أسرع بكثير من معدل استهلاكى . فمهما حاولت اللحاق به فستتسع الفجوة باستمرار وسأجرى وراءه لاهثا ويصيبنى ما يسميه الغربيون بالصدمة الحضارية . أريد اذن تحجيم الغرب ورده الى حدوده الطبيعية . فأنا أستطيع أن أتعلم ليس من الغرب بالضرورة ، قد أتعلم من الشرق، قد أتعلم من نفسى ، من واقعى .. الخ ، أريد أن أعيد كتابة التاريخ الغربى باعتباره احدى الحضارات المحلية ، صحيح انه استفاد من تجارب الهند والصين وفارس ومصر واليونان والتراث الاسلامى . لكنه ورث كل ذلك ونسبه الى نفسه واعتبر نفسه ناشر الحضارة العالمية ، وعلينا جميعا أن ننقل منه . فعلى الرغم من تحررنا منه عسكريا وسياسيا ، فاننا لم نزل تابعين له اقتصاديا وثقافيا . أريد أن أجعل المفكر الاسلامى عندما يفكر فى الاقتصاد لا يحتاج الى ماركس وآدم سميث وريكاردو ، عليه أن يبدع وأن يفكر وأن يقرأ القديم والجديد ، أن يعتمد أساسا على قدرته الابداعية .

البعد الثانى من مشروعى هو اعادة كتابة تاريخ الغرب وجعله تراثا محليا ، حتى نتمكن من رؤية تاريخ الانسانية . فكل حضارة ساهمت بقسطها فى تراث الانسانية . أريد أن أتعلم من جديد من حضارات الصين واليابان والهند وفارس . وهذه الحضارات التى بالرغم من قربنا منها وحداثتنا بالاستعمار الغربى منذ القرن الماضى ، فقد نجح الغرب فى أن ينسينا اياها ، فى أن ينسينا بعدنا الشرقى ،

فنسينا أن الاسلام انتشر أول ما انتشر فى الشرق ، وان سكان الملايو والفلبين مثلا عندما يتحدثون عن الصحابة الاوائل فانما يعتبرونهم أبطالهم الوطنيين ، وتراثهم الذى يفخرون به • اذن فأوربا وأمريكا ليستا هما البعد الانسانى الثقافى الوحيد للعالم الاســلامى ، بل بالعكس ، فالشرق الذى يضم الهند واليابان والصين يشكل ثلاثة أرباع البشرية • وبالتالى فان تحجيم الغرب واكتشاف الشرق واعادة كتابة تاريخ البشرية بشكل منصف بحيث يقضى على المركزية الاوربية ، ربما قد يعطى بديلا آخر وهو عودة المركزية الاسلامية من جديد • فأنا لست فى العصر الوسيط ، وما كنت فى العصر الوسيط ولا العصر الحديث• بل أنا فى القرن الخامس عشر الهجرى ، قبلى سبعة قرون من النهضة ، ولكن السبعة قرون التالية قد توقف مد النهضة ، ولكن قد تكــون السبعة قرون الثالثة (من القرن الخامس عشر الهجرى حتى القرن الثانى والعشرين) بداية نهضة جديدة •

ـــ سؤال : تبدو محاولتكم تحجيم الغرب وكأنها بداية لعملية يمكن تسميتها « بالاستغراب » فى مقابل ما يسمى « بالاستشراق » • هل تقع محاولتكم هذه ضمن هذا الاطار أم أنها محاولة الانقطاع عن الغرب والانفتاح على الشرق بهدف تحصين الذات من عدوى الهيمنة الثقافية ، وربط هذه الذات بجذور وأصول وعمق استراتيجى حضارى يوفر لها المناعة التى تلزمها لمواجهة تحديات العصر ؟

● د• حنفى : اننى أحاول قدر الامكان أن أحول هذه العملية الى علم ، فكما كان الغزالى يقول : سأعلم الفلاسفة فى كتابى « مقاصد الفلاسفة » ما لم يتعلموه ، فالمسلم لابد أن يتعلم الفلسفة مثــل الفيلسوف ، وأن يعرف المنطق مثل المنطقى وأكثر • وأنا دارس للفلسفة الغربية وأحد المتخصصين فى الدراسات المسيحية ، وأستشار كثيرا فى

نصوص الانجيل : ويسألنى الغربيون هل هذه كلمة صحيحة فى الانجيل أم لا ؟ ولى الخبرة والمعرفة التى تؤهلنى للحكم بأن هذه الكلمة قالها المسيح أم لا ، والشىء نفسه يتكرر فى التوراة •• وأنا متخصص أيضا فى الفلسفة المعاصرة • لذلك فأنا أعرف الغرب جيدا ، وبعد أن أنتهى من اعادة كتابة التراث الاسلامى سأحاول أن أعيد كتـــابة التراث الغربى ، معطيا له حقه وليس أكثر لاننا أعطيناه أكثر مما يستحق ، وأعطينا أنفسنا أقل مما نستحق •

أما البعد الثالث فى مشروعى أو المرحلة الاخيرة فسوف أخصصها لتفسير القرآن تفسيرا موضوعيا ، ليس تفسيرا معتادا طويلا يبدأ بالفاتحة حتى سورة الناس ، ولكن تفسيرا بحسب الموضوعات يجمع مثلا كل الآيات التى تبحث فى الانسان ، فى الارادة ، فى العقل ، فى المجتمع ، فى التاريخ ، وكان هذا العمل هو هدف أساسى لعمل الشهيد محمد باقر الصدر ، فقد كان له تفسير موضوعى • وأنا أريد الشىء نفسه ، أنا معجب بفهرس ألفاظ القرآن ولا يفارقنى أبدا • وسأعطيك مثلا على أهمية التفسير الموضوعى للقرآن الكريم ، فقد طلبت منى الجمعية العلمية السويدية أن أشارك ببحث فى حملة حماية البيئة من التلوث ، فبعد محاولات هذه الجمعية ومراكز البحث السويدية ايجاد حل بدون جدوى اتجهت فى نطاق البحث نفسه الى حملة عالمية حيث طلب من علماء من الصين واليابان وأمريكا ، كما طلبوا منى ، أن أساهم فى الحملة هذه وأجيب عن سؤال مفاده : هل يمكن أن تساهم الحضارة والثقافة فى حماية البيئة ؟ ولقد جاءتهم عدة بحوث من بينها بحثى الذى يركز على مفهوم الطبيعة فى الثقافة الاسلامية ، فقمت بتفسير موضوعى للقرآن الكريم وأخذت كل ألفاظ الطبيعة : نبات ، حيوان ،

أرض ، سماء . وحاولت قدر الامكان أن أصف صورة الطبيعة فى القرآن الكريم . كان بحثا فى مائة صفحة ترجم الى كل اللغات حتى الهولندية والسويدية . ولاول مرة تدرك الجمعية بأن حضارة يمكن أن يكون لها تصورها الخاص للطبيعة ، تصور يحميها من التلوث ، لان الطبيعة بالنسبة لنا من صنع الله وخلقت للانسان الذى عليه أن يحترمها ويحميها من العوادم ومن كل ما يسىء لصورتها العامة وجوهرها .. أقول اذن بأن المرحلة الاخيرة من مشروعى ستكون مخصصة للتفسير الموضوعى للقرآن الكريم واضعا فى اعتبارى كل مشاكل العصر .. ان تفسيرى سيكون نفسيا أدبيا اجتماعيا تاريخيا يحاول أن يعطى قدر الامكان نظرية اسلامية أو بداية الايديولوجية الاسلامية انطلاقا من تحليل الالفاظ فى القرآن الكريم .

— سؤال : السؤال الاخير سيكون حول مجلتكم التى أصدرتم عددا واحدا منها وتوقفت وهى « اليسار الاسلامى » أين هى وهل من أعداد فى الطريق ومتى ؟

● د. حنفى : فى حقيقة الامر فقد أحزننى جدا كونى لم أتمكن من اصدار الاعداد الاخرى ، وقد كان حرصى على العدد الاول يدخل ضمن اعلان بداية فكر اسلامى ثورى تقدمى حضارى ، فالاسلام السياسى ليس فقط على مستوى البحث العلمى الطويل ولكن أيضا على مستوى الحركة الجماهيرية . و « اليسار الاسلامى » هو المنبر أو لسان حال التراث والتجديد جماهيريا ، بلغة أسهل وبحماس أكثر ، وربما بجوانب عاطفية . لم يكن اسم « اليسار الاسلامى » جديدا ، ولم يكن أمامى بديل ، هل أقول العروة الوثقى الجديدة ، أو الاسلام المجاهد ، الاسلام النشط ، الجهاد ، الدعوة ، المنار ، النور ، الهداية .

وكلها أسماء استخدمت سابقا . بعض الاخوة فى الحركة الاسلامية يعترض على تسمية « اليسار الاسلامى » ، الا أن الاسم يبـدو جماهيريا . فهناك الشباب المثقف الذى يريد أن يكون يسـاريا وفى الوقت نفسه اسلاميا ، وكلمة اليسار لها بعض السحر عند الشباب فى الجامعات ، وهى كلمة ليست جديدة ولكنها فعالة .. ان مهمة المجلة هى احياء العقيدة فى قلوب الناس ، والتأكيد على أن الإسلام أكبر بكثير مما يتصورون ، أكبر من العقائد والشعائر ، وأكبر من الممارسات اليومية والذهاب خمس مرات يوميا الى المساجد والذهاب الى الحج . الاسلام حليف المواطن فى الدفاع عن مصالحه يسترشد به فى قضايا الفقر والحرية والتوحيد والتحرر والثقافة . الاسلام يحافظ على الهوية ضد التغريب وهـو عامل تجنيد الجماهير فى بلاد الاسـلام المترامية . لتكون حركة اسلامية عامة يمكن أن تنضم اليها التيارات السياسية ، فالاسلام كان قادرا على أن يوحد فى داخله العلمانيين والماركسيين والمثقفين والليبراليين . ان « اليسار الاسلامى » يدعو لجبهة وطنية عريضة تضم الجميع .

أما لماذا تأخر العدد الثانى عن الصدور برغم طول الانتظـار فالاسباب كثيرة ، فنحن نحاول أن نقدم مجلة يكتبها مسلمون ثوريون من كل أرجاء العالم الاسلامى ، تهيء لتقديم نظرية اسلامية ثورية . وقد تمكنا من جمع مادة ثورية مهمة جدا ومعى الآن مادة الاعـداد الثانى والثالث والرابع ، ولا نحتاج الا بعضا من الوقت وبعضا من المادة كى نصدر هذه الاعداد ..

ب ـ حوار حول الفكر الاسلامى :

● **الديمقراطية فى الفكر أو لا ...**

● **الحاكم الواحد ... والتفسير الدينى الواحد هما سبب أزمة الفكر وغياب الحوار .**

● **حضارتنا قامت على الحوار المتبادل واختلاف الائمة .**

● **الدين ... والسلطة ... والجنس . ثالوث مقدس محرم علينا التفكير فيـــه !**

● تصورك لنوعية الاخطار التى تواجه فكرنا العربى المعاصر ؟

● ان أهم الاخطار التى تواجه فكرنا العربى المعاصر هـــو « أحادية الطرف » أعنى سيادة الرأى الواحد وغياب الحوار بين

جريدة الشعب الاردنية ٧٧/٧/٢٢ العدد ٥٠٠ وقد صدرت الجريدة الحديث بالفقرة الآتية :

هو واحد من جيل المفكرين العرب الشباب المهمومين بقضايا الواقع العربى فكراً وفعلا .. الحالمين بخلق حضارة عربية جديدة تجمع بين الوحدة للامة والحرية لانسانها والعدالة لشعوبها .

آثر ككثيرين من ابناء جيله أن ينغمس فى لحم الواقع الحى ولا يهرب الى الاكاديمية ناشدا السلامة .. ولكنه جعل من دراساته الاكاديمية وسيلة للمشاركة فى هموم الواقع اليومى . فالقادر على تغيير الواقع بالفعل هو القادر على التنظير له . هذا ما يؤمن به المفكر العربى الدكتور حسن حنفى أستاذ الفلسفة الاسلامية بجامعة القاهرة .

. والذى يساهم منـــذ اكثر من عشر ســـنوات بمقالاته ومحاضراته ومحاولاته مع كثيرين من جيله فى العمل من أجل عصر تنوير عربى جديد ، ولعل تخصصه فى الفلسفة الاسلامية كاد أن يصيب حوارنا معه ببعض الحساسية والتردد ولكننا أمام جدة أفكاره وأصالتها وأمام شجاعته العقلية ــ لم نلبث أن تركنا الحساسية جانبا لنخوض معا فى حديث طويل عن الفكر والدين والسياسة والواقع والثورة والحلم .

الاتجاهات الفكرية المختلفة حتى أصبح كل من يخرج على المألوف متهما بالكفر أو الالحاد أو الخيانة أو العمالة . فالديمقراطية ليست فى الانظمة السياسية وتعدد الاحزاب وحدها بل هى أولا فى الفكر أى القدرة على ايجاد البدائل لما هو سائد والتعبير عن الرأى الآخر ، والاخطر من ذلك أن يكون ذلك الرأى تبريرا للسلطة وتابعا لها ، يتم التعبير عنه بأسلوب انشائى خالص لا يعبر عن شىء بقدر ما يعبر عن انفعالات السلطة وأهوائها .

● ما هى الاسباب التى نتجت عنها أزمة الفكر ؟

● لقد نتجت أزمة الفكر عن احتواء السلطة السياسية لجميع مواطن الفكر ، وعدم التمييز بين السلطة السياسية والحرية الفكرية ، فقد ظنت السلطة أن الحرية الفكرية موجهة ضدها ، نظرا لعـدم شرعيتها ، وعدم تعبيرها عن القواعد الشعبية العريضة وعن مصالح الجماهير . ولقد ساعدت السلطة الدينية السلطة السياسية فى ذلك عن طريق فرض التفسير الواحد ، وتكفير كل ما عداه ، فالحـاكم السياسى الواحد والتفسير الدينى الواحد هما سبب أزمة الفكر المتمثلة فى أحادية الطرف وغياب الحوار .

● ما هى مظاهر الازمة فى حياتنا العربية العامة أو الخاصة ؟

● تظهر هذه الازمة فى حياتنا العامة فى غياب الترشيد الناتج عن سيادة العقل ، فما زلنا نتعامل مع الواقع بالعمل اليدوى وبالعضلات دون ترشيد للعمل أو للسلوك مما سبب الفوضى فى حياتنا الخاصة فى المواصلات واصطدام الصاعد بالنازل وفى عدم احترام قواعـد المرور ، وفى غياب التخطيط فى حياتنا العامة . كما تتمثل أيضا فى عدم الاحساس بالزمان حتى أصبح شعبنا العربى يضرب به المثل

للزمان الضائع . فلا تفرق فى حياتنا الساعات أو الايام أو الاسابيع أو الشهور أو السنوات ، لقد عرف عنا عدم الدقة فى المواعيد ، وعدم تحديد ساعات الزيارات ونكتفى بعبارة — أبقى أفوت عليك — دون تحديد موعد ، وعدم التمييز بين أوقات العمل وأوقات الراحة ، فنستحريح ونحن نعمل ، ونعمل ونحن نستريح ، حتى خلطنا بين الحياة العامة والحياة الخاصة ، ولم نميز بين الجد والهزل . لم نحسب الوقت بمقدار ما ننتج فيه حتى أصبح انتاجنا القومى محدودا بأقل من ربع الوقت اليومى ، وأصبحنا نضيع من الزمان أكثر مما ننتج فيه كما هو الحال فى البطالة المقنعة لدى بائعى الارصفة ومتسلقى المركبات ، وفى العمالة الزائدة فى دور الحكومة .

● ما موقف التفكير الاسلامى والفلسفة الاسلامية من حرية الفكر ؟

● لقد قامت حضارتنا القديمة التى نعجب بها ونفخر على حرية الفكر وعلى الحوار المتبادل بين الاتجاهات الفكرية المختلفة التى ظهرت فى الفرق الكلامية . كان الشيخ يسند ظهره الى عامود المسجد ويدرس ثم يعترض الطلاب ويحاورون شيخهم أو ينفصلون عنه ويكونون حلقات أخرى حول الاعمدة المجاورة . وفى الحديث : اختلاف الائمة رحمة بينهم . وقد كانت كلها اتجاهات شرعية لم يتهم أحد فيها الآخر كما نفعل نحن هذه الايام بتوزيع اتهامات الكفر والخيانة . وفى الحديث : أصحابى كالنجوم فبأيهم اقتديتم اهتديتم . كان هناك خلاف بين الصحابة ، وكان الرسول يقول لعمر : ارفع قليلا ، ويقول لابى بكر : انزل قليلا . فقد كان أبو بكر أكثر التصاقا بالفكر على حساب الواقع ، وكان عمر أكثر التصاقا بالواقع على حساب الفكر ، وكلاهما موقف شرعى . وهو ما يحدث فى حياتنا هذه الايام من خلاف

بين الاتجاهات الاسلامية والاتجاهات الاشتراكية ، الاولى ألصق بالفكر والثانية ألصق بالواقع . ولكننا لسوء الحظ تركنا هذا النموذج وأخذنا بنموذج آخر بناء على حديث الفرقة الناجية : ستتفرق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها فى النار ، الا واحدة ، وهى ما عليه أنا وأصحابى ، واعتمدنا على ذلك فى تكفير كل الاجتهادات والدفاع عن رأى واحد هو رأى السلطة الدينية والسياسية ، رأى الحكومة .

● هل وصل العقل العربى يوما الى درجة التحرر ؟

● بالطبع نعم . فقد استطاع العقل الاسلامى فى تراثنا القديم أن يصل الى أقصى درجات التحرر ، خاصة عند المعتزلة ، المفكرون الاحرار فى الاسلام فى أصلى التوحيد والعدل . فقد استطاع التنزيه أن يقضى على كل مظاهر التشبيه والتشخيص التى مازالت سائدة فى عقليتنا اليوم . فنحن لا نفكر الا بضرب الامثال والاشباه . كما اننا نشخص الافكار والنظم ، ونؤرخ لحياتنا بأسماء الاشخاص ، ونعرف مؤسساتنا بأسماء المديرين . كما استطاع المعتزلة اعطاء الاساس الخلقى للتوحيد ، واعتبار الصفات الالهية مبادىء للسلوك ، ومثلا للحياة الفاضلة ، وغايات يقوم الانسان بتحقيقها . كما أعلن المعتزلة حرية الانسان ومسؤوليته عن أفعاله ، واعتبروا العمل وحده مصدر القيمة ، وهو ما عرف باسم الاستحقاق وليس ما نحن فيه الآن من قدرية وتواكل وتسليم بالمحتوم ورضا بالمكتوب . واحترموا الطبيعة وقوانينها ، وجعلوا هذا العالم يسير نحو غاية وهدف ، هو الاصلح للبشرية أى التقدم المستمر نحو الافضل . كما جعلوا العقل أساس النقل فكل من يقدح فى العقل يقدح فى النقل ، وليس كما نفعل الآن من هدم للعقل واعتماد مطلق على « قال الله ... وقال الرسول » ، وتكييف واقعنا وحياتنا طبقا للنصوص واستمداد طبنا من حديث

جناحى الذبابة ، كما جعلوا الامر بالمعروف والنهى عن المنكر أساس العلاقات الاجتماعية ، وصلة الحاكم بالمحكوم ، وليس كما نفعل نحن من تبرير لقرارات السلطة أو خوف من ارهابها أو حرص على الارتزاق منها •

● لماذا تم تصفية الاتجاه العقلانى فى الفلسفة الاسلامية وكيف ؟

● لقد تمت هذه التصفية فى القرن الخامس الهجرى بعد هجوم الغزالى على العلوم العقلية وعلى رأسها المنطق والفلسفة ، والدعوة الى التصوف والعلوم القلبية ، وهو ما نحن فيه حتى الآن • كما حدث أيضا أن سادت الاشعرية بعد القضاء على المعتزلة فى نهاية أيام المتوكل ، فورثنا التصوف والاشعرية وسادا فى حياتنا اليومية وفى معاهدنا الدينية حتى الآن ، حتى أصبح الرقباء فى حياتنا على ما نقول وما نفعل • ولما كان كلاهما يقوم على الانقياد والتسليم فقد وجدت السلطة السياسية منذ العصر المملوكى والتركى فى هذين التيارين أكبر دعامة للحكم المطلق ، فالانقياد والتسليم فى الدين يؤدى الى الطاعة والولاء فى السياسة •

● هل الأزمة فى الفكر الاسلامى نتيجة لغياب المنهج العلمى فى تناول القضايا الفكرية ؟

● اننا نروج هذه الايام لكلمتى العلم والتكنولوجيا وكأنهما مفتاحان سحريان سندخل بهما عالما آخر • لقد تحولا الى أسطورة مضافة الى أساطيرنا • والحقيقة أن العلم خطوة تالية للعقل ، والعقل يقوم أساسا على الاستقلال عن كل ما سواه من سلطة دينية أو سياسية • تتلخص الازمة اذن فى غياب المنهج العقلى الذى هو أساس التصور العلمى للعالم • فاللاعلمية فى حياتنا ترجع أساسا الى

اللاعقلانية . ولقد استطاع علماؤنا قديما تأسيس العلم نظرا لمعرفتهم بوظيفة العقل وكيفية استعماله ، والعقل يشمل الحس والتجربة والتاريخ معا . ان ادخال آلة فى القرية يدخل فيها البرتقال من ناحية وتخرج منها المعلبات من ناحية أخرى قد تقوم بنفس وظيفة الضريح القادر على اجراء المعجزات .

● ما هو دور الفكر الدينى الموجود فى الحجر على حرية الفكر والابداع ؟

● هناك أنماط عديدة من الفكر الدينى : هناك فكر دينى يبدأ من النص . وتكون وظيفة العقل فيه شرح النص وتبريره ثم تكييف الواقع حسب النص ، وهو الفكر السائد فى حياتنا . وكانت النتيجة أن وقعنا فى الغيبيات وفى التفكير فيما يضر ولا ينفع ، كما ادنا الواقع وخرجنا عليه وعاديناه وحكمنا عليه سلفا بالكفر والالحاد . كما أن هناك فكرا يقوم على الايمان بالمقدسات والتسليم بها دون تفكير أو تحليل ثم تتحول هذه المقدسات الى محرمات . وهذا سائد أيضا فى عقليتنا المعاصرة . فقد حرمنا التفكير فى الدين وفى السلطة وفى الجنس. فتحولت الى مقدسات وأصبحت ــ تابو ــ كما يقول علماء الاجتماع بوجه سلوكنا اليومى ترغيبا مرة وترهيبا مرة أخرى . وهناك فكر ثالث يقوم على الخطابة والوعظ والارشاد والعنتريات التى ما قتلت ذبابة ، منطق الناى والربابة على ما يقول أحد شعرائنا ، وهو الفكر السائد فى مساجدنا فى خطب الجمعة والاعياد ، فنعيش حالمين داخل المساجد ثم نخرج الى الحياة العامة ، فنصطدم بها ونعانى منها . وهناك فكر يقوم على الجدل والمحاجاة وعلى الهجوم على بعض النظريات والدفاع عن البعض الآخر أما الواقع نفسه فلا يتحدث عنه أحد ، وهو سائد أيضا فى حياتنا . فما أكثر ما كتب عن الاسلام

والاشتراكية فى بلد متوسط الدخل القومى فيه للفرد الواحد مائة جنيه سنويا • وما أكثر ما كتب عن الاسلام والعلم فى بلد مازالت يظهر فيه القديسون والاشباح !

● ما هو طريق الخلاص لازمة فكرنا العاصر ؟

● طريق الخلاص هو ايجاد البديل ، فهناك فكر دينى آخـر يقوم على العقل ، كما هو الحال عند علماء أصول الدين من المعتزلة أو يبدأ بالواقع كما هو الحال عند علماء أصول الفقه من المالكية ، فالعقل هو سبيل الترشيد فى حياتنا • والاجتهاد ، أخذا فى الاعتبار واقع المسلمين الحالى ، هو وسيلة التقدم ، وهو ما سماه محمد اقبال مبدأ الحركة فى الاسلام •

● من نحن « وما هويتنا » ؟

● لقد مر خوالى قرنين من الزمان منذ حركاتنا الاصلاحيـــة الحديثة ولم نستطع بعد الاجابة على سؤال الهوية : من نحن ؟ ويمكن ذلك بتحديد موقفنا الحضارى ويتلخص فى ثلاثة محـــاور : الاول مسؤوليتنا عن التراث القديم الذى مازال يؤثر فينا بمفاهيمه وقدراته وقيمه ، فما نحن الا تعبير عنه وتراكم له • والثانى متاخمتنا للتراث الغربى منذ عدة أجيال ، وضرورة تحديد علاقاتنا به التى مازال يغلب عليها طابع الترجمة لاعماله ، والعرض لنظرياته ، والتجميع لمذاهبه ، والدعوة لها ، حتى أصبحنا مجرد وكلاء للغرب فى ثقافتنا المعاصرة ، وهو أثر من آثار الاستعمار الثقافى الذى مازال سائدا حتى الآن • والثالث وجودنا فى واقع خاص ، واحساسنا بأزمة طاحنة ، ومواجهتنا بقضايا العصر المصيرية وعلى رأسها الاحتـــلال والتخلف ولامبالاة الجماهير • فنحن نوجد فى ملتقى هذه المحور الثلاثة فهويتنا ليست

دينية أو فقهية أو لغوية بل حضارية خالصة تتحدد بتحمل المسؤولية التاريخية لجيلنا المعاصر •

● الى أين ؟ أزمة الرؤيا المستقبلية أو غياب اليوتوبيا ؟

● ان أزمة رؤيتنا المستقبلية تنشأ من عدم احساسنا بالتاريخ ، فقد غاب البعد التاريخى فى تراثنا القديم نظرا لسيطرة الالهيات عليه • فقد كان التاريخ جزءا من الطبيعة تسيرها الارادة الالهية • ولم تتعد تحليلا للتاريخ وقصص الانبياء ، وأخبار الاولين فى الحوليات التى تؤرخ لحياة الملوك والامراء أو علم الحديث أو الرواية ، وهو تارخ النصوص أو تاريخ لفرق تكفر صاحبة السلطة فيها جميع الفرق الاخرى • وبالتالى ضاعت حركة التاريخ ، أو تاريخنا خارج العالم فى مدن فاضلة يعشقها الانسان بالتمنى • بل ان ابن خلدون ، فيلسوف تاريخنا ، قد جعل الماضى أفضل من المستقبل ، وجعل البداوة أعلى من الحضارة ، فالتاريخ يتقدم الى الوراء ، وعصرنا الذهبى فى الخلف وليس الى الامام • فكيف نفكر فى مستقبلنا ونحن نعيش فى ماضينا ؟ وكيف نفكر فى التاريخ ونحن نعيش خارج التاريخ ؟

● هل كانت هناك فترات نهضة فى تاريخنا العربى وتم اجهاضها ؟ ولماذا حدث ذلك ؟

● نحن نعيش عصر الاصلاح الدينى منذ ابن تيمية وابن القيم ومحمد بن عبد الوهاب عن طريق المنهج السلفى • ومنذ الكواكبى والسنوسى والافغانى ومحمد عبده ورشيد رضا ومحمد اقبال وسيد قطب بالمنهج الاجتماعى ، فالاصلاح الدينى سابق على عصر النهضة ، اذ الاصلاح محاولة لاعادة تفسير القديم ورؤيته من جديد حتى يمكن الخروج منه الى الجديد ، وهو النهضة • الاصلاح اذن شرط النهضة ،

ونحن لم نستثمر بعد كل امكانيات الاصلاح الدينى ، فقد ظل اصلاحنا الدينى القديم محدود الاثر لا يتعدى الوعظ والارشاد والتربية . مهمتنا اذن تحويل الاصلاح النسبى الى اصلاح جذرى باعادة تفسير العقائد من أجل تغيير سلوك الناس . واعادة النظر فى التشريع من أجل العثور على نظام اجتماعى يحقق مصالح الاغلبية ، وتحويل الدين كله الى أيديولوجية ووضع أسس للاهوت التحرر ، ولاهوت المقاومة ، ولاهوت الارض ، ولاهوت التنمية أى ما يسمى باللاهوت السياسى ، أى اعادة تفسير الدين بما يخدم مصالح الجماهير العريضة ولمواجهة القضايا المصيرية للبلاد .

● ما الموقف من قضية التراث أو الاتجاه الى التيار الغربى ؟

● هذا السؤال نفسه يحتوى على الاجابة التى تعبر عن أزمتنا الحالية ، اذ يغلب على موقفنا الحضارى ، اما الرجوع الى الماضى ، فلا يصلح آخر هذه الامة الا ما صلح به أولها ، وهو ما يحدث فى حياتنا اليوم باسم السلفية والمحافظة القائم على منهج التقليد والتبعية للقديم ، واما تقليد الغرب والتبعية له باسم التجديد حتى لقد ظللنا ننتقل أكثر من مائتى سنة ، ومازلنا حتى الآن مما طبع فكرنا القومى بطابع التجميع والعرض ، فقد طالت الترجمة أكثر من اللازم على خلاف ترجمتنا القديمة عن اليونان التى سرعان ما أعقبها التأليف . والموقف واحد وهو التقليد والتبعية للمنقول مرة من تراثنا القديم ، ومرة من التراث الغربى المعاصر . ولكن أين الحاضر ؟ أين واقعنا الحالى ؟ أين قدرتنا على مواجهة قضايا العصر ؟ أين تنظيرنا المباشر للواقع ؟ أين تحويل واقعنا نفسه الى فكر ؟ هذا لم يتم بعد وتلك هى أزمتنا

● هل تمكن النموذج الكوبى والفيتنامى من التخلص من أزمة العقل ووصل الى درجة التحرر ؟

● ان لكل حضارة مسارها الخاص ، ولا يمكن لاى مجتمع أن يتخذ نموذجا مغايرا له فى مجتمع آخر • ان النموذج الكوبى والفيتنامى هو النموذج الشرقى الذى لا يبدأ بالتحرر العقلى من أجل التحرر الوطنى والاجتماعى • فهذا هو النموذج الغربى الذى هاجمه ماركس فى (الايديولوجية الالمانية) وفى (العائلة المقدسة) • ان النموذج الاسيوى فى السياسة الذى يقابله نمط الانتاج الاسيوى فى الاقتصاد يبدأ بالجماهير ، ويجند الشعب ، ويقوم بالتحرر الوطنى والاجتماعى عن طريق قيادة طليعية شعبية من نوع ماو تسى تونج وكاسترو ، وليس من نوع كانط وفولتير • والطريق أمامنا مفتوح ان شئنا أخذنا بالنمط الاسيوى ، تجنيد الفلاحين ، وان شئنا أخذنا بالنمط الغربى ، وهو التنوير العقلى ، فأيهما مستحيل وأيهما ممكن ؟

● ما هى أهم انجازات عصر النهضة الاوربى ؟ وهل لابد أن نمر بنفس الظروف حتى نصل الى درجة التحرر العقلى ؟

● لقد ورث عصر النهضة الاوربى منجزات الاصلاح الدينى الذى استطاع التخلص من التوسط بين الانسـان والله ، ورفض احتكار التفسير ، ورفض التبعية القومية للقوى المركزية ، ورفض المظاهر الخارجية فى الدين ، فالاصلاح الدينى كان مقدمة للنهضـة الحضارية الشاملة وكأن الدين هو دعامة الحضارات وأساسها الاول • لقد تميز عصر النهضة بالجرأة على القديم • والموقف النقـدى من التراث ، ورفض التبعية والتسليم ، ورفض سلطة الموروث ، والاعتماد

على العقل وليس السلطة ، واكتشاف الواقع دون التجريد • وبدايات العلم دون الاسطورة ، واكتشاف الانسان داخل الالهيات القديمة • وهذا ما نحاول نحن القيام به منذ جيل أو جيلين متعثرين ومتخوفين وناكصين • يبدو أننا مازلنا دون هذه المرحلة بعد •

فمأساتنا اليوم هى فى عدم الدراية بوظيفة العقل وتصورنا له على أنه تبرير لما هو موجود سواء فى الدين أم فى السياسة ، وانه مجرد تعبير عن انفعالات يتحول فيها الفكر الى مجرد صراخ فى حين أن وظيفة العقل تكمن فى التحليل ، تحليل التصورات وتحليل الواقع وتحليل التجارب • كما ان مأساتنا فى انعزالنا عن الواقع وعدم أخذ مصالح الجماهير فى الاعتبار سواء فى اعادة البناء الثقافى أو فى صياغة المشروع القومى • ولذلك كان المعتزلة وابن رشد روادا فى تحليل العقل وكان مالك بن أنس الذى خرج عن عبد الله بن مسعود الذى خرج بدوره عن عمر بن الخطاب رائدا فى البداية بالمصالح المرسلة ، وبأن ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن ، فالمصلحة أساس التشريع ، ومقاصد الشريعة الاساسية هى المحافظة على الضروريات الخمس : الدين والعقل ، والحياة ، والعرض والمال •

● هل لتكوين الشخصية المصرية دور فى حدوث الازمة أو فى حلها ؟

● ان مفهوم الشخصية القومية ذاته لم يستقر علميا بعد ومن الخطورة التسليم به • ومع ذلك يمكن القول بأن ما يسمى بروح الشعب أو بالطابع القومى له دور فعال فى تحديد معالم الفكر القومى • فمثلا هناك سمة أساسية فى مصر والصين معا تتعلق بدور الدولة ومركزية السلطة ، كما أن هناك سمة أساسية فى الشعوب السامية كلها

وهى تصور العالم كله صادرا من مركز واحد ، ولكن هذا الطابع حركى وليس ثابتا ، ويمكن تكييفه طبقا للنظرية السياسية والاجتماعية ، فتصبح الدولة فى الصين قديما هى الشعب حديثا ويصبح التوحيد لدى الشعوب السامية القديمة التصور المعاصر للوحدة الوطنية . فالازمة ليست فى الطابع القومى السائد بل فى طريقة التعامل معه .

● التقاء الحضارات ؟

● يكثر الحديث فى هذه الايام عن التقاء الحضارات والحوار بين المجتمعات والالتقاء بين التكتلات فاذا كان المقصود من ذلك هو التعاون الاقتصادى والتبادل التجارى الذى يقوم أساسا على المصلحة كان بها ، أما اذا كان المقصود هو القضاء على خصوصية حضارات الشعوب النامية واستيرادها لتكنولوجيا المجتمعات المتقدمة فذاك نوع من الإستعمار الثقافى ، فنوعية الحضارات لا يمكن تمييعها أو تسطيحها، وقد برزت مشكلة الثقافات الوطنية فى البلاد النامية مواكبة لحركات التحـــرر الوطنى من أجل تحقيق شخصيتهـــا الوطنية المســتقلة . فالتكنولوجيا تعبير عن التقدم الصناعى الذى يقوم بدوره على ثقافة فى مجتمع الوفرة والاستهلاك . فاذا كان الغرب الآن يشعر بوطأة أزمته ، أزمة الوعى الاوربى على ما يقول الفلاسفة المعاصرون وينتظر وعيا جديدا من شعوب الشرق ، فالاحرى بنا التأكيد على الوعى الحضارى المســتقل واعطاء مثل أكثر شــمولا وأقوى فاعليـــة من الفلسفات الليبرالية الغربية .

الحقيقة أن معظم المفكرين المعاصرين يتفقون على تشخيص الازمة على أنها أزمة تحديث وتحديد الصلة بين الماضى والحاضر ، أو كما يقول الاخوة فى المغرب مثل عبد الله العروى ، بين الاعتراب (الرجوع

الى الشخصية العربية) والاغتراب (الرجوع الى الغرب) أو كما يقول الأخوة فى المشرق بين الاتباع والابداع مثل أدونيس ولكنهم يختلفون فى تصورهم لحلها ٠

فمثلا يرى البعض أن حل الازمة يكمن فى تبنى النظرة العلمية الخالصة وعلى رأسها الماركسية وترك كل القديم الذى يغلب عليه الغيب والاسطورة ، وهو موقف صادق جلال العظم فى سوريا ، ويرى البعض الآخر مثل عبد الله العروى فى المغرب أن حل الازمة فيما يسميه الماركسية الليبرالية وتعنى تكييف الماركسية طبقا لظروف المجتمع العربى الذى يعيش العصر الليبرالى وفلسفة التنوير فنحن لا نستطيع أن ننقد وأن نرفض الليبرالية ونحن لم نتمثلها بعد ٠ ويرى فريق ثالث مثل محمد عزيز الاحبابى أن حل الازمة يكمن فى اكتشاف (الشخصانية) وتعنى البحث عن الشخصية الانسانية العربية ومعالمها الاساسية وقدرتها على الحوار مع الآخرين وعلى التحرر فى مواقف القهر والكبت ٠

والحقيقة أن هذه الحلول المختلفة ليست متعارضة ، بل يركز كل منها على جانب ويعطيه الاولوية على الجانب الآخر ، مثل : العلم ، الثورة الاجتماعية ، احترام الانسان ، ولكن يكاد يتفق الجميع على أن حل أزمتنا الراهنة هو فى نقل مجتمعنا من طور الى طور آخر ، ومن الالهيات الى العقليات ، ومن الانشاء الى الخبر ، ومن ثنائية السماء والارض أو النفس والبدن الى وحدة الفكر والواقع ووحدة الانسان مع عالمه ٠ والمطلوب منا جميعا صدق النية والعمل الجاد ، والقادر على تغيير الواقع بالفعل هو القادر فى النهاية على التنظير له ٠

جـ ـ مفهوم اليسار الاسلامى يخيف السلطات :

● **جرب العرب كل الايديولوجيات المعاصرة ومازالت قضاياهم كما هى .**

● **منذ متى تهتم أمريكا بالشعوب الاسلامية ؟ وشعب فلسطين اليس شعبا اسلاميا ؟**

● **أعتز بمفهوم اليسار الاسلامى لانه يخيف السلطات .**

● فى الفترة الاخيرة خاصة بعد انتصار الثورة الايرانية ، بدأت فكرة العودة الى الاسلام تنتشر على نطاق أكثر شمولا عن ذى قبل ، وتحمل فى طياتها توجهات وطنية تقدمية فى بعض البلدان وفى البعض الآخر تحمل النقيض من ذلك . كيف تفسر هذه الظاهرة ؟

ـ قضية العودة الى التراث ، أو اعادة اكتشاف الاسلام ، أو العالم الاسلامى يسير الى الامام ، هى فى الواقع قضية على قدر كبير من الاهمية فى فترتنا الراهنة . الغرب يحاول دراسة هذه الظاهرة ، يعقد لها المؤتمرات ، يقيم لجان البحوث لمعرفة مستقبل هذه الحركة ولمعرفة أى خطر تمثله أمام الغرب أم أنها مجرد عاطفة هوجاء تنقضى بمجرد أن تنشب .

جريدة الهدف الكويتية ، الخميس ١٩٨٠/١٠/٣ .

والحقيقة أنها ظاهرة تعبر عن شيء حقيقي موجود ، ربما ليس كفعل — وهذه هي الخطورة — ولكن كرد فعل . ويكون التحدى الاعظم هو كيف يستطيع الفكر الاسلامى حاليا تحويل رد الفعل الى فعل مخطط مؤصل يستطيع أن يستغل رد الفعل هذا وطاقاته الكامنة فى سبيل مصالحه الخاصة وليس لحماية مصالح الغرب أو الهجوم على المشرق .

بدأ الاتراك تقليد نهضة الغرب باعتبارهم بؤرة الاسلام ولتحديث مجتمعاتهم ولكن للاسف كانت مناهج التحديث تتم عن طريق النموذج الخارجى ، عن طريق الليبرالية الغربيـــة التى انتشرت فى القـــرن الماضى بانتشار المفكرين والفلاسفة والصحافيين العرب وذهابهم للغرب واعجابهم بنمطه فى الحرية والديمقراطية والعلم .. حتى الافغانى ومحمد عبده المصلحين الدينيين كانا ينظران باستمرار الى أن الغرب قد تقدم عن طريق العلم والحرية والديمقراطية والاحزاب والحيـــاة النيابية وكانا يطالبان العالم الاسلامى بالاخذ من حضارة الغرب ؛ وهذا هو النمط الغربى المستنير ، وهناك أيضا دعوة شبلى شـــميل وفرح أنطون ويعقوب صروف وولى الدين يكن وغيرهم للتغيير على النمط الغربى ومطالبتهم بترك الدين باعتباره خرافة وكانوا يروجون أيضا لبعض الكتابات الغربية التى ظهرت فى القرن الماضى . التيار الاول كان يرى فى ذلك وسيلة لتجديد الدين ذاته دون انقطاع عنه ، أما التيار الثانى فكان يرى ضرورة الانقطاع عنه من أجل بناء مجتمع حديث علمى تقدمى . هناك أيضا محاولة الطهطاوى من أجل اعـــادة بناء المجتمعات ذاتها ، ليس عن طريق ايجاد نمط غربى بل البداية بالواقع ، بواقع الامة العربية ، وكان فى ذهنه مصر ودولة محمد على

وكيفية تحديث هذه الدولة بحيث تقوم على التمييز بين السلطات وتكوين تقدم زراعى وصناعى وتجارى ، ودون أن ينفصل عن التراث الاسلامى القديم ٠ لكن للاسف هذه الدعوة الليبرالية ، أى تحديث المجتمعات على النمط الغربى انتهت فى العشرينات والثلاثينات خاصة فى مصر التى كانت رائدة لهذه الحركة فى الشرق الاوسط نظرا لظروفها الخاصة واتصالها بالغرب فى وقت مبكر ، فقد بدأت هذه الدعوة تنتج آثارا سلبية على التكوين الاجتماعى حيث سادت طبقة الباشوات والاقليات وملاك الارض ٠ صحيح كانت هناك مكاسب على مستوى الديمقراطية وقانون الصحافة والمطبوعات ورأت مصر أزهى فترات عصورها فيما يتعلق بالحرية الفكرية لكن كانت قضية العدالة الاجتماعية حجر عثرة أمام هذا النظام الليبرالى ، وبدأت قضية العدالة الاجتماعية تظهر وكأنها وريثة لهذا النظام الليبرالى ٠

بعد ذلك جرب المسلمون الثورات العربية وكانت هناك مكاسب : تحديد ملكية ، قطاع عام ، حقوق العمال وتحديد ساعات العمل والاجر، مكاسب على المستوى الخارجى : سياسة عدم الانحياز ، مقاومة الاستعمار والصهيونية ٠ لكن كما تعلم ما هو مصير هذه الثورات العربية ؟ مزيد من الاحتلال ، عدم الوقوف أمام الصهيونية موقف جاد ، ظهور طبقات جديدة ورثت الطبقات القديمة ، عدم تعبئة الجماهير فى حزب طليعى يدافع عن مصالح الامة ٠٠ اذن بعد أن جرب العرب كل أيديولوجيات التحديث المعاصرة مازالت قضاياهم كما هى : تخلف، فقر ، صهيونية ، احتلال ، تمزق ٠٠ وبالتالى بدأ الناس يفكرون اذا كانوا قد جربوا الايديولوجيات العلمانية التحديثية فلماذا لا يجربون ما لديهم وهذا ما أسميه برد الفعل ، بمعنى ، فى غياب أيديولوجية

ناجحة بدأ الناس يلجأون الى وجود الذات فى غياب وجود الآخر ، فى غياب الخارج وجود الداخل ، فى غياب البعيد وجود القريب ، بدأوا يفكرون ربما قد يكون لديهم حل .. فماذا وجدوا وماذا اكتشفوا ؟ اكتشفوا تخلفا ومحافظة وأشعرية وتصوفا منذ هجوم الغزالى على العلوم العقلية فى القرن الخامس وضياع فرصة ظهور اتجاه عقلانى تقدمى عند المعتزلة وضياع فرصة استمرار ابن رشد فى العالم الاسلامى بعد اضطهاده بالرغم من أن الغرب سار فى أعقاب المعتزلة وابن رشد فى التفكير العقلانى الطبيعى وتقدم ، أما نحن فقد سرنا فى أعقاب الغزالى والاشاعرة . وعندما تجد تحت شعار « العودة الى الاسلام » تحركات غامضة ومتخلفة ذلك يعنى أن أصحابها لم يرتكنوا الا الى الفكر الدينى السائد من ألف عام أى الاسلام الاشعرى الصوفى المحافظ .

● تحدثت عن اخفاق معظم أيديولوجيات التحديث التى سادت فى فترة تطورنا الحديث لكن لم يكن كلامك تشوبه نفس الحدة عندما تحدثت عن التيار الدينى المستنير ؟

— لانه لم يجرب أصلا ولم تتح له الفرصة الكافية لاثبات مدى صلاحيته فى التعبير عن الواقع ، على سبيل المثال بدأ الافغانى بداية عظيمة فى معاداته للاستعمار والدعوة الى الوحدة الاسلامية وكان يناهض الحكام الذين أصبحوا ألاعيب فى أيدى الاستعمار كما كان يدعو الى العدالة الاجتماعية « عجبت لك أيها الفلاح تشق الارض بفأسك ولا تشق قلب ظالمك » لكن للاسف هبطت الثورة الاسلامية عند الافغانى الى المنتصف عند محمد عبده عندما شارك فى الثورة العرابية ثم ندم بعد ذلك .

● عندما تهبط الثورة الى المنتصف ، هل يعود ذلك الى طبيعة المفكرين فقط ؟

— ربما لان الافغانى لم يؤسس تيارا أو حركة أو حزبا وراءه ، لانه كان مطاردا فى كل ركن ، كان الاصلاح فرديا ، ومحمد عبده بروحه كشيخ لم تكن لديه نفس الدفعة الموجودة عند الافغانى فهبط الفكر الاصلاحى الى المنتصف • وعندما تسلمه رشيد رضا هبط به الى نصف النصف فكان اصلاحيا سلفيا • وحين جاء حسن البنا حاول أن يحقق ما لم يحققه الافغانى فى تكوين حزب وانشاء حركة جماهيرية ولكنها للاسف كانت بدورها أقرب الى السلفية والمحافظة ، وكلنا يعلم موقف الاخوان من لجنة الطلبة والعمال فى ١٩٤٦ ورفضها الدخول فى الحركة الوطنية ، والدخول فى قضايا التكفير •• وبالتالى ظل الفكر الاسلامى المستنير هابطا • وكنتيجة لاستمرار الاخوان فى الفترة الناصرية كحركات تحت الارض أن تحول الفكر السلفى لفكر مضطهدين رغبتهم الانتقام والاخذ بالثأر ورفض ما هو قائم دون محاولة اعادة صياغة الفكر الاسلامى وتطويره حتى يتبنى من جديد قضايا العدالة الاجتماعية والثورة ضد الاستعمار والاقطاع •

● اذن كيف تفسر هذا الهبوط المستمر للفكر الاسلامى المعاصر ؟

— لانه يبدأ دون أن يتحول الى حركة مستمرة ، اما عن طريق حزب اسلامى تقدمى أو عن طريق الاتحاد مع الحركات الوطنيــة والدخول فى حوار مع كل الحركات التى تبغى التحديث سواء كانت ماركسية أو قومية • فالفكر الاسلامى المعاصر لا يستطيع أن يعيش

بمفرده لانه احدى صيغ الحركة الوطنية • فاذا ما انعزل حتما يختفى وينتهى • لكن اذا ما اتحد وهو ما نحاوله نحن فى صر « باليسار الاسلامى » يجعل الاسلام كما حدث فى ايران بوتقة للوحدة الوطنية والجبهة الوطنية فى مواجهة خطر الدكتاتورية فى الداخل والاستعمار والصهيونية فى الخارج •

● ثمة نقد شائع لمحاولات فى أن القضية مع الحاضر ليست الماضى واننا حين ننقد الحاضر فاننا بذلك نقوم بنقد مبطن لهذا الماضى من خلال بقاياه فى الحاضر •

— نحن نعيش فى عالم متأزم من قضايا التغريب واحتلال الاراضى ومن طغيان الاستعمار علينا ، وسيادة التخلف •• فى الاطار هذا أنا أزمتى مع الحاضر ، لكن عندما أحلل هذا الحاضر (التخلف ، الاستعمار ، الصهيونية ، الفقر ، الدكتاتورية ، الطغيان) ماذا أجد ؟ أجد ما أسميه الجذور التاريخية•وهنا أبدأ فى البحث عن العلل التاريخية، المخزون النفسى ، الرواسب الحضارية ، التى ظهرت بالحاضر ، فالحاضر بالنسبة لى هو تراكم للماضى ، فأنا لا أذهب الى الماضى • أنا لست عدوا للماضى الا بقدر ما أجده علة تمنعنى من الحركة والتقدم •

● فى مشروعك الكبير نحو « التراث والتجديد » هل هناك عقبات موضوعية تقف أمام هذه المحاولة ؟

— أحاول قدر الامكان تجاوز بعض التجديدات الضيقة التى تمت فى تيار النهضة عند الطهطاوى أو فى التفكير العلمانى الغربى أو

الاصلاح الدينى عند الافغانى ، فأنا تراكم تاريخى لما حدث منذ مائتى عام ، أحاول تجاوز ذلك باللجوء الى الواقع والانحياز لصالح الجماهير وعدم رفض أى تيار آخر بل نسعى للدخول معه فى حوار جاد حتى نستطيع أن نخلق فى النهاية ثقافة وطنية واحدة فى نفس الوقت متعددة المناهج والاتجاهات • ثمة مشكلة حقيقية تكمن فى عدم رغبة بعض التيارات الاخرى فى الحوار ، الماركسى مثلا يفكر فى انه لا يريد أن يترك الفرصة لتيار آخر أن يسحب البساط من تحت قدميه ، فلسان حاله يقول لماذا أترك تيارا تكون له فرصة فى النجـــاح أكثر ••• يبدأ بالعدالة الاجتماعية والفقراء ومحاربة الاستعمار والصهيونية وفى نفس الوقت يبدأ من تراث الامة وتقاليدها واسلامها •• مشكلتى اذن مع بعض الاخوة التقدميين انهم ينظرون الى هذا التيار على أنه منافس لهم على نفس مستوى القضايا • كذلك أجد صعوبة فى التحاور مع التيارات الدينية الاخرى ، يكفرون هذا التيار ويلعنونه ، يعتبرونه ماركسية مقنعة ، تحاول أن تبين لهم أن الاسلام ليس لحى أو مسابح ، وليس صلاة أو صوم فقط • يقول لك القرآن دستورنا والرسول زعيمنا، لكن حين تسأله يا أخى وبعد ذلك ماذا ستفعل مع مجتمع مستوى دخل الفرد فيه ٢٠٠ جنيه سنويا ؟ لا يأتيك بجواب فى هذه الحالة • ناهيك عن الصعوبة الاكبر مع النظام القائم ، فهذه الدعوة تؤرقه لانها تدعو الى رفض ما هو موجود ومن الصعب كذلك رفضها تحت « تهمة » شيوعى لانها تبدأ من الاسلام أو تحت تهمة « أصولى » لانها تبدأ من قضايا الواقع •

● بالنسبة للدور الذى تلعبه حاليا هل يتعدى اطار القاء محاضرات ونشر كتب أو اصدار مجلة ؟

ـ أنا بالاضافة الى مساهماتى فى المجلات العربية ودراساتى العامة ، بدأت تنفيذ مشروع التراث والتجديد واعادة بناء كل التراث القديم من منظور ثورى تقدمى . فأخرجت «المقدمات النظرية» للتراث والتجديد منذ شهر وسيصدر « من العقيدة الى الثورة » تحويل العقيدة الاسلامية لايديولوجية سياسية عند جماهير محتلة متخلفة ، ثم اعادة بناء علم أصول الفقه القديم من استنباط الى استقراء لاحوال المسلمين، واعادة بناء التصوف من حركة هروب من المجتمع كقيمة سلبية فى الرضا والصبر والورع الى آخره الى قيمة جهاد ونضال ومقاومة وصراع . ثم التوجه بعد ذلك الى الغرب ومحاولة وضع الغرب داخل حدوده الطبيعية وبيان أن كل ما نشأ من علم وفكر وثقافة وفن كان مرتبطا بظروفه وتاريخه وحتى أستطيع أن أجد مكانا لثقافات غير غربية على مسرح الثقافة العالمية وحتى يستطيع التاريخ الانسانى العالمى أن يكون أكثر عدلا عندما تؤرخ الروح الانسانية لنفسها بدلا من أن تقتصر فقط على الروح الغربية واعتبار أن الروح والحضارات الشرقية مجرد تمهيد لها ويكون على نفس المستوى من المساهمة ، وكذلك مخاطبة الناس مخاطبة عامة وعمل كتاب غير دورى أو مجلة ـ نظرا لعدم حصولنا على تصريح ـ تنشر معظم الكتابات الاساسية لهذا التيار . وسيصدر العدد الاول من مجلة « اليسار الاسلامى » فى القاهرة خلال هذا الشهر ، تشارك فيها جميع التيارات السياسية والفكرية المستنيرة وتحاول بذلك قدر الامكان أن تقيم أساسا للوحدة الوطنية والحوار .. وهناك أشكال فيما يتعلق باسم المجلة ، البعض

يخشى من أن اسم « اليسار » قد يخيف التيارات الاسلامية ، وقد يغضب الدولة ، وبالتالى لماذا نخسر بهذه المخاطرة حول الاسم ؛ لكنى مستعد للصراع حول الاسم ، فالماركسية احدى التيارات اليسارية وليست كلها ، وأنا أعتز بمفهوم اليسار باعتباره أولا يخيف السلطة ، وباعتبار أن من مهمتى تخليص وتطهير هذا اللفظ ، فالى متى سنظل نخاف من الاسماء ؟ فى الاربعينات كان يقـــال كل من يذكر كلمات الشعب والنضال والحرية والديمقراطية ابتعدوا عنـــه لانه مخيف ، قاتل ، دموى • ولكن تخلصنا من كل ذلك وتم تطهير هذه المفاهيم فى الثقافة الوطنية خاصة « واليسار » اسم علمى ، هناك اليسار الهيجلى والفرويدوى والجديد واليسار فى الكنيسة •• وبالتالى فلماذا أخشى من اسم تمت صياغته فى العلوم الانسانية ؟ وفى هذا العدد الاول من « اليسار الاسلامى » يجد القارىء : دراسة عن : هل يجوز شرعا الصلح مع اسرائيل ؟ وأخرى عن مناهضة الاستعمار والصهيونية على أسس من تراث الامة ، وهناك أيضا دراسة عن الاسلام والاستعمار، ونص « لعلى شريعتى » عن مسؤولية المفكر ، كما يوجد نص لسيد قطب عن اسلام امريكانى وكيف يستغل الغرب الاسلام أحيانا لمصالحه، أنا ضد تدخل الاتحاد السوفياتى فى أى ثورة ، لكن منذ متى وأمريكا مهتمة بالشعوب الاسلامية ؟ أليس الشعب الفلسطينى شعبا مسلما أيضا ؟ لكننا لم نسمع عن حقوق الفلسطينيين باسم الاسلام • وهناك نص أيضا فى هذا العدد للسلطان جالييف عن محاولاته لاقـــامة ثورة اسلامية اشتراكية تقدمية ودون أن تكون الجمهوريات الاســـلامية مهمينا عليها من قبل الدولة السوفياتية •

● فى كتابات د• حسن حنفى نلاحظ نوعا من الازدواجية ، فأنت

تحلل من جهة الجذور التاريخية لغياب الحرية والديمقراطية من وجداننا المعاصر ، ومن جهة أخرى تتحدث عن الجماهير فى كتابات أخـرى بشكل يثير التساؤل ، فى احدى مقالاتك كتبت « الاحادية فى الحكم تنبع من طبيعة المخزون الحضارى عند الناس ، فحتى لو كان هناك نظام ديمقراطى ليبرالى لحولته الناس بالضرورة الى نظام تسـلطى فالجماهير تود عبادة الافراد وتأليه الحكام » • فلماذا تفترض هذا ؟ أليس من المحتمل أن الحكـام هم الذين يفرضـون على الجماهير تألههم وانه عندما تتاح للجماهير أدنى فرصة فانها تسقط المتألهين من بروجهم المحصنة !

ـــ أنا حين أتكلم عن الجماهير لا أعنى الجماهير الثائرة ، الغاضبة، الجماهير الممتلكة الوعى بمصالحها والقادرة على عـدم الانخداع أو الاغتراب فى شعورها الوطنى اجتماعيا وسياسيا•فعندما أقول الجماهير فأنا أعنى المخزو النفسى التقليدى ، القوالب والقيم الموروثة • قد تكون هناك جماهير ثائرة فى ٢٤ ساعة نظرا لغياب الخبز والزبد والاسـعار كما حدث فى يناير ٧ بمصر ، لكن لماذا لم تستمر هذه الحركة أكثر من ٤٨ ساعة ؟ فى تصورى أن أحد الاسباب الهامة وراء ذلك تكمن فى عدم وجود مقولات ثورية من خلالها يستطيع هذا الغضب الثورى أن يثبت أكثر فأكثر ويحوله الى ثورة ، وطبعا لا يوجد حزب يحول هـذه المقولات الى حركات ثورية • لذلك عندما أقول أن الجماهير تؤله الحكام فان ذلك يعنى أن المقولات القديمة مازالت موروثة فى أذهان الناس ، وأن أحادية الطرف ، وفكرة الواحد المسيطر على كل شىء ، وان الامر لابد أن يهبط • وان الجماهير ليس لها الا الطاعة ، فى رأيى كل هذه الامور هى جرثومة التخلف • وسأعطيك نموذجا بليغا ، وذلك

بغض النظر عن تطابقه مع قضيتنا أم لا ، فى محاولة الانقلاب التى قام بها طلبة الكلية الحربية بالمغرب ضد الحسن الثانى — بغض النظر عن موضوع الجنرال أوفقير — ماذا حدث بعد الهجـوم على قصر الصخيرات ؟ اختفى الملك الحسن فى احدى دورات المياه ، ثم نظـر من النافذة فوجد أحد ضباط الكلية الحربية بمدفعه ، خرج الملك الحسن وقال له ألا تعرفنى ؟ فانهار الطالب . فمد اليه الحسن يديه فقبلها الطالب وقال : أنت مولاى ... تصور شخصا أعزل فى دورة مياه وشابا بمدفع! ماذا حدث اذن لهذا الشاب ليندفع ويقبل أصابع الحسن الثانى ؟ لقد اندفعت فى ذهن الشاب مقولة المقدس ، الاله ، المولى . لكن لو كان هذا الشاب فى قوالبه الذهنية يعلم أن كل الافراد سواسية ، ولا يوجد فرد له سلطة على الآخر ، وتغيب عن ذهنه فكرة هذه السلطة المركزية التى تسيطر على كل شىء لما كان قد حدثت مثل تلك الواقعة . اذن لابد أولا حتى تستطيع الجماهير أن تعى مصالحها من خلال قوالبها الفكرية ، لابد من القضاء على ما يسمى بمقولة المقدس فى شعورنا .

● أخشى أن أقول انك رغم كل ذلك تدافع فى بعض الاحيـان عن فكرة السلطة المركزية ، أو على الاقل أنت تريد توظيفها ، فماذا يعنى ان تقول : « البعض يقول الحاكم القوى ، صانع الدولة القوية فى الشرق فى مقابل التحديث الغربى » ثم تستطرد بأن هذا تعبير عن بناء حضارى أساسى فى وعى الجماهير والمهم هو توظيف هذا التصور الهرمى للعالم لصالح التغيير الاجتماعى . فلتسمح لى ، هذا المنطق مرفوض جملة وتفصيلا !

— الواقع أنا فى حيرة ، صديقى د. أنور عبد الملك فى رأيه ان

المجتمعات الشرقية كمصر والصين لها نمط خاص من التحديث هو التحديث عن طريق جهاز الدولة ، دين الدولة ، وفى رأيه أن الجيش والدين هما أهم دعامتين للتحديث ، وبالتالى فان أى محاولة لمعارضة جهاز الدولة ، جيش الدولة ودين الدولة مصيرها الفشل مسبقا كما فى محاولات التحديث العلمانى ، أى أن تحديث مجتمعاتنا لا يتم الا عبر نمط الدولة جيشا ونمط الدولة دينا •

● اذا كانت مشكلتنا المزمنة فى وجود مثل تلك السلطة المركزية والتصور الهرمى للعالم ، فكيف أبرر ذلك أصلا ؟

— هذا صحيح ، عادة أنا لا أميل الى هذا الرأى ، لكننى أخشى لو دافعت عن الرأى الآخر أن يقال اننى تأثرت واستغربت عن طريق الديمقراطية والتعدد والحوار ، فأنا لى مصادرى الخاصة « وأمرهم شورى بينهم » و « الامر بالمعروف والنهى عن المنكر » •

● انها قضية انسانية فى المقام الاول وليست قضية شرق أو غرب ، انها نتاج تجارب انسانية حقيقية •

لكن هناك أيضا حجة تاريخية لصالح وجهة النظر الاولى — السلطة الاولى — السلطة المركزية — وهى أين فى المجتمعات الشرقية ظهرت التعددية ؟

● وهل غيابها تاريخيا — رغم اننى أشك فى هذا الرأى — يبرر استبعادها نهائيا ؟

— يا أخى أمام هذه الانماط المقدسة ، ألا يمكن توظيف هذه الاشياء مرحليا لصالح عملية التغيير الاجتماعى •• فالجماهير عندما

يتم تجنيدها يمكن تحويلها الى فكرة واجدة مركزية من أجل العـدالة الاجتماعية وضد الصهيونية والاستعمار • يعنى مثلا فى حركة التحرير الوطنى الجزائرى ، كان طبعا كل شعب الجزائر من أجل مقـاومة الاستعمار الفرنسى ، فى اللحظات الحاسمة فى تاريخ البلاد التوحد فى قضية واحدة قد يفيد ، ففى مواجهة الصهيونية لا يمكن أن تكون هناك صهيونية جيدة وأخرى غير جيدة •

لكن أنا مازلت عند رأيى من أنه لابد من تغيير القوالب والتراث والمفاهيم الموروثة أى المخزون النفسى عند الجماهير حتى يمكن اعادة بناء الثقافة الوطنيـة ، فالتراث والدين فى البـلاد النامية يمثـل الايديولوجية السياسية وبالتالى لابد من عمل ثقافة وطنية تكـون حاملا لايديولوجية اجتماعية فيما بعد ، فلا يمكن القفز على المراحل والتحول من مناطق متخلفة الى منطقة متقدمة دون خلق ثقافة وطنية والا تحدث ردود فعل كما حدث فى ايران وتركيا •

● بالنسبة لى ، أنا أعتز بجهودك فى التنقيب عن الجذور التاريخية لازمة الحرية فى وجداننا المعاصر ، وفى نفس الوقت أبدى تحفظى على موقفك من قضية « توظيف السلطة المركزية والتصور الهرمى للعالم » لانى أعلم جيدا ان العكس هو الذى يحدث دائما فيما يتعلق بقضية « التوظيف » !

— الفرق بيننا هو الآتى : اننى أعيش فى عصر وفى زمان وفى مكان وفى فترة تاريخية معينة ، وهذا لا يعنى اننى براجماتى لكنـه يعنى أننى قادر على تصور الواقع تصورا علميا ، أى بمعنى ما هو

موجود لابد أن أسلم به ، نظرا لاننى لا أفرق بين التصور والسلوك بين النظر والعمل ، فكل فكر لدى لابد أن يتحول الى حركة . ربما أنت أكثر علمية وقادر على تصور الحقائق النظرية وقادر على مواجهة الواقع والتأثير فيه ، لكن الخوف أن يأتى انسان آخر ذو لحية وفى يده كتاب وبمجرد خطبة حماسية يتبعه ٩٥٪ من جماهيرك ، فلماذا لا آخذهم أنا صاحب التيار الدينى المستنير بدلا من أن يأخذهم صاحب العمامة ؟

● أنا لا أشك لحظة فى بداهة الجماهير التى تتحدث عنها ، قضيتنا أساسا هى قضية حريات ، واننى واثق أن الـ ٩٥٪ من الجماهير من خلال اقتراع ديمقراطى حقيقى ستجدها معك ، تؤازرك بوعى متقدم ولا تنس أن صاحب العمامة لا يسيطر الا فى غياب الديمقراطية وسيادة أجواء القمع والارهاب وتفاقم ظروف المعيشة ، لذا أرى أنه من الضرورى أولا وقبل كل شىء القيام بنقد دعاوى وشعارات تغييب الحياة الديمقراطية من واقعنا ، انها قضية أولية فى تصورى ولا يجب أن نذبحها ونحن نتحدث عن العدالة ، القومية ، المعركة ، الدين ، الدولة المركزية ... الخ ، لانها مفتاح معظم المشاكل والقضايا المثارة وغير المثارة .. على سبيل المثال محاولاتك أنت لن يكتب لها النجاح الا من خلال نضال ديمقراطى لا يتوقف ، ينزع الى تكوين وتجميع الارادات الوطنية والشعبية والا فانك لن تخسر فقط الـ ٩٥٪ من جماهيرك بل جهودك وذاتك أيضا .

— هذا صحيح ، ولكننى أفهم الحرية على أنها ذات مستويات آخرها ربما تكون الحرية السياسية وقبل هذه الحرية السياسية التى

تتبدى فى نظم ومؤسسات وتعدد أحزاب وصحافة حرة .. أنا أريد الحرية الفكرية ، أى لا أريد أحد أن يفكر لى دون أن أشعر فى ذهنى ، أريد أن أكون صاحب القرار فى الحكم ، لا أريد لا مقولات قديمة ولا تصورات موروثة تفكر لى دون أن أشعر ، فعادة التراث يفكر لى ولست أنا الذى أفكر فيه ، فالعادات والتقاليد تفكر لى حتى على الرغم من دعوتى الى الحرية السياسية . ومن ثم فالحُرية بالنسبة لى هى الحرية فى الاختيار ، ولكن وللاسف العقل العربى حاليا غير متساوى الكفتين ، هناك كفة راجحة للغاية وهى الاشعرية الصوفية الموروثة ، وكفة أخرى هى العقلانية الاعتزالية التى توارت ، طبعا حاول الافغانى ومحمد عبده ابرازها ولكن الى النصف فى الحسن والقبح العقليين ، لكنهم لم يفعلوا نفس الشىء فى التوحيد ، أى أنهم فى العدل معتزلة وفى التوحيد أشاعرة ، أنا أريد أن يكون الناس معتزلة فى العدل والتوحيد . أقول اذن ان الحرية الفكرية تعنى الاختيار بين البدائل واعادة الحوار وطرح جميع الاختيارات وترك الناس تفكر كما فعل ديكارت . الشك فى القديم والموروث ، الوقوف أمام القديم موقفا نقديا والعودة الى الطبيعة واكتشاف بدائل جديدة ومناهج للمعرفة تجريبية حسية عقلية ، حدسية ، استقرائية .. وترك المصدر المسبق فى المعرفة .

● فى النهاية . كيف ترى امكانية تحقق هذه الحرية الفكرية واستكمال الكفاح العقلانى الذى بدأ منذ عصر النهضة ؟

— حاليا ربما أخطر فترة يمر بها العقل العربى هى ما نعيشه

الآن ، من تخلف وعدم مقابلة الرأى بالرأى ، والفكرة بالفكرة : بل مواجهة الرأى بالاغتيال والتصفية الجسدية وسلخ الايادى ، أقول اذن الفكر لابد أو يواجه بالفكر ، والرأى بالرأى ، وأن يتم الحوار بين الآراء ، وأن تكون هناك تقاليد وأدبيات للحوار ، الوطن للجميع ، والحق للجميع فكل منا يحاول تحديث مجتمعه ، والحرية للجميع ولنجعل محك الاختبار للناس ، كل انسان يصوغ برنامجه ونترك الناس تختار أيهما أقرب فى التعبير عن مصالحها • وبالتالى من خلال الحوار المتبادل تستطيع الوحدة الوطنية أن تنشأ فى النهاية • فالحقائق واضحة ، الاستعمار والصهيونية ومحاولات ادخال الشرق الاوسط كله فى عجلة القوى الكبرى حتى تضيع استقلاليته • قضية الطغيان والاستبداد الداخلى والتخلف والفقر ، هى قضايا عامة يستطيع كل تيار أن يطرح برنامجه فى حلها ، ويكون المحك كما قلت هو مدى قدرته ليس على حلها نظريا فقط بل وعلميا أيضا ومدى قدرته على التوجه الى الجماهير وتعبئتها من أجل التصدى لهذه القضايا •

د ـ اليسار الاسلامى لا يطلب السلطة ولا يريدها !

● الاسلام ثقافة الجماهير والمساجد مراكز حزبية قائمة .

تفكــير مشــترك :

● لن نسأل لماذا « اليسار الاسلامى » فقد قرأنا طروحاتكم . لكننا نود أن نبدأ بسؤال بسيط جدا هو كيف سيتم استخدام هــذه الطروحات لايصالها الى المواطن العادى ـــ المسلم ـ والذى مازال مطوقا بحركات اسلامية عديدة « رجعية » ؟ هل ستقول لنا ان هذه ليست مهمة « المفكر » بل السياسى الذى ينطلق من طروحاتنا ؟

● يكاد الجميع يتفق على ما يسمى باليسار الاسلامى أو الاسلام الثورى أو الاسلام المستنير أو الاصلاح الدينى ، بعد أن يخطو خطوة الى الامام فى الاصلاح الى النهضة ثم فى النهضة الى الثورة . فقد

أجرت الحوار هاديا سعيد فى ديسمبر ١٩٨٢ . وقد صدرته بالآتى :

يعتبر الدكتور حسن حنفى أحد المفكرين المصريين الذين أسسوا للتيار التقدمى الدينى عبر العديد من المؤلفات والدراسات وكذلك الترجمات فله : التراث والتجديد ، دراسات اسلامية ، قضايا معاصرة فى فكرنا المعاصر وفى الفكر الغربى المعاصر ، الثقافة الوطنية واليسار الدينى . كما انشأ مجلة اليسار الاسلامى التى أرادها أن تكون امتدادا للعروة الوثقى ، وقد صدر منها العدد الاول الذى تضمن دراسات جادة ومهمة لعدد من المفكرين والكتاب الذين يبحثون فى نفس هذا الاتجاه .

وفى هذا الحوار مع د. حنفى حاولنا أن نستخلص الملامح الرئيسية لهذا التيار ومهمات انتقاله من افق الفكر الى واقع الفعل .

شكل الاصلاح الدينى كل تياراتنا السياسية ــ ليبرالية أو قومية أو اشتراكية أو اسلامية • ومن ثم فلا خلاف على المشروع كفكرة فياليتها تتحقق • انما القضية فى وسائل التنفيذ لذلك أقول الآن :

افترقت الامة عدة فرق متناحرة كل منها يكفر بعضه بعضا فالقوميون يكفرون الاسلاميين ، والاسلاميون يكفرون القوميين ، والماركسيون يكفرون القوميين والاسلاميين ، والاسلاميون يكفرون الماركسيين والقوميين ، والليبراليون يكفرون الجميع باعتبار ذلك كله نظما تتجاوز الحرية وتعتمد على السلطة سواء سلطة القديم وأهل السلف أو سلطة الجديد والعلم أو سلطة الدولة والنظم القائمة • أى أنه لا توجد بؤرة واحدة حد أدنى فى الاتفاق بينهما يمكن أن يجمعها كى تكون نواة لوحدة وطنية تقوم على برنامج عمل ثورى موحد تتحقق فيه مصلحة الامة بصرف النظر عن اختلاف الاطر النظرية ، خاصة وان الاهداف واحدة ، فكل الفرق السياسية تتفق على مواجهة الاستعمار والصهيونية ومواجهة قضية الفقر والغنى والتقدم والتخلف والتنمية والكل يعانى من القهر ويأمل فى الحرية والكل يأسف للتجزئة ويعمل على وحدة الامة ، فاذن الاهداف القومية واحدة ، ولكن لسوء الحظ كل منها يظن انه الوريث الشرعى للسلطة ، ومن ثم نشأ الصراع بينها كصراع على السلطة • هنا يأتى اليسار الاسلامى ولا يطلب سلطة ولا يريدها لان الجميع يطلبها وفى نفس الوقت يعقد حوارا أصيلا جادا وطنيا أمام الجماهير بين كل الفرق فالاسلام يتفق عليه الجميع بصرف النظر عن الدرجة ، فالليبراليون مثلا فى التجربة المصرية من أمثال طه حسين والعقاد ومحمد حسين هيكل ، من رواد الفكر الاسلامى ، والقومى خاصة فى برامج حزب

الوفد وفى مواثيق الثورة المصرية كلها تتحدث عن الجوانب الثوريـــة التقدمية التى تدعو للحرية والعدالة الاجتماعية فى الاسلام ، فالاسلام هو تراث قومى للامة العربية • والاشتراكيون بما فيهم الماركسيون يعترفون بأن الاسلام هو ثقافة الجماهير وبأن الدين قـــد يكون أفيون للشعوب تستغله السلطة القائمة ويستغله الاستعمار لتسكين الجماهير، ولكنه فى نفس الوقت قد يكون ثورة على الظلم من الطغيان ونداء للعدالة الاجتماعية ودعوة لتحرير الارض كما حدث فى الثورة الجزائرية وفى حرب الريف وكما حدث فى فيتنام فى البوذية وكما هو الآن عند قساوسة أمريكا اللاتينية الذين يفسرون المسيحية لصالح الشعب ضد الكنيسة والشركات الامريكية المسيطرة على الاقتصاد القومى •

فاليسار الاسلامى قادر على ايجاد هذا الحد الادنى فى الاتفاق بين الاتجاهات السياسية المختلفة فى عالمنا الحاضر • ولا ترفضه الحركة الاسلامية لان ما نعيبه عليها الآن من عداء للجميع واطالة اللحى ومسك للمسابح ولبس للجلباب وتركيز على العبارات ونداء لحاكمية الله ضد حاكمية البشر انما نشأ للظروف الاجتماعية والسياسية التى عاشتها الحركة الاسلامية ابان الثورة العربية المعاصرة • فقد تم اضطهادها وابعادها ضد الحياة السياسية وزج بها فى السجون فاستشهد قادتها وعذب أعضاؤها • فمن الطبيعى أن ينشأ نوع من العداء والمطالبة بالاخذ بالثأر فلا يغسل الدم الا الدم •

لذلك كان من واجب الانظمة العربية الحالية أن تسرع لاعادتها الى ملف المجتمع وتواجهها بالتحديات الرئيسية للامة ••• وأن تتوجه لها باعتذار رسمى عما حدث لها وأن تعيد لها أجهزتها التنظيميـــة

ومراكزها ومجلاتها .. هنا فقط يمكن للحركة الاسلامية الحالية التى تعاديها السلطة والمحافظة أن يظهر منها جوانبها الاجتماعية والسياسية، وأن يتوارى سيد قطب الثانى الذى كتب معالم فى الطريق تعبيرا عن نفسية السجين المظلوم الى سيد قطب الاول الذى كان بؤرة للوحدة الوطنية فى أواخر الاربعينات صاحب العدالة الاجتماعية فى الاسلام والسلام العالمى والاسلام .

وأخيرا اليسار الاسلامى هو مجرد حركة مستنيرة تهدف الى تبصير التيارات السياسية القائمة الى أهمية الاسلام وتراثه كعنصر ربط بينها وكأداة لحل عزلة الاحزاب السياسية عن الجماهير العربية فالاسلام ثقافة الجماهير والمساجد مراكز حزبية قائمة ، علماء الدين مجندون جاهزون ، ومن ثم يتعامل اليسار الاسلامى مع كل الاحزاب القائمة . فهو ليبرالى يدافع عن الحريات « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » ، واشتراكى يدافع عن الفقير فى مال الغنى « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » ، ليس عن طريق الزكاة فقط ولكن عن طريق الملكية العامة لمصادر الثروة وان تكون الارض لمن يفلحها ، وأن يكون الركاز (أى الثروات التى فى باطن الارض) ملكا للامة بما فى ذلك النفط ، وهو قومى فلا عزة للعرب الا بالاسلام . لا يعادى أحدا ولا ينافس أحدا ولكنه يقوى الاجنحة الاسلامية فى كل تيار حتى تتحقق الوحدة الوطنية المنشودة ، هذه الوحدة التى ضاعت ابان الثورة العربية .

● يقول د. حنفى ان اليسار الاسلامى هو أيديولوجية ثورة المسلمين طامحا الى قوة اسلامية تقف ازاء القوتين الاعظم فأية دولة

« حلمية » هذه التى ستكون ؟ وهل نواتها الآن ايران أم مصر أم أفغانستان ؟

● نحن مازلنا فى مرحلة يقظة الوعى وليس تأسيس دول أو تكوين امبراطوريات أو تحقيق حلم . انما ننقل الوعى الفردى الذى ركز عليه الاصلاح الدينى (الافغانى ، محمد عبده ، رشيد رضا) الى الوعى الاجتماعى . الهدف هو الاستنارة والتخفيف من حدة المحافظة الدينية التى ورثناها منذ ألف عام عندما هاجم الغزالى العلوم العقلية . فسادت الاشعرية مزدوجة بالتصوف وظهرت الطرق الصوفية والتواكلية ابان الحكم العثمانى فى حين اننا قد عشنا التعددية والعقلانية فقط قرنين أو ثلاثة حتى الرابع الهجرى . فهناك فى وعينا القومى كفتان غير متعادلتين ، محافظة وتقليد ونقل وتمركز حول الله وفقه افتراضى نظرى وبعد عن العالم وقيم سلبية تدور حول الزهد والتوكل الورع والرضى ، وكفة أخرى تعتمد على العقل والطبيعة والحرية والعدالة الاجتماعية والمساواة وتقوم على نظرة علمية للعالم كما وضح ذلك عند المعتزلة .

مهمة اليســـار الاسلامى هى فقط جعل هاتين الكفتين أكثر تعادلا فتخف قبضة ألف عام من المحافظة وتزيد الفترة الزمانية للتعددية والعقلانية والعلمية ، أى اننا مازلنا نناضل من أجل العقلانية والعلمية والتجريبية ومصالح الامة وحرية الافعال . وقد يستمر ذلك الى عدة أجيال حتى تقل نسبة المحافظة الدينية وتزيد نسبة الثورة العقلية والجرأة على القديم فيتحول الاصلاح الدينى الى نهضة شاملة . نستمد علمنا من الطبيعة ونقضى على كل معوقات التقـــدم فى أذهاننا مثل

التصورات الهرمية للعالم التى هى أســاس مجتمعاتنا البيروقراطية والاقطاعية والرأسمالية ٠

مهمتنا التنوير ، والتنوير شرط التثوير فالى أن يحدث ذلــك حتى تتفجر طاقات الجماهير الاسلامية وحتى نعد قادة قادرين على قيادتها ، وحتى نؤسس أدبيات اسلامية ثورية جديدة يقرأها النشأ وتنشر فى أجهزة الاعلام قادرة على أن تحرك الطلبة والفلاحين والعمال، كما استطاعت كتابات مركوزه فى ثورات الشباب من أن تحدث ثورة شبابية فى الغرب ٠٠٠ فى ذلك الوقت فقط ، تتحقق بدايات الحلم ٠

لقد ربى الرسول الصحابة على مدى ثلاثة عشر عاما ، تحت الارض وفوق الارض ٠ فما كان أسهل فى بضعة أعوام أن تنطلق فى الجزيرة العربية جماهير وقادة حاملة فكر ورسالة تقضى على أكبر ثورتين عظيمتين فى هــذه الفترة : امبراطورية الفرس وامبراطورية الروم ، وفتحت جميع البلاد الاسلامية فى أقل من ٤٠ عاما من خراسان شرقا الى المغرب غربا ٠ لكن كل ما نرجو الآن هو اقامة وحدة وطنية وتجهيز البيت، من الداخل (أشداء على الكفار رحماء بينهم) ، واعداد الامة بجماهيرها وفكرها وقادتها الى تحقيق رسالتها فى منظور تاريخى وبوعى بالمراحل دون تسرع حتى لا نضع العربة أمام الحصان كمــا فعلنا فى الثورات العربية المعاصرة عندما قام الضباط الاحرار بانقلابات عسكرية دون أن يسبقها اعداد وثوير للجماهير على يــد المفكرين الاحرار ٠

● نصر على التوقف أيضا عند وسائل تطبيق هذا كله ، فما هى منابع واطر الادبيات التى ستتوجهون عبرها لنشر هذا الوعى ؟

● وسائل نشر هذا الوعى ، منابر الاحزات السياسية ، دور النشر الاسلامية التقدمية ، ولكن أفضل من ذلك كله الكتيبات الصغيرة والنشرات التى تباع بدراهم قليلة على نواصى الشوارع ويحملها المتطوعون دون كسب أو أجر • ومنبع هذه الادبيات موجود : المعتزلة فى علم التوحيد التى قضينا لسوء الحظ على معظمها فى التراث القديم ولم يبقى منها الا القليل ، الافكار على لسان الخصوم • مثلا نظرية العدل والاستحقاق والصلاح والاصلح •• وان الامامة لا تكون الا اختيارا ، ومن الفقه المالكى الذى أعطى فى مقاصد الشريعة وان الشريعة أتت للحفاظ على المصالح العامة : النفس والعقل والحياة والدين والعرض والمال ، وهى أسس الحياة المادية فى المجتمع الحديث• وفى الفلسفة : الكندى وابن رشد ، أى التيارات العلمية والطبيعية والعقلانية بعيدا عن التيارات الاشراقية الصوفية وكتابات الاصلاحيين المحدثين وتطويرها وكذلك كتابات محمد اقبال ، ثم اعطاء نماذج فى تاريخ الثورات الدينية المعاصرة فى آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية فالقضية عامة وهى كيف يمكن تثوير الشعوب التى مازالت مرتبطة بتراثها وتاريخها تستمد فيه ثقافتها وأيديولوجياتها ومذاهبها السياسية تعويضا عن أمتها •

● ذكرت محمد اقبال •• رغم انه نادرا ما يؤتى على ذكره رغم بصماته فى السعى لتجديد الفكر الدينى فى الاسلام •• لماذا ؟ وهل لاصل محمد اقبال سبب فى هذا ؟

● الحقيقة أن محمد اقبال من أهم الشخصيات الفكرية المعاصرة التى أرادت احياء الامة وتراثها وبعث روحها وفى نفس الوقت التصدى للغرب والغزو الثقافى لكل مظاهر التغريب التى نعانى منها

هذه الايام حيث مازلنا نعتبر الغرب مظهرا للعلم والمعرفة ونموذج التقليد والاقتداء . وقد ترجم الى العربية من قبل فى الخمسينات تجديد الفكر الدينى فى الاسلام .. كما ترجمت بعض دواوينه .. ومع ذلك فقد ظل اقبال لا يمثل رافدا اصلاحيا لعدة أسباب منهـا اننا نسينا فى وعينا القومى الاسلامى جناحنا الشرقى نظرا لارتباطنا بالغرب ولان الاستعمار نجـح فى جعل البحر الابيض المتوسط شمالا وجنوبا مركزا حضاريا شمالا وجنوبا . بالنسبة لنا فى المشرق نذهب غربا والمشرق يذهبون شمالا ولم يفكر أحد فى أن لنا جناحا شرقيا فى ايران والهند والملايو والفلبين والصين وأفغانستان وخراسان ، حتى الثورة العربية عندما بدأت بارسال البعثات الى الشرق وكان الشرق يعنى الجمهوريات الاشتراكية وليس العالم الاســلامى بالرغم من التنبيه الى أنه ليس فى الحقيقة الا العالم الافريقى الاسيوى . فهناك فى الوعى القومى كفتان غير متعادلتين بالنسبة لجناحى العالم الاسلامى الشرقى والغربى . بالنســبة لكم المشرق لا يتجاوز العالم العربى ، فى حين أن المشرق يمتد الى الصين .. نتعلم الانجليزية والالمانية والايطالية والاسبانية ، ولم نفكر فى تعلم الفارسية والاردية وهما أهم لغتين فى المشرق . فى زيارتى الاخير لافغانستان ، شعبى المسلم كان المترجم الروسى ، يترجم لى من الفارسية الى العربية وهــو الاجنبى . مع أن الاسلام أول ما انتشر ، انتشر شرقا . وفتحت خراسان وما وراء النهرين . وهناك رصيد ضخم لاهل السنة وصحابة الرسول والعروبة تعمل الى حد التبرك بأى عربى مسلم زائر يذهب اليهم .

ثم ان حركة الاصلاح الدينى عندنا بدأها الافغانى ومحمد عبده ورشيد رضا والكواكبى وحسن البنا وسيد قطب وخرج منها عبد

الحميد بن باديس ، جمعية علماء الجزائر ، تونس ، المغرب ، ولم يكن محمد اقبال أحد روافدها ، ولما كانت حركاتنا السياسية ، ارتبطت بحركة الاصلاح الدينى الاساسية لذلك لم يتحول محمد اقبال بالرغم من أهمية فلسفته فى بناء الذاتية الاسلامية وتحدى الغرب فى حركاتنا الاسلامية المعاصرة •

وهناك نقطة ثالثة وهى ارتباط حركة الاصلاح فى الهند وباكستان بحركات أخرى ترى انها اصلاحية ولكنها مشبوهة وتبطش بالغرب تعتمد على التصوف والاشراق ولا تدخل فى حركات التحرر ، بل تعاديها ، لذلك شجعها الغرب واعنى بذلك الاسماعيلية ، ووحيد الدين خان وغيرهم • مع أن محمد اقبال منفصل تماما عن هذا التيار الا أن فى عالمنا العربى الاسلامى كانت الحركات الاسلامية الباكستنية باستمرار موضع شك وتردد •

أما النقطة الرابعة فهى أن معظم أفكار اقبال كتبت أشعارا بالاردية ، لم نترجم منها بالعربية الا القليل فى حين معظمها مترجمة بالانجليزية والفرنسية ، روج لها الغرب كثيرا نظرا لارتباطها بالتراث الصوفى (نيكلسون — ميروفنتش) • والحركة الاصلاحية لدينا مرتبطة باللغة العربية وبالتراث الفقهى ولها رصيد ضخم من الوطنية فى الثورة العرابية وفى الثورة الهندية والسودانية المهدية وفى الثورة الجزائرية وفى حركة التحرر العربى •

أين العروبة ؟

● ألا ينبغى قبل كل هذا الانطلاق أن يكون هناك حديث ما عن

دولة عربية موحدة ؟ وفى رأيك أين يصير مشروع الوحدة العربية فى خضم الدعوة الى حركة اسلامية كبرى ؟

● فى حقيقة الامر نشأ صراع مفتعل فى وجداننا المعاصر بين العروبة والاسلام . نظرا لظروف الشام الخاصة به فى حين أننا فى المغرب الكبير خارج هذه المعركة المتوهمة فالعروبة والاسلام شىء واحد ، والوطنية والاسلام شىء واحد . حتى يهود المغرب هم عرب ثقافة ورؤية وهموما وأهدافا ، لكن لسوء الحظ نظرا لاننا كنا جميعا جزءا فى الخلافة العثمانية ونظرا لان أحد أسباب انهيار الخلافة هو قضية القوميات واضطهاد الارمن والعرب على أســاس أنها جميعا حركات أنفصالية ودعوات قوية تهدد وحدة الدولة .

نشأت القومية اذن كرد فعل على الخلافة العثمانية وعيوبها وعدم استطاعتها صهر القوميات فى اطار الوحدة الاسلامية كما فعل الاسلام قديما فنشأت العروبة تاريخيا فى مواجهة الاســلام ، أى الدولة العثمانية ، بالاضافة الى أن المستشرقين والمبشرين والارساليين قــد وجدوا فى تراجم فكرة العروبة ، دفاعا عن نصارى الشام كما وجدوا فى الفرعونية دفاعا عن أقباط مصر وفى الفينيقية دفاعا عن التراث المحلى فى الساحل الشرقى فى البحر الابيض . وقد يكون لذلك رصيد تاريخى ولكنها استخدمت كوسائل لتفتيت الخلافة والجر للتغريب نظرا لان الغرب هو الذى كان يحمل لواء القومية ، فنشأت حركة التحرر العربى من هذا المنبع ، خاصة بعد أن تحولت الدول الاسلامية كلهــا الى دول قومية بالمعنى السياسى والجغرافى وبقى الاسلام مجرد رابطة

روحية ثقافية تقوم على حد أدنى من التعاون بعد أن فقدت الامـة وحدتها السياسية .

وحتى الآن مازلنا فى مرحلة رد الفعل هذه ، نتصور أن الاسلام ضد العروبة، وأن العروبة ضد الاسلام ، هى مشكلة فقهية صرفة لا رصيد لها فى الواقع والتاريخ . فالقرآن لسانه عربى ، لكن العروبة ليست قومية عرقية جنسية تقوم على لون البشرة ونقاء الدم والعنصر، ولكنها حضارة وتراث ولغة يشاركنا فيه غير العرب .

هـ — كيف يفكر اليســار الاسلامى ؟

● **زحام المتمسحين بالاسلام يضـم كثيرين يبرأ الاسلام مما فعلوا .. ويفعلون ! لم يقل أحد منهم يوما كلمة حق فى وجه سلطان جائر ! لم يحتج أحد منهم حين جاع المسلمون ، وحين أصابهم الفقر وحطت عليهم المسـبغة ، وحين مرغت أعلامهم فى التراب ، ولطـخ تاريخهم بالوحل !**

● **ليس الاسلام ذقنا وجلبابا ومسبحة !**

الاهالى ١٩٨٢/٦/٧ حوار اسامة عرابى . وقد صدر الحوار بالفقرة الآتية :

ووسط زحام هؤلاء المتمسحين الذين يملأون الساحة ، تختفى أصوات مخلصة ، لمفكرين يريدون للاسلام أن يكون كما أراده الله عز وجل : دين المستضعفين من الرجال والنساء والولدان .. فقهاؤه ، ليسوا فقهاء سلطة . أو سلطان .. وفقهه ليس فقه حيض ونفاس .. لكنهم فى ابسط الاحوال من يقولون كلمة حق فى وجه سلطان جائر !

بين هؤلاء المخلصين ، يقف الدكتور حسن حنفى ، أستاذ الفلسفة الاسلامية بجامعة القاهرة ، فى موقع متميز ، كمفكر ، ومناضل ، وداعية متحمس لتحديد الدين وغربلة التراث ، ومفكر أصيل ، قد تختلف معه ، ولابد أن تختلف ، لكنك لا تستطيع الا أن تحترم هذا الصوت الاسلامى المميز الذى يعيد الى الاذهان اصداء صوت الافغانى الذى خفت أو ضاع !

و د. حسن حنفى يتميز الى جانب هذا بسعيه الدؤوب ، لاكتشاف الاسس النظرية والحركية للاسلام كقوة ، فى مؤلفه الهام الذى صدرت مقدمته باسم « التراث والتجديد » ، ويصدر الجزء الاول منه « من العقيدة الى الثورة » فى نهاية هذا العام . وهذا الحوار أضواء كاشفة على عقل حسن حنفى .

● **مطلوب مصالحة علنية بين ثورة يوليو والاخوان المسلمين .**

● **الحوار مع المعتقلين مساومات واستجداء والمأساة ستكرر .**

● **الدعوة الى « الحاكمية لله » رد فعل سلبى على مآسى العرب .**

● **الشيخ الشعراوى عالم ساحر بليغ لكنه يستغل الدعاية السياسية .**

الصحافة الدينية .

● ما رأيكم فى الصحافة الدينية التى كانت قائمة ثم توقفت ، كالدعوة ، والاعتصام ، والمختار الاسلامى ، وتلك التى حاولت أن ترث هذه الصحافة مثل « اللواء الاسلامى » والادوار التى اضطلعت بها ؟

— د. حسن حنفى :

لما كانت مصر أكبر الدول العربية الاسلامية ، وكانت محطا لانظار المسلمين ، فيها الازهر ، وبها دور النشر ، وبها العلماء الاجلاء لم تغب عنها الصحف الاسلامية منذ « محمد على » حتى الآن ، وكان آخر ما وصل منها لدينا العروة الوثقى ، والمنار ، والاخوان المسلمون ، ثم المسلمون ، والدعوة ، والمختار الاسلامى . وبصرف النظر عن الخلافات الجزئية بين هذه المنابر الا أنه يغلب عليها جميعا محاولة اعادة فهم الاسلام طبقا لروح العصر . وكان يتجاذبها تياران : تيار أسسه الافغانى نستطيع أن نسميه (اليسار الاسلامى) أو (الاسلام الملتزم) الذى يدخل فى قلب مشاكل العضر ، ويصطدم بالحكام ، ويتعرض لقضايا الحرية وتجنيد الجماهير ، وهى صحف

غالبا ما كانت تتوقف نتيجة للمصادرة أو طرد أصحابها أو اغتيالهم • والنزعة الثانية هى الحديث عن (الاسلام التقليدى) أو الشعائرى العقائدى الذى يتجنب الدخول فى المسائل الخلافية ، ويكتفى بمدح الاسلام العام الذى لا وجود له فى أى قطر من الاقطار ، أو الذى يوجد كاملا أو كمثل أعلى فى قلوب الناس • وغالبا ما يستمر هـذا التيار الذى تدعمه الدولة لانه يضفى على المجتمع مسحا دينيا مسالما تتستر تحته الدولة كى تفعل ما تشاء • وفى ذلك مقتل للاسلام لانه يجعله دين زاوية وذقن وجلباب ومسبحة وليس دين علم وثورة وجهاد ومصالح أمة • « العروة الوثقى » من النوع الاول ولكن لسوء الحظ تحولت « المنار » أو كادت الى النوع الثانى • واستمرت « الاخوان المسلمون » على طريق « العروة الوثقى » ولسوء الحظ أيضا تحولت الى النـــوع الثانى فى الدعـــوة والاعتصـــام وأيضا مجلات نـــور الاسلام ومنبر الاسلام ، وما أكثرها ، لا تسمن ولا تغنى من جوع •

ولكن أحيانا يفرض الواقع نفســـه ويفرض الاسلام السياسى نفسه على الاسلام الشعائرى ، كما حدث لمجلة « الدعوة » منذ اتفاقية الصلح مع اسرائيل ١٩٧٨ حتى انفجار أكتوبر ١٩٨١ • هكذا تحولت « الدعوة » الى نقد للمعاهدة ونقد للتحالف مع الاستعمار ، والانحياز للغرب ، والعزلة عن العالم العربى وقهر للحريات الى أن توقفت فى سبتمبر الماضى • فارادت الدولة أن تسد الفراغ الدينى فأنشأت مجلات من نوع « اللواء الاسلامى » تأييدا للاسلام الشعـــائرى المظهرى حتى تملأ الفراغ الدينى عند الناس خاصة فى مجتمعـــات اسلامية متخلفة مازالت ترى أن الدين يتعلق بالجوانب الروحية ، وان

الدولة هى المسئولة عن الجوانب المادية • وفى حقيقة الامر أن هذه الجرائد الدينية الحكومية أو الرسمية أو الجزبية ليس لها أى أثر لا من الناحية الدينيـــة ولا من الناحية السياسية ، على العكس من الجرائد السياسية الحزبية خاصة (الشعب) و (الاهالى) التى تجذب الشباب ، وتملأ الفراغ عن تلك التى تسمى بالجرائد القومية • ولكن لسوء الحظ يبقى الميدان فارغا من منبر اسلامى سياسى من نـــوع (العروة الوثقى) وما حاولت ملأه مجلة (اليسار الاسلامى) التى أصدرت منها عددا واحدا لكنها لم تستطيع ذلك لانها ليست جريدة يومية أو أسبوعية بل كتابات غير دورية •

ظاهرة الشيخ الشعراوى

● ما رأيكم فى ظاهرة الشيخ الشعراوى •• والتفســـير الذى يقدمه للقرآن الكريم ؟

— د• حسن حنفى :

على الرغم من احترامنا لجميع علماء المسلمين ، وعدم نقدنا لهم فهم مسئولون أمام الله وأمام الناس الا أن ظاهرة الشيخ «الشعراوى» تسترعى الانتباه نظرا لما تمثله من خطورة سياسية ودينية فى آن واحد •

فهو عالم له باع كبير فى سحر البيان والبلاغة ، والقدرة على التأثير وفهم لاحساسات القرآن ودقيقات المعانى • يستمع اليه الناس داخل مصر وخارجها • ولكن لسوء الحظ تستعمله النظم القائمة لتدعيم سياستها دون مراعاة من العلماء الاجلاء الى أى حد تتفق هذه السياسات

مع الاسلام أو تعارضه • فمثلا فى ليلتى ١٨ ، ١٩ يناير ١٩٧٧ عندما هبت الجماهير دفاعا عن قوتها ضد غلاء الأسعار تقدم الشيخ الجليل بحديث يبرر فيه قرار الحكومة بزيادة الاسعار بأن ذلك كالدواء المر الذى يصفه الطبيب لمعالجة المريض • وبعدها رأى المشاهدون « مدرسة المشاغبين » • هذا الدور اذن لعالم الدين يفقده استقلاله ، ويجعله مجرد تابع للنظام السياسى لانه موظف يخشى فقدان وظيفته وسلطته ومركزه • لهذا كان نظام الوقف السابق أفضل لان معاش العالم — بكسر اللام — يأتى من الاوقاف الاهلية وبالتالى لا يخشى من فقد قوت يومه فيظل صادق الكلمة ، قادراً على النصح لاولى الامر • وفى وقت يطالب الشعب كله فيه بمراجعة الحكام يقف الشيخ « الشعراوى » ليطبق الآية الكريمة على الرئيس السادات (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) وهى لا تنطبق الا على الله •

وأردف د• حسن حنفى يقول :

— السؤال الآن : ما هى وظيفة العالم — بكسر اللام ؟ هل هو فقيه السلطان ، وفقيه الحيض والنفاس ، أم أنه يسير أمام السلطان وليس وراءه ، ويتعرض للقضايا المصيرية للبلاد مثل الحرب والسلام ، والفقر والغنى ، والحرية والقهر ، والتجزئة والوحدة ، والاستعمار والتحرر ؟ لذلك نجدأن عالما جليلا آخر مثل الشيخ أحمد المحلاوى مازال معتقلا ؛ تحترمه الجماهير لصلابته فى الدين ، واستقلاله فى الرأى ، وقدرته على مواجهة النظام ، وقول الحق فى وجه حاكم ظالم • والقرآن فى نهاية الامر ليس سحرا ، ولا بيانا ، ولا اعجازا ؛ ولا تمثيلا ، ولا فتحا للعيون ، وهزا للاكتاف ، ورفعا للحواجب

ولكنه ايديولوجية سياسية واجتماعية واقتصادية للمسلمين تقوم على العقل والواقـــع •

البنوك الاسلامية :

● انتشر كثيرا موضوع البنوك الاسلامية فى مصر والسعوديه فالى أى حد يكون هذا اسلاميا ؟

— د• حسن حنفى : الدين فى المجتمعات الرأسمالية المحافظة يلعب دورا أساسيا فى المحافظة على تلك المجتمعات ، وذلك عن طريق اقناع الجماهير به لما كان الدين مازال موضع ثقة وايمان فى قلوب النـــاس •

وفى هذا الجو من المحافظة الدينية التى تؤيدها النظم السياسية تدعيما لها ، وخوفا من التيارات الدينية الثورية المستنيرة ظهر بعض التحرج من الفوائد على أنها « ربا » • فقامت هذه المجتمعات برفع الحرج عن طريق تأسيس ما يسمى « البنوك الاسلامية » ، وهى فى حقيقة الامر بنوك رأسمالية عادية تقوم على الربح ، وتوظيف أموال المسلمين فى البنوك الاجنبية • ودفعا للشبهة توضع كثير من الآيات القرآنية مثل « وأحل الله البيــع ، وحرم الربا » أو تغيير بعض الالفاظ أو التلاعب ببعض القواعد مثل المشاركة فى الارباح والخسائر وبذل الجهد • وفى النهاية ليست القضية فى هذه البنوك هى مقدار الفوائد ســواء أكانت كسبا حلالا أم لا بل رأس المال ذاته من أين يأتى ؟ هل من عوائد البترول التى هى ملك للافراد والعشائر والاسرة الحاكمة ؟ البحث اذن فى هــذه البنوك يجب أن يتوجــه الى ملكية

رأس المــال • واسلاميا « الركاز » ملك للامة • والركــاز هــو ما تحتويه باطن الارض من معادن مثل الحديد والنحاس والذهب والفضة ، على النحو الذى عرفه القدماء • وعرفنا نحن منــه النفط • ومن ثم اذا كانت رؤوس الاموال تأتى من عائدات البترول فانهــا تكون ملكا للامة تصرف تنمية الامة بلا فوائد تأكيدا للصالح العام وتوظيفا لبيت المــال وسدا لحاجات المسلمين • انما تنشــأ الحاجة الى « الربح » عندما يصبح رأس المال ملكية خاصة ، والحال ليس كذلك فى الاسلام •

حوار وراء الاسوار

● كيف ترى ما يجرى الآن من حــوار بين الدولة والمعتقلين من أعضاء الجماعات الاسلامية ، وبينهم وبين بعض رجــال الدين الذين توفدهم وزارة الداخلية للسجون لهذا الغرض ؟

— د• حسن حنفى :

ان كل ما يحدث الآن من محاولات الحوار بين الدولة وللجماعات الاسلامية — أعداء الامس ، وأصدقاء الغد — لن يأتى بنتيجة طويلة الامد فلا يوجد حوار بين سجان ومسجون •• انما الحــوار بين الانداد والاحرار •

ومن ثم لابد أيضا من ضرورة الافراج عن جميع السياسيين — اسلاميين أو علمانيين — ثم يتم الحوار بعد ذلك • انما الحوار الآن يتم عن طريق المساومات واستجداء الرضا ، والدخول فى الاحلاف والتنازلات المتبادلة حتى تتكرر مأساة الامس • وما حدث بين الجماعات

الاســلامية والنظام السياسى الســابق هناك مشكلة حقيقيــة وهى الازدواجية فى فكر الامة بين حركة اسلامية تجد أصولها فى التراث القديم وحركة علمانيــة تجد أصولها فى التراث الغربى ، والجماهير المطحونة بالفقر ، والتى تئن مــن القهر ، وترزح فى رداء اللامبالاة حائرة بين هذا وذاك . وأضاف جيلنا على هذه الازدواجية الثأر بين الاسلام والثورة كما جسده الصراع بين الاخوان والضباط الاحرار . فلا حوار بين طرفين غير متكافئين ، متباعدين متنافرين . يجب أولا تصفية الخلافات الوقتية وتجاوز مرحلة الاخــذ بالثأر عن طــريق مصالحة علنية بين الاسلام والثورة .. عن طريق السماح بحركــة اســلامية علنية مثل « الاخــوان المسلمين » ، تقوم ببلورة التيار الاسلامى ، وتجنيد الجماهير ، وتربية الشباب ، وحماية الاصالة ، والقضاء على التغريب . وما أسهل أن يتم ذلك عن طريق رفع الخطر عن نشاط الجماعة ، والغاء قرار حلهــا ، واعادة المركز العام لهم التى اشترته الجماعة بأموالها وحلى نسائها . والاعتذار لهم ، وتكريم شهدائها . ثم توجه الحركة الاسلامية نحــو التحديلت الحقيقيــة للمجتمع المصرى ، وأن يصب جهدهم داخل الوعاء المصرى وليس على هامشه . وبالتالى ينتهى الازدواج فى الامة ، ويتكون مجتمــع اسلامى ثورى أو ثورى اسلامى نتجاوز به معا الثورة الاسلامية فى ايران ، والثورة العربية فى مصر والشام ، والانظمة المحــافظة فى الحجاز . وهذا ما تستطيعه مصر .

ظاهرة الردة :

● تراجع الاستاذ « خالد محمد خالد » فى كتابه « الدولة فى الاسلام » — الذى صدر عام ١٩٨١ — عن دعوته التى طالما تنادى

بها ، وحرص عليها فى كتابه (من هنا نبدأ) — الذى صـــدر عام ١٩٥٠ — من ضرورة الفصـــل بين الدين والدولة الى التصريح البين بأن الاسلام « دين ودولة ، عبادة وسياســـة » • وقبله كان طه حسين والشيخ على عبد الرازق مثلا • هل المأزق الذى وقع فيـــه هؤلاء يكمن فى المنهج ذاته • أو أنه يعزى الى عجز وتخلف البرجوازية المصرية فى تطورها الرث الذى لا يقدم آفاقا ؟

— د• حسن حنفى : الظاهرة — ظاهرة الردة أعم من الافراد • بل تشمل الجماعات والحركات وربما التاريخ • لقد حدث تراجع فى حياة « على عبد الرازق » وحياة « طه حسين » وحياة « خالد محمد خالد » نظرا لتقدم العمر والسن وشدة مقاومة المجتمعات بالرغم مما عاشته من نظم ليبرالية وقومية واشتراكية الا أن المحافظـــة الدينية تسرى فى الاعماق سريان النار فى الهشيم •

الظاهرة اذن سياسية ، اجتماعية ، تاريخية •• هناك ردة على مستوى أربعة أجيال منذ فجر النهضة العربية الحديثة بروافدهـــا الثلاث • لقد أسس « الافغانى » حركة الاصلاح ولكنها هبطت الى النصف عند محمد عبده.ثم الى النصف عند رشيد رضا • ثم حاول الاخوان المسلمون تنشيط الحركة لكن نظرا لما حدث لها انقلبت الى الضـــد على يد الجماعات الاســـلامية • وأصبح ما نادت به حركة الاصلاح من مقاومة الاستعمار ، وقضاء على التخلف ، وتوحيـــد الامـــة أقصى ما يبلغه جيلنا من آمال • وبدأ الطهطـــاوى التيـــار الليبرالى ولكنه هبط الى النصف على يد الجـــيل الثانى من أمثـــال

لطفى السيد والجيل الثالث من أمثال طه حسين والعقاد . والجيل الرابع من أمثال سندباد مصرى — حسين فوزى — حيث انتهى اما الى التغريب واما الى التعتيم مع مطالبة المجتمع كله باعادة محاكمة طه حسين — أنور الجندى — ونهاية عصر الحرية بضياع الحرية ، وسيادة القهر والتسلط . وبدأ التيار العلمى على يد شبلى شميل ، ونقولا حداد ، وفرح أنطون ولكنه هبط الى النصف على يد سلامة موسى ، واسماعيل مظهر ، وزكى نجيب محمود ، وفؤاد زكريا ، وانتهى الى العلمانية المطلقة أو الى تقريظ التراث أو الهجوم عليه أو نقده من أجل الربط بين العلم الغربى وتراث الامة . وذلك راجع اما الى تصور النهضة على نمط غربى أو الى عدم تأصيل الجذور الى الاسس النظرية وشروط النهضة أو الى عدم تحول النهضة الى حركة جماهيرية واسعة حتى تتحول حركة التنوير الى ثورة . فالتنوير ليس فقط تجربة غربية تدور فى حلقات مثقفة محدودة الاثر فى مقاهى مصر وصالوناتها الادبية . بل « التنوير » حركة جماهيرية تستمد جذورها من الحركات التنويرية السابقة عند المعتزلة والفلاسفة والعلماء والفقهاء المجددين . مظاهر الردة اذن شاملة تتجاوز الافراد والمجتمعات والعصور . وما لم ترسن قواعد النهضة على نحو جذرى أصلى داخلى ستظل حركاتنا فى التحديث نسبية ، غربية ، خارجية .

التجديد الاسلامى :

● هناك كتاب اسلاميون تجديديون عديدون مثل د. خلف الله ود. عمارة فما أوجه الاختلاف والاتفاق فيما بينهم . وأين تضع نفسك فى مصافهم ؟

ـ د. حسن حنفى : لم يصبح الاسلام التجديدى تيارا واضحا بعد له أسسه وقواعده ونظرياته وجماهيره وتنظيماته وجرائده وأثره على السلطة وثقله الادبى لانه مازال حتى الآن مجموعة من الافراد المستنيرين داخل مصر وخارجها مثل محمد عمارة ، وطارق البشرى ، وخلف الله ، وكمال أبو المجد ، وعبد العزيز كامل . وبالرغم مما يجمع بينهم من أوجه الاتفاق العديدة مثل ضرورة التجديد ، والتحديث ، والالتزام بقضايا الامة ، والدعوة الى العقل ، والدفاع عن مصالح الناس ، والجرأة فى التجديد ، والاستقلال عـن السلطة أكثر أو أقل ، الا أن التمايز بينهم واضح . فالبعض يركز على التجديد فى الشريعة الاسلامية (كمال أبو المجد ، خلف الله ، عمارة) أو ابراز الجوانب المضيئة فى تاريخنا القديم أو المعاصر واعادة نشر المؤلفات الكاملة لزعماء الاصلاح ـ عمارة ـ وتأصيل الاسلام السياسى فى مبادىء أصول الحكم عند المعتزلة ـ عمارة . الا أنه حتى الآن لم يحدث تجديد على مستوى العقيدة ، ولم ينشأ حوار جاد بين الأصولية الاسلامية والحركة العلمانية . ما يهمنى التجديد على مستوى العقيدة النظرية من أجل تأسيس أيديولوجيـة ثورية اسلاميـة قادرة على استيعاب جميع الايديولوجيات الثورية المعاصرة ، وفى الوقت نفسه ارتباطها بجذور أصيلة فى العقيدة ، وفى تراث الامة ووجدان الجماهير ، وفى واقع الناس .

فمثلا أبرز ـ أنا ـ أهمية الارض فى عقيـدة التوحيـد حتى تساعد فى عملية التحرير ، تحرير أراضى المسلمين . والله فى القرآن رب السموات والارض ، وهو الذى فى السماء اله ، وفى الارض اله . كما أركز على قضية « العدالة الاجتماعية » وحق الفقراء فى

أموال الاغنياء . وعلى قضية حريات الناس والنصح للمسلمين ، وارشاد أولى الامر — أمامهم وليس خلفهم لتأصيلهم لا تبريرهم . كما اختلف عنهم فى أنهم قد يقصرون جهدهم على ما هو مكتبى نظرى . فى حين أن الاجدى هو الجمع بين ذلك ، وبين النضال السياسى . فمن اتون المعركة يبرز التجديد . ومن قلب المعارك يبرز الجديد . وقد تطورت — أنا — كثيرا من الممارسة أكثر مما تطورت من القراءة . بالاضافة الى أن بعض المجددين يرضون بالشهرة والكسب والكلمة السريعة التى ترضى أذواق الجماهير . فى حين أن الاجدى العمل الدؤوب على الامد الطويل ، والعبارة المحكمة الخالية من الانشاء والصيغ الخطابية ، ومخاطبة عقول الناس ، وتصوير واقعهم حتى يمكن أن تصبح الايديولوجية الاسلامية الثورية الجديدة تحديا جديدا للايديولوجيات العلمانية المعاصرة ، ومحور جذب للجماهير الواسعة .

هل هو صراع دينى ؟

● لاحظ البعض عدم دقة بعض المفاهيم التى استخدمتموها فى مجلتكم (اليسار الاسلامى) ومنها انكم نشرتم مقالا عنوانه « هل يجوز شرعا الصلح مع بنى اسرائيل ؟ ويقول هؤلاء ان استخدام مصطلحات مثل بنى اسرائيل و « اليهود » بدلا من « الصهيونية » ومثل شرعا بدلا من « سياسيا واقتصاديا ووطنيا » ويقولون ان الصراع العربى — الاسرائيلى ليس صراعا دينيا بحال من الاحوال ؟

— د. حسن حنفى : أنه على يقين من أن الحركة الصهيونية

حركة صهيونية بالاصالة نشأت ابان المد الاستعماري الغـربي في القرن الـ ١٩ الاوربي أثناء السيادة الرومانسية والقومية وفكرة العودة الى الجذور والانتشار خارج أوروبا لزيادة تجميع المواد الاوليـة ونشر الحضارة الاوربية على سواحل افريقيا وآسيا بعد أن نجحت التجربة أو كادت في العالم الجديد .

لكن الردة التي حدثت في مصر خلال العشر سنوات الاخيرة ، وقلب الحقائق والمسلمات الرئيسية لجيلنا جعلتني أتوجه الى وجدان الشعب ودفعني الى ذلك أيضـا محاولة أجهزة الاعلام الحـكومية الدفاع عن الصهيونية وتصديرها لنا ، معلنة بأن اليهـودي لم يعد ذلك المحدب الظهر ، المقوس الانف ، الاخنف الصوت ، المرابي العجوز بل الانسان الصديق الذي يحافظ على الكلمة والوعد والشرف والذي يبغى مصلحة مصر !! كنت أخشى مـن آثار الموز والبيض والدواء الاسرائيلي الذي بدأ يغزو الاسواق ، وخلق طبقة ترتبط مصالحها بالنظام الاسرائيلي . فأنا هنا منظر الثقافة الشـعبية ، وجدت في القرآن بسـلاحا يفيد القضية ويحرم موالاة بني اسرائيل ، ويكشف عن مخططاتهم وألاعيبهم .

لم نفهم !

● لم أفهم ، ولم يفهم كثيرون قولكم في مجلتكم « اليسـار الاسلامي » انكم ترون أن السياسة في ثقافة الامة ونهضتها ، وأن تياركم ليس موجها ضد حكومات أو نظم ، لان المعارك ، كما تقولون ، ثقافة الامة وداخل وعيها الحضاري ، فهل أصبحت الثورة مجـرد فكرة في الرأس ، موضوع ثقافي ؟ !

ـــ د. حسن حنفى : نظرا لكل ما فات وجدت أنه قد آن الاوان لبداية نهضة اسلامية لا تتعثر ، وأن تقــوم على أسس جذرية تؤصل نفسها وتواجه تحديات العصر ، وتعمل فى اطار من الوحدة الوطنية لا تحقد على أحد ، بل تحيى الجميع ، وتقوى وتدعم كل الحــركات الوطنية . فالاسلام هو الأقدر على أن يكون بوتقة الحركة الوطنية كما حدث فى الثورة الاسلامية فى ايران قبيل سقوط الشاه . أريد أن أبدأ هذه المرة بالمفكرين الاحرار وليس بالضباط الاحرار . أريد أن أضع الحصان أمام العربة لا العربة أمام الحصان . وذلك يتطلب اعادة بناء الثقافة الوطنية ، واعادة بنــاء التراث القديم ، وأخــذ موقف من الهيمنة الغربية على الثقافة والارض ، وتوجيــه شــعور الناس نحو الواقع ، والمصلحة العامة . ربما لن نكون الجيــل الذى سوف يرى مجتمعاتنا حرة ، اشتراكية ، علمية . ولكننا قــد نكون الجيل الذى يمهد لذلك عن طريق اعــداد الابنية الفوقية والتجهيــز للثورة . فما أسهل نقل النظريات والتكنولوجيا والعلم دون أن تتغير الابنية التقليدية فى الذهن والشعور ، وفى تصوراتنا عن العــالم . وياليت هناك تنظيم شعبى أو سياسى يتبنى قضية « التنوير الاسلامى » أو توحيد عنصرى الامــة ، وأن يجد فى الاسلام كتراث ثورة تمتد الى وجدان العصر . وعلى هذا النحو نحفظ الامــة من الوقوع فى المحافظة الدينية وفى الثورة العلمانية . فالمحافظة الدينيــة انعزال وتخلف ، والثورة العلمانية انقطاع وقصر نظر .

نظرة الى الغد

● ما تصورك مستقبل الامة ؟

ــ د. حسن حنفى : نحن نعيش فى عصر تذبح فيه المقاومة ، ويقضى على الشعبين : الفلسطينى واللبنانى أمام الجميع . يقف الفكر فيه عاجزا بصرف النظر عن تياراته لا فرق فيه بين حركة اسلامية ، وحركة تقدمية ، مما يصيب الانسان بالغثيان . ومع ذلك فمعارك التاريخ طويلة . الدعوة الى « الحاكمية لله » التى ترفعها الجماعات الاسلامية الآن ما هى الا رد فعل على مآسى العرب وأحزان المسلمين ، رد فعل سلبى أكثر منه وضع ايجابى . وضع الامة اذن فى حاجة الى اعادة نظر على المدى الطويل . معاركها مستمرة ، تتعلم من تجاربها ، وتسترشد بأبنائها . تتكاتف كل الجهود، وتتحاور كل الآراء . فالوطن للجميع .. لا حكر فيه لاحد على أحد . امكانات الامة هائلة ماديا وبشريا ، تاريخيا ومستقبليا . وطالما تتمخض المآسى عن بواكير نهضة جديدة . فالاعداد للثورة ، الثورة الدائمة ، وتربية الاجيال خطوة ضرورية ، وعدم التفريط فى المبادىء أو الحقوق أو تقديم التنازلات شرط جوهرى . الحق باق ، والباطل ذاهب . هناك فرق شاسع بين الحكومات والشعوب ، وفرق شاسع أيضا بين ما يبدو على السطح ، وما يعتمل داخل النفوس . فلربما كانت مآسى اليوم فاتحة يقظة جديدة . فليس لنا نقاء الدم والعنصر ولكن لنا الارض والمعبد والهيكل والنصر دون مقابل باذن الله . ولكن كيف يحدث اللقاء بين وعى الافراد .. وحركة الجماهير ؟ .. هذا هو السؤال .

و ــ حديث حول الوحدة الوطنية :

١ ــ ما هو تصورك لنوعية الاخطار التى تواجه فكرنا العربى المعاصر ؟

ان أهم الاخطار التى تواجه فكرنا العربى المعاصر هى « أحادية الطرف » أى سيادة الرأى الواحد ، وغياب الحوار بين الاتجاهات الفكرية المختلفة حتى أصبح كل من يخرج على المألوف متهما بالكفر أو الالحاد أو الخيانة أو العمالة .

٢ ــ ما هى مظاهر الازمة فى حياتنا العربية العامة وحياتنا العادية ؟

تظهر هذه الازمة فى حياتنا العامة فى غياب الترشيد ، وسيادة العقل . فمازلنا نتعامل مع الواقع بالعضلات أو بالعمل اليدوى دون ترشيد للعمل أو للسلوك مما سبب الفوضى فى حياتنا العامة ، فى المواصلات والحياة . كما تتمثل أيضا فى عدم الاحساس بالزمان حتى أصبحنا نموذج الزمان الضائع ، لا تفرق فى حياتنا الساعات أو الايام بل والاسابيع والشهور والسنوات . وهذا ما عرف عنا بعدم الدقة فى المواعيد ، وعدم تحديد ساعات الزيارات ، وعدم التمييز بين أوقات

أجرى الحوار محمد عثمان لمجلة روزا اليوسف عام ١٩٧٦ ولكن يبدو أنه آثر نشره فى مكان آخر . وهذا ملخص الحوار أعيد كتابته من المسودة الاولى فى ديسمبر ١٩٨٨ . انظر الحوار السابق مع جريدة الشعب الاردنية ص ٢٥٩ — ٢٧٣ .

العمل وأوقات الراحة • فنستريح ونحن نعمل ، ونعمل ونحن نستريح• ويتضح ذلك من عبارات « أبقى أفوت عليك » دون تحديد موعد حتى خلطنا بين الحياة العامة والخاصة ، بين الجد والهزل • لم نعد نحسب الوقت بمقدار ما ننتج فيه حتى أصبح انتاجنا القومى محدودا بأقل من ربع الوقت اليومى ، وأصبحنا نضيع من الزمان أكثر مما ننتج فيه كما يحدث فى البطالة المقنعة لدى بائعى الارصفة ، ومتسلقى المركبات، والعمالة الزائدة فى دور الحكومة •

٣ ـ ما هى الاسباب التى نتجت عنها أزمة الفكر ؟

لقد نتجت أزمة الفكر من سيطرة السلطة السياسية على جميع مواطن الفكر ، وعدم التمييز بين السلطة السياسية والحرية الفكرية • فقد ظنت السلطة أن الحرية الفكرية موجهة ضدها نظرا لعدم شرعيتها وعدم تعبيرها عن القواعد الشعبية العريضة • وساعدت السلطة الدينية السلطة السياسية فى ذلك عن طريق فرض التفسير الواحد ، وتكفير كل ما عداه • فالحاكم السياسى الواحد والتفسير الدينى الاوحد هما سبب أزمة الفكر المتمثلة فى أحادية الطرف وغياب الحوار •

٤ ـ ما هو موقف الفكر الاسلامى والفلسفة الإسلامية المتحررة من حرية الفكر ؟

لقد قامت حضارتنا القديمة التى نعجب بها ونفخر على حرية الفكر ، وعلى الحوار المتبادل بين الاتجاهات الفكرية المختلفة التى ظهرت فى الفرق الكلامية • وكان الشيخ يسند ظهره على عامود المسجد ويدرس ثم يعترض الطلاب ، ويحاورون شيخهم أو ينفصلون

عنه ، ويكونون حلقة أخرى حول العامود المجاور . وفى الحديث « اختلاف الائمة رحمة بينهم » ، وكلها اتجاهات شرعية لم يتهم أحد منها الآخر كما نفعل هذه الايام ، ونوزع اتهامات الكفر والخيانة . وفى الحديث « أصحابى كالنجوم فبأيهم اقتديتم اهتديتم » . وكان هناك خلاف بين الصحابة . فكان الرسول يقول لعمر : يا عمر ، ارفع قليلا ، وكان يقول لابى بكر : يا أبا بكر ، أنزل قليلا . فقد كان أبو بكر أكثر التصاقا بالفكر على حساب الواقع وكان عمر أكثر التصاقا بالواقع على حساب الفكر ، وكلاهما موقف شرعى . وتأتى المصائب من الحديث الموضوع « ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار الا واحدة .. هى ما أنا عليه أنا وأصحابى ... » وهو الحديث الذى يرفضه ابن حزم باعتباره مجافيا لروح الجماعة وأن الامة لا تجتمع على ضلالة . وقد وضعت مثل هذه الاحاديث لاعطاء الشرعية للسلطة القائمة ولتكفير المعارضة .

٥ — هل وصل العقل العربى يوما الى درجة التحرر ؟

بالطبع نعم . لقد استطاع العقل الاسلامى فى تراثنا القديم أن يصل الى أقصى درجات التحرر خاصة عند المعتزلة ، وهم المفكرون الاحرار فى الاسلام ووضعهم الاسس النظرية للعقائد فى أصول خمسة : التوحيد ، والعدل ، والحسن والقبح العقليان ، والوعد والوعيد ، والامر بالمعروف والنهى عن المنكر . ففى مبدأ التوحيد استطاع التنزيه أن يقضى على كل مظاهر التشبيه والتجسيم والتشخيص التى مازالت سائدة فى عقليتنا اليوم . فنحن لا نفكر الا بضرب

الامثال والاشباه • كما أننا نشخص الافكار والنظم ، ونؤرخ لحياتنا بأسماء الاشخاص ، وتعرف مؤسساتنا بأسماء المديرين • كما استطاع المعتزلة اعطاء الاساس الخلقي للتوحيد ، واعتبار الصفات الالهية مبادىء للسلوك ، ومثلا للحياة الفاضلة ، وغايات يحققها الانسان • كما أعلن المعتزلة حرية الانسان ، ومسئوليته عن أفعاله ، وأن العمل هو مصدر القيمة ، وهو ما عرف باسم الاستحقاق ، وليس كما نحن فيه الآن من قدرية وتواكل ، وتسليم بالمحتوم ، ورضا بالمكتوب • وجعلوا العقل أساس النقل ، وأن كل من يقدح فى العقل يقدح فى النقل ، وليس كما نفعل الآن من هدم للعقل ، ومن اعتماد على قال الله ، وقال الرسول ، ومن تكييف لواقعنا وحياتنا على النصوص ، واستمداد طبنا من حديث جناحى الذبابة ، وأعلنوا حتمية قوانين الطبيعة وبالتالى أمكن تأسيس العلم الطبيعي وليس مثلنا نعيش فى عالم لا يحكمه قانون • كما جعلوا الامر بالمعروف والنهى عن المنكر أساس العلاقات الاجتماعية وصلة المحكوم بالحاكم وليس كما نفعله نحن من تبرير لقرارات السلطة أو خوف من ارهابها •

٦ — لماذا تم تصفية الاتجاه العقلانى فى الفلسفة الاسلامية وكيف ؟

لقد حدثت هذه التصفية فى القرن الخامس الهجرى بعد هجوم الغزالى على العلوم العقلية وعلى رأسها المنطق والفلسفة ، والدعوة الى التصوف والى العلوم القلبية ، وهو ما نحن فيه حتى الآن • كما حدثت أيضا أن سادت الاشعرية ، وتم القضاء على المعتزلة فى محنتهم• ورثنا التصوف والاشعرية ، وسادا فى حياتنا اليومية وفى معاهدنا الدينية حتى الآن ، وكلاهما يقومان على الانقياد والتسليم • وقــد

وجدت السلطة السياسية منذ العصر المملوكى التركى فى هذا التيار أكبر دعامة للحكم • فالانقياد والتسليم فى الدين يؤدى الى الطاعة والولاء فى السياسة •

٧ — هل الازمة فى الفكر الاسلامى نتيجة لغياب المنهج العلمى فى تناول القضايا الفكرية ؟

اننا نروج هذه الايام كلمتى العلم والتكنولوجيا وكأنهما مفاتيح سحرية ندخل بهـا عالما آخر حتى تحولا الى أسطورة مضافة الى أساطيرنا • والحقيقة أن العلم خطوة تالية للعقل ، والعقل يقوم أساسا على الاستقلال عن كل ما سواه • تتلخص الازمة اذن فى غياب المنهج العقلى الذى هو أساس التصور العلمى للعالم • واللاعلمية فى حياتنا ترجع الى اللاعقلانية • ولقد استطاع علماؤنا قديما انشاء العلم نظرا لادراكهم لوظيفة العقل وكيفية استعماله • والعقل يشـمل الحس والتجربة والتاريخ معا •

٨ — ما هو دور الفكر الدينى الموجود فى الحجر على حرية الفكر والابداع ؟

هناك أنماط عديدة من الفكر الدينى : هناك فكر دينى يبدأ من النص ، وتكون وظيفة العقل تبرير النص ، ويهدف الى تكييف الواقع حسب النص • وهو الفكر الذى أوقعنا فى الغيبيات وفى التفكير فيما يضر ولا ينفع • أدنا الواقع كله وخرجنا عليه وعاديناه • ولكن هناك فكر دينى آخر يقوم على العقل أولا كما هو الحال عند المعتزلة وعلماء أصول الدين أو يبدأ من الواقع كما هو الحال عند علماء أصول الفقه خاصة المالكية منهم • فالعقل هو وسيلة الترشيد فى حياتنا ، والاجتهاد هو سبيل التقدم ، وهو ما سماه اقبال مبدأ الحركة فى الاسلام •

ز ـ التحديات السبعة التى تواجهنا اليوم :

- عيبنا أننا ندرس روحا منتصرة فى بدن مهزوم •
- لا فرق بين من ينقل عن ابن تيمية وبين من ينقل عن كارل ماركس •
- لماذا لا يكون شعارنا هو نفس شعار الامام الشافعى : رأيى صواب يحتمل الخطأ ، ورأيك خطأ يحتمل الصواب •
- كل الزعمـــاء المصريين من عرابى حتى عبد الناصر كانـــوا اسلاميين •
- أربعة أحزاب فقط تعبر عن الشعب المصرى : الاسلامى ، والناصرى ، والليبرالى ، والماركسى •
- مطلوب حوار وطنى بين كل الاحزاب •
- الاسلام هو الوسيلة الوحيدة للوصول الى عقل وقلب الجماهير•
- كل الزعماء المصريين من عرابى حتى عبد التاصر كانوا اسلاميين•
- أربعة أحزاب فقط تعبر عن الشعب المصرى : الاســـلامى ، الناصرى ، الليربالى ، الماركسى •

صباح الخير ، مايو ١٩٨٨ ، وقد صدرته اقبال بركة بالفقرة الآتية :

وسط معمة المبارزات الفكرية التى تصم آذاننا منذ فتحت بوابـــة الديمقراطية فى بلادنا لنعبر الى بستان التنمية والتقدم ، الا يجدر بنا أن نتوقف لحظات لنسترد الانفاس ونتأمل المشهد حولنا ، محليا وعالميا ، وأن نحاول ترجمة خريطة العالم حضاريا لنستشف موقعنا . من أين جئنا . والى ماذا نسير ؟ !

● مطلوب حوار وطنى بين كل الاحزاب .

● كان سؤالى الاول : ما تعريفك الخاص للحضارة ؟

ـ أجاب : هناك تعريفات عديدة للاكاديميين ، لكن ما يهمنا نحن

نحن مازلنا فى مرحلة البداية ، لم نعبر بعد الى الساحة الديمقراطية الرحبة ، ومع ذلك فكل منا يتربص بالآخر ليمنعه من الدخول . كما لو كان بستان الديمقراطية لن يتسع الا لهرة واحدة ، لابد كى تزدهر من أن تختنق وتذبل ، بل وتموت كل الزهور الاخرى !!

هناك من نصبوا أنفسهم حراسا على البوابة ، لا يؤذن بالدخول الا لمن يتمسحون فى أعتابهم ويحظون برضاهم . واسلاميون يرشقون علمانيين بسهام الكفر ، وماركسيون يشحذون المناجل لاجتثاث الفكر السلفى . وضرب حواة الراسمالية والثروات الطفيلية . بينما رجال انشغلوا بقضية اهم واخطر الا وهى منع المراة من المشاركة ، لانها لا تصلح — فى رايهم — الا للفراش والمطبخ والحديقة الخلفية .

كيف تبدو الصورة فى عيون مفكرينا ؟ ! ما التحديات التى تواجهنا اليوم ؟ وكيف السبيل الى مواجهتها والتغلب عليها واستكمال مسيرة الاستقلال السياسى والاقتصادى والثقافى ؟ !

وكما يشخص الطبيب الداء ، وجدت المفكر المصرى الدكتور حسن حنفى ، يشير للعلة التى اصابت البدن العربى الاسلامى ، ويعرف الحل ، وقد كتبه فى مؤلفاته العديدة بالعربية والفرنسية والانجليزية حول القضايا المعاصرة واليسار الاسلامى والتراث والتجديد . وعلى الرغم من ابتعاده المكانى عن مصر لسنوات عديدة استعارته فيها جامعات طوكيو والولايات المتحدة الامريكية والامم المتحدة والمغرب ، الا أن ذهنه العربى ظل حاضرا ، وحسه المصرى وانتماءه الاسلامى لم يتراجعا لحظة واحدة عن متابعات كل الاحداث فى بلده وكتابة العديد من المقالات فى الصحف العربية حولها . واخيرا جمعها فى ثمانية مجلدات تحت عنوان « الدين والثورة فى مصر من ٥٢ — ١٩٨١ » .

فى العالم العربى الاسلامى وفى مصر أن الحضـــارة هى قدرة شعب ما على أن يستجيب لتحديات العصر وأن يعطينا حلولا جديدة غـــير منقولة لا من نماذج قديمة ولا من نماذج معاصرة ، يعنى لا من أبداعات الآباء والاجداد فهم رجال ونحن رجال ، نتعلم منهم ولا نقتدى بهم ، ولا من ظروف مشابهة لحضارات أخرى ، لان كل حضارة لها خصوصياتها وظروفها • فالحضارة فى رأيى هى القدرة على الدخول من شعب ما فى تحديات العصر والحصول على حلول ابداعية قادرة على الحفاظ على هويته ، وفى نفس الوقت على الاستجابة لهذه التحديات •

● قلت : ما دمت ترى أن لكل حضارة خصوصياتها التى يجب أن تلتزم بها عند تقدير الحلول لتحديات العصر ، فما خصوصيات الحضارة التى نعيش فى ظلها — كعرب ومسلمين — هذه الايام ؟ !

— قال : الحضارة هى ما ترسب فى أعماقنا خلال أجيال عديدة ، أى أنها المخزون النفسى • وفى منطقتنا لا يختلف المسلم عن المسيحى عن اليهودى سواء كان من القدماء أو من المحدثين • فمثلا المترجمون القدماء حنين بن اسحق ، واسحق بن حنين ، ويحيى بن عدى ، وبشر

والدكتور حسن حنفى حاصـــل على دكتوراه الدولة من جامعـــة السوربون بفرنسا عام ١٩٦٦ حول مناهج التفسير ، وظاهريات التفسير وتفسير الظاهريات • ويعمل حاليا أستاذ الفلسفة الاسلامية بكلية الآداب جامعة القاهرة •

متى بن يونس كانوا نصارى دينا ولكنهم كانوا عربا لغة ، وكانوا مسلمين ثقافة ، وهؤلاء عندما ترجموا الثقافة اليونانية فعلوا ذلك ولاء للحضارة العربية وللثقافة العربية وليس للحضارة الاجنبية .

وعلى المستوى الشعبى : ما الفرق بين المصرى الذى يذهب الى القديسة سانت تريزا فى شبرا وذلك الذى يذهب الى السيدة نفيسة ؟ ان هناك دينا شعبيا عاما يغلب عليه احترام القديسين والاولياء وسيادة العبادات والطقوس ، وكل مظاهر الاحتفالات الدينية عند الاقباط والمسلمين المصريين تقريبا واحدة . عند المثقفين المحدثين هناك تصور ثقافى واحد للدين ، عند الخاصة ، وعند الطبقة المتوسطة . وهناك تصور واحد للدين أيضا يدعو الى الالتزام بالقيم العليا والامانة والشرف .. الخ . أنا مثلا أنظر الى نفسى كمصرى المولد ، عربى اللسان ، اسلامى الثقافة ، وفى هذا لا يختلف أى قبطى أو يهودى مولود بمصر ، عربى اللسان ، فالاسلام ثقافة نعيش فى ظلها جميعا .

● قلت : أنت اذن ترى الاسلام ثقافة ، الى جانب كونه دينا سماويا ووحيا الهيا .. فماذا عن الاسلام كحضارة ؟ !

ـ قال : عندما نشأ الاسلام قديما لم يكن لدى العرب سوى الشعر ، وبعض العادات والاعراف وقوانين التجارة والقيم العربية القبلية . ولكن بفضل الاسلام ، أى بفضل الوحى المنزل ، تحول هؤلاء الى صناع حضارة وأساسها العلوم كعلوم التصوف والفقه والحديث والرياضة والكيمياء والفلك والصيدلة والنبات والحيوان والجبر

والحساب والهندسة والموسيقى .. الخ . وفى نفس الوقت كانت الجيوش الاسلامية تقوم بمهمتها فى فتح الامصار أى أنه كان هناك شعب يقبل التحديات وينتصر ، وجيوشه ممتدة الى أراضى الفرس والروم فتهزمها وترث حضارتيهما فى وقت قياسى لم يشهده التاريخ من قبل . كان المسلمون يستجيبون لحاجات عصرهم عندما أنشأوا علم الكيمياء تعبيرا عن حاجات صناعة السلاح وتطور علم الطب والادوية والاعشاب لعلاج المجندين الجرحى ، وتطور علم الفلك لمعرفة مواقيت الصلاة ، وعلم الحساب والهندسة لمعرفة زاوية القبلة ، وعلم التشريع والفقه لكى يعرفوا ما الخراج ، وما القوانين التى يجب أن يتبعها الناس فى الاراضى الجديدة ، وعلم العقائد لكى يعرفوا من المؤمن ومن الفاسق ومن الكافر بعد الفتنة الكبرى ، ومقتل على .. الخ .

● قلت : خاصية الاستجابة لتحديات العصر ، والانتصار عليها انتصارا ساحقا جعل المسلمين يرثون أكبر حضارتين كانتا تحكمان العالم القديم : الساسانية (الفرس) ، والرومانية (الغرب) .. لماذا اندثرت .. ولماذا لم تتواصل عبر الاجيال هذه الخاصية ؟ !

ـــ قال : المسلمون اليوم يعانون من عيبين ، اننا ننقل علوما قديمة نشأت فى عصر الانتصار ونحن فى عصر الهزيمة والتخلف ، نحن ندرس روحا منتصرة فى بدن مهزوم . العيب الثانى أننا ننقل علوما غربية نشأت فى بيئة وظروف تختلف عن ظروفنا وبيئتنا . وبالتالى وقفنا عاجزين مرتين .

● سألته : هل بالامكان ــ فى ظروف العصر الراهن ــ أن ننبذ كلا الاتجاهين ونبدأ نحن من أول الطريق ؟ !

ـ قال : هذا ممكن •• وفى رأيى أنه لا فرق بين من يقول • قال ابن تيمية ، ومن يقول قال كارل ماركس ، كلاهما ناقل ، كلاهما لا يرى الواقع الذى أمامه • لو نظرنا الى موقفنا الحضارى الآن ، لوجدت ثلاث جبهات فكرية • الجبهة الاولى يشكلها كل الذين يقولون قال الله وقال الرسول والذين يستشهدون بكتب التراث وينقلون عن القدماء • الجبهة الثانية يشكلها أولئك الذين ينقلون عن الغرب فاذا كان ليبراليا استشهد بأقوال جون ستيوارت ميل واذا كـــان اشتراكيا استشهد بأقوال سان سيمون وكارل ماركس واذا كان قوميا يقول : قال فيشته وقال هيجل •• الخ • وفى حقيقة الامر فان هاتين الجبهتين تعتمدان منهجا واحدا ، على الرغم من اختلاف مصادرهما • أما الجبهة الثالثة ، وهى تمثل الواقع الذى نعيشه ، فلا أحد يفكر فيها •• لانها تمثـــل الطريق الصعب •• وتقتضى أن نعرف أولا التحديات التى نواجهها ثم الحلول المثلى لهذه التحديات •• وللاسف فان أغلب مفكرينـــا يلجأون للطريق الاسهل ألا وهو الاحتماء بالثقافة والحضارة • الاول لاثبات الهوية وأنه مسلم ، والثانى لاثبات العصرنة والحداثة •• والواقع ضائع بينهما •

● سألت : بصفتك واحدا من هؤلاء المفكرين ما هى — فى رأيك — التحديات التى نواجهها اليوم كمسلمين وعرب •• وأيضا كمصريين.؟

أجاب : لو كان الامر بيدى لامرت المعلمين أن يلقنوا أولادنا فى الكتاتيب والمدارس الابتدائية أن التحديات التى نواجهها سبعة :

أولا — تحرير الارض :

فمازالت قضية الاراضى المحتلة تشغل بال الجميع ، سواء كان ذلك عن وعى أو لا وعى ، وتأتى فى المقدمة طبعا فلسطين . هنـاك الضفة الغربية والقدس وغزة ومناطق محتلة فى المغرب مثل مدينتى سبتة ومليلة اللتين مازالت اسبانيا تحتلهما منذ القرن السادس عشر ، وكشمير فى الهند ، وأفغانستان .. فالاحتلال أنواع .. قد يكون عن طريق قواعد عسكرية أو أحلاف .. أو قوات عسكرية تحتل الاراضى .. نحن مازلنا فى نهاية العصر الاستعمارى والكشوف الجغرافية ، ومازلنا نعانى من الحروب الصليبية القديمة . والقرآن الكريم يقول لنا : اله السموات والارض ، وهو الذى فى السماء اله وفى الارض اله .. فالله والارض شىء واحد فى القرآن الكريم ، والمؤمن الذى لا يدافع عن الارض يكون ايمانه فارغا .

ثانيا — قضية الحرية والقهر :

فليس من المعقول أننا مازلنا الى اليوم لا تشغلنا سوى قضـية الحريات ، وقوانين الطوارىء ، وحق التعبير ، والصحافة الحـرة . وليس من المعقول أن نترك الامم المتحدة ترسل لجانا لتقرر أن العالم الاسلامى العربى به أكبر عدد من المسجونين السياسيين .. نحن نقول فى الاسلام ان الساكت عن الحق شيطان أخرس .. وقد أمرنا بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر .. حتى عبارة لا اله الا الله تبدأ بالنفى . انها تنفى الالوهية عن كل الآلهة المزيفة .. ولا تعطيها الا لله الواحد الحق الذى يتساوى أمامه الجميع .. رب البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .. أي أن الله هو الخبز .. وهو الحرية .

ثالثا — قضية العدالة الاجتماعية :

الامة الاسلامية اليوم يضرب بها المثل •• ففيها أغنى أغنياء العالم •• وفيها أيضا الملايين الذين يموتون قحطا وجوعا •• فى تشاد وأثيوبيا •• ألخ ، هذا مع أن القرآن الكريم يقول لنا أن المجتمعات تنهار بسبب « بئر معطلة وقصر مشيد » أى أن مصالح الناس تكون معطلة بينما الاثرياء يبنون القصور • مرتبط بهذه القضية ما نعانيه فى المجتمعات الاسلامية من غلاء فاحش ، وتضخم ، وتدخل البنك الدولى بشروطه المجحفة ، تهريب الأموال •• وشركات توظيف الاموال •• وهى قضايا تشغل بال كل انسان •• ويفكر فيها ليلا ونهارا •• مع أن حلها اسلاميا سهل •• فالقرآن يقول « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » غير الزكاة •

رابعا — قضية التجزئة :

وهى تقطيع أوصال العالم الاسلامى • فمن هنا تبدأ أغلب مشاكلنا• زمان كان الانسان المسلم يأخذ جمله أو راحلته فيذهب الى خوراسان ، فلا يستوقفه أحد على الحدود ، ويطالبه بتأشيرة الدخول ، أو يشك فى كونه ارهابيا •• الخ ، وقد يستقر ويتزوج ويصبح قاضيا •• مثل ابن بطوطة الذى غادر الاندلس الى المغرب ثم الى جزر المالديف وهناك عين قاضيا •• ! فالعالم الاسلامى لا تشطره الحدود السياسية التى افتعلها الاستعمار المغربى فقط ، بل هناك الطائفية •• التى يستغلها أعداؤه جيدا فيشعلون الفتن بين الشيعة والسنة ، والدروز والموازنة والبربر والاكراد •• الخ ، ثم زرعت اسرائيل فى قلبه لتقطيع الاواصر •• ومنذ سقوط الخلافة مازال سؤال يتردد عبثا : هل نحن

عرب أم نحن مسلمون ؟ هل نبدأ بالوحدة العربية أم بالوحدة الاسلامية؟ والحل هنا سهل أيضا .. وموجود فى القرآن « الهكم اله واحد وأنا ربكم فاعبدون » اله واحد ، وفكر واحد ، وقضية واحدة .. الخ .

خامسا — قضية التنمية والتخلف :

فهل من المعقول أن نزعم أننا خير أمة أخرجت للناس .. ثم يأتى الناس الى بلادنا ليشاهدوا التخلف فى كل جانب من حياتنا .. فى الخدمات والمواصلات والمجارى والمستشفيات .. الخ ؟ ويأتى الخبراء الاجانب ليساعدونا على التغلب على مشكلاتنا العديدة والعويصة كأننا عاجزون عن حلها عن طريق أبنية اجتماعية واقتصادية وسياسية ومؤسسات تدل بالفعل على أن لدينا فكرا قادرا على مجابهة تلك التحديات .

سادسا — قضية الهوية .. والتغريب :

هذا الهجوم الكاسح للمصطلحات والعبارات الغربية حتى فى المواقع التى تدعى انتماءها للاسلام : مثل البوتيك والشوبنج سنتر والسوبر ماركت والتيك أواى .. الخ . أتذكر زمان ونحن طلبة أننا عندما كنا نقوم بالمظاهرات ضد الانجليز قبل ثورة ١٩٥٢ ، كنا نذهب الى المحلات ونحرق لافتات الدعايات الاجنبية مثل الكوكاكولا وغيرها .

سابعا — قضية تعبئة الشعب وتجنيد الجماهير :

نحن الآن ألف مليون مسلم .. ومع ذلك عاجزون عن الوقوف أمام ثلاثة ملايين يهودى !! فى أى حرب يستطيعون تعبئة مليون تحت

السلاح فورا ، ونحن مائتا مليون عربى لا نستطيع أن نعبىء منهم نصف مليون •• كان الافغانى يقول : والله لو كان المسلمون ذبابا وحط فوق الجزيرة البريطانية لاغرقها •• لو كانوا جرادا وفرشوا أرض الغرب لالتهموها •• وهكذا •• والتحدى الذى يواجهنا اليوم : كيف نستغل هذه الثروة البشرية فى غزو الصحراء وتعميرها وتوسيع الرقعة الزراعية •• على العكس من ذلك نحن ننفق الملايين فى محاولة يائسة وفاشلة لاقناع الشعب بتحديد نسله !

● قلت : أنت الآن حددت التحديات الاساسية التى تواجه العالم الاسلامى — العربى من وجهة نظرك •• وقلت أن الحلول الاسلامية لها سهلة ميسرة •• ومع ذلك نجد الساحة السياسية تموج بتيارات متصارعة ، حتى بين الاسلاميين أنفسهم •• وكل فئة ترى أنها وحدها القادرة على الحل •

قال : من يرد أن يحرر فلسطين باسم الله فليتفضل •• ومن يريد أن يحررها باسم الحرية فليتفضل •• ومن يرى أن البروليتاريا العالمية هى التى ستحررها فليتفضل •• ومن سيرفع لواء القومية والناصرية والاشتراكية ليحرربها فلسطين •• أهلا وسهلا •• أن تعدد الاطر النظرية ممكن ، أما برنامج العمل الوطنى فلابد أن يكون واحدا • ومن رأيى أن التيارات السياسية التى تعبر عنها الاحزاب الحالية يمكنها أن تتفق جميعا على برنامج عمل وطنى موحد لمجابهة هذه التحديات الرئيسية للعصر •• وذلك باحترام تعدد الاطر النظرية •

● قلت : ألا يبدو كلامك هذا متفائلا •• أكثر من اللازم ؟

أجاب : نعم أنا متفائل .. ولكن هناك شرطان أولهما : لابد ان نتعلم احترام الرأى الآخر .. أن نكون كما يريد لنا القرآن الكريم : أشداء على الكفار ، رحماء بيننا .. للأسف نحن عكس هذا تماما .. أمام الامريكى أو الروسى أو الفرنسى أو اليابانى نذوب رقة وتساهلا .. أما فيما بيننا فالتكفير والاتهامبالخيانة والاغتيال و ... الخ ، مع أن الشافعى وهو أحد الائمة المسلمين كان يقول : رأيى صواب يحتمل الخطأ ، ورأيك خطأ يحتمل الصواب ، فلماذا لا يكون هذا شعارنا .. ؟ الشرط الثانى : لابد من الوحدة الوطنية بين أفراد الوطن جميعا فللأسف عددنا فى مصر اليوم يفوق الخمسين مليون مواطن ولكن كم منهم يعمل باخلاص وينتج بالفعل ؟ ! كم من هذه الملايين الخمسين يشعر بالانتماء الحقيقى لمصر .. ؟ ! أنا أرى أن المشاكل التى تواجه مصر الآن ليست عويصة ، بل يمكن حلها .. ولكن مع شىء من الاصرار والاخلاص والشعور بالانتماء .. الخ .

● قلت : ألا تشعر معى أن هذا خطأ المثقفين .. وأنهم لم يقوموا بدورهم — عن طريق الادب أو الفن أو الاعلام .. الخ — فى اذكاء ذلك الشعور القومى وتلك الروح الجماعية ؟ !

قال : المثقفون أنواع : هناك من يشحذون كل هممهم لتبرير النظم القائمة ، وبالتالى يفقدون دورهم فى النقد وفى الريادة وهناك من يختار الهجرة والعمل فى الخارج ويعيش بلا وطن ، ومن يبقى فى الداخل متسلحا بالصمت ، ويصاب باليأس والاحباط وينعى حظه وقد يموت مكتئبا .

● قلت : ألا تتعارض هذه الصورة القاتمة لوضع المثقفين فى

العالم العربى مع تفاؤلك السابق ؟ ! أليس هناك من حل لازمة المثقف العربى هذه ؟ !

قال : هناك .. حل .. وسهل جدا(١) .

● قلت : أنت ترى أن المثقفين العرب عامة ، والمصريين بالذات ،

---

(١) وقد أنهت اقبال بركة الحلقة الاولى بالعبارة الآتية :

فالى الاسبوع القادم لنناقش مع د. حسن حنفى الاستاذ الجامعى الذى فصل من الجامعة مرة بسبب تعارض آرائه مع السلطة الحاكمة . ازمة المثقف العربى وقضايا أخرى عديدة .

وقد صدرت الحلقة الثانية بالفقرة الآتية :

مثل الفارس القديم ينطلق الدكتور حسن حنفى على ظهر فرس عربى اسلامى ، فوق مضمار مهدته الليبرالية (حرية التعبير واحترام الرأى الآخر) ليجتاز حواجز سبعة ، ويحقق نهضة شاملة للشعوب العربية يفوز فيها بجوائز الاشتراكية والوحدة العربية .

ويرى أستاذ الفلسفة الاسلامية بجامعة القاهرة انه لكى يبنى شعب ما حضارته ، لابد أن يستجيب لتحديات العصر ، وأن يبدع حلولا جديدة غير منقولة عن الاجداد (فهم رجال ونحن رجال) ولا عن حضارات أخرى (لهم ظروفهم ولنا ظروفنا) مع عدم تجاهل ما أنجزته الحضارة البشرية حتى اليوم . وفى مصر لا يفترق المسلم عن المسيحى عن اليهودى فى انهم جميعا : مصرى المولد ، عربى اللسان ، اسلامى الثقافة . فالاسلام ليس عقيدة دينية فحسب وانما هو ثقافة شاملة ومخزون نفسى وتراث شعبى متأصل .

ويرى الدكتور حسن حنفى أن الشعوب الاسلامية العربية لابد كى تنهض من عثرتها وتعيد بناء حضارتها الاسلامية أو تواجه أولا التحديات التى تعوقها وهى سبعة : قضية تحرير الارض ، قضية الحرية والقهر ، قضية العدالة الاجتماعية وتوزيع الثروات ، قضية الوحدة بين هذه الشعوب ، قضية التنمية والتخلف ، قضية الهوية ومقاومة التغريب ، وأخيرا قضية التعبئة واستغلال الثروة البشرية .

يعيشون أزمة خانقة تؤدى ببعضهم الى الهجرة خارج البلاد أو الى الصمت داخلها ثم الاصابة بالاكتئاب وأخيرا الموت كمدا .. ألا يوجد حل لهذه المشكلة ؟

— قال : هناك حل ميسر .. وهو ما اخترته لنفسى .. أن أكون مثقفا رائدا مفكرا .. يعترف بامكانية التعبير بحرية عن رأيه دون أن ينضم الى تنظيمات سرية أو يخرج عن اطار الشرعية فيرد الفكــرة بالفكرة ، والرأى بالرأى ، والبرهان بالحجة .. وهناك منابر عديدة تتيح لنا ابداء الرأى من خلال الجامعة والصحافة والجمعيات العلمية والثقافية .. وأتحدى الجميع .. فى أنه اذا كان هناك رأى أصوب من رأيى ، أو اتجاه أعمق ، فأنا أول من ينتمى اليه .. وأنا أعرض هذا بروح البحث الحر .. وباحترام كامل للرأى الآخر . بالحوار الوطنى يمكن لكل التيارات الفكرية ولكل الاحزاب السياسية أن تقدم حلولها لتلك التحديات .

● قلت : من المعروف أن لكل حزب سياسى استراتيجيته العامة وأهدافه المحددة ، وقد أوضحوا ذلك فى المعركة الانتخابية الماضية ، ومع ذلك لا نجد من رجل الشارع اقبالا على الانضمام للاحزاب أو المشاركة فى الحياة السياسية .. حتى التصويت فى الانتخابات يضن به الكثيرون على المرشحين .

— قال : احدى مآسينا أن المؤسسات الموجودة بمصر ، تعليمية أو سياسية أو دينية أو ثقافية ، لا تعبر عن واقع الشارع المصرى . فالشارع المصرى به أربع قوى رئيسية وكلها غير ممثلة فى تنظيماتنا

النيابية ولا فى صحافتنا ولا فى جامعاتنا ولا فى أى شىء •• أول هذه القوى الشعبية أو التيارات هو التيار الاسلامى • وأذكر أن الجامعات قبل الثورة كانت تموج بالحركة الاسلامية وكان أغلب المنتخبين فى اتحادات الطلاب من شباب الاخوان المسلمين •• كان يكفى أن يقف طالب فى الحرم الجامعى وينادى لا اله الا الله •• حى على الكفاح حتى يتجمع آلاف الطلبة وتقوم المظاهرات ضد الانجليز وضد القصر • ان التيار الاسلامى فى مصر قديم منذ أيام الحزب الوطنى ومصطفى كامل وجمال الدين الافغانى •• كل الزعماء الوطنيون كانوا اسلاميين • سعد زغلول كان من تلاميذ الشيخ الامام محمد عبده ، وعبد الناصر كان عضوا فى الاخوان المسلمين •

● قلت : واليوم وجد ما يسمى بالتحالف الاسلامى بين هـذا التيار الذى نتحدث عنه وحزبين سياسيين رسميين •

— قال : طالما أن مقر الاخوان المسلمين لم يعد اليهم •• وانه من غير المسموح لهم رسميا اقامة تنظيم خاص بهم وعلنى فلا فائدة •• ليس مهما أن يسمى هذا الحزب بالاخوان المسلمين فليكن له اسم آخر •• المهم أن يعبر عن ذلك التيار الشعبى العارم بين صـفوف الشعب المصرى •• وفى هذه الحالة ستنضم اليه كل القوى الاسلامية والفصائل المتعددة •• وسيكون له أجنحة •• ويمكن لما يسمى بالتطرف أن يجد محاور على نفس الارضية من داخله •• وتنشأ تيارات داخل الحركة الاسلامية •• تيار وسط كبير ، وتيار تقدمى ، وتيار يسارى •• الخ • وهكذا تصبح الحركة الاسلامية شرعية ، فتتقدم للانتخابات النيابية ولاتحادات الطلبة باسمها • هذه الحركة موجودة فى الشارع

المصرى وتسيطر عليه وتقوم باحداث عديدة فى الصعيد ، وهى المستهدفة من قانون الطوارىء •• والكل يعلم ذلك •• والكل صامت ولا يريد أن يعترف بها •• وهكذا نجد أن المنضم للحركة الاسلامية عرضة للمطاردة ، ولدخول السجن وللاضطهاد •• فهو ليس مقاطعا للحياة السياسية وانما العكس صحيح •

● قلت : قد يكون هذا التيار الاعلى صوتا والاكثر تحركا ••• ولكن بالقطع هناك تيارات أخرى فى الشارع المصرى ••

— قال :نعم •• الناصريون •• هؤلاء هم الذين أسسوا مصر الحديثة ، كل ما يعيش فى ظله اليوم المواطن المصرى الكادح من اصلاح زراعى ومجانيــة التعليم وعدم الانحياز والتصنيع والســد العالى والقومية العربية •• الخ هؤلاء الذين يمثلون مشروع عبد الناصر ، الذى هو امتداد وتكرار لمشروع محمد على الكبير •• بالطبع يوجد بينهم أجنحة : يمين أو محافظ ووسط ويسار •• ولكن مازال ما يسمى بالناصريين أو ثورة مصر •• غير ممثل فى أجهزتنــا أو صحافتنا أو مؤسساتنا •• الخ • أما التيار الثالث فهو تيار الليبراليين •• أولئك الذين كانوا يحكمون مصر قبل ثورة يوليو ٥٢ •• هؤلاء أسسوا أول برلمان فى المنطقة ، وأرسوا دعائم النظام الليبرالى ، وتعدد الاحزاب والمجلس النيابى ولهم تاريخهم العريق ، وكم من مرة قــام نواب الشعب ضد الانجليز ، وضد استبداد القصر وقدموا مشاريع كالاصلاح الزراعى ودافعوا عن حرية الصحافة •• الخ • التيار الرابع فى الشارع المصرى ، وغير الممثل فى حياتنا السياسية هو تيار الماركسيين المصريين ، الذين بدءوا كفاحهم منذ أوائل هذا القرن •

● قلت : هذه التيارات التى ذكرتها جميعا : الاسلامية والناصرية والليبرالية والماركسية موجودة فى الاحزاب الرسمية •• ولهم ممثلوهم فى مجلس الشعب أيضا •

— قال : تمثيلهم ليس بالقدر الكافى ولا يمثل نسبتهم العددية ، ووجودهم داخل الاحزاب يحدث بأسلوب ملتف وغير مباشر • فى رأيى لو أن هذه التيارات الحقيقية مثلت بتنظيمات شرعية فيكون هناك الحزب الاسلامى ، والحزب الناصرى ، والحزب الماركسى ، والحزب الليبرالى •• ويكون لكل تنظيم منهم جريدته اليومية ومجلته الاسبوعية ودورياته واجتماعاته المنتظمة •• وأن يتم بينهم جميعا حوار وطنى ، يحترم فيه كل تيار الرأى الآخر ولا يرد الا بالرأى أو الحجة ، وينشغلوا جميعا فى البحث عن حلول لتلك التحديات السبعة الرئيسية التى ذكرناها من قبل فان الصورة ستتضح أمام المواطن المصرى •• وسيعرف بالضبط هويته ، وسيختار عن طواعية الحزب الذى ينضم اليه ويشارك فى الحياة السياسية من خلاله ويناضل من أجل تحقيق أهدافه •• لو حدث هذا فانى أتوقع فى ظرف سنوات قليلة أن يحدث تغيير جذرى فى مصر ويبدأ الشعب المصرى نهضته الحقيقية •

● قلت : هذه التيارات الرئيسية الاربعة التى ذكرتها (الاسلامى ، الناصرى ، الليبرالى ، الماركسى) قد لا تحتضنها تنظيمات حزبية خاصة بها ، ولكنها بالقطع موجودة فى الاحزاب الاخرى ، بل ان الصراع دائر على أشده بين ممثليها على صفحات الجرائد الحزبية : فالناصرى سواء كان فى الحزب الوطنى أو التجمع أو العمل ينشغل بالرد على الهجوم الضارى من الوفدى على كل منجزات ثورة يوليو •

والاسلامى لا هم له سوى تفنيد حجج الماركسى وشن حرب شعواء على كل ما يمت للشيوعية بصلة .. وحزب الوفد (المفروض أنه يمثل الليبرالية) لم يعد يرى فى الكون خطيئة أو رذيلة الا ونسبها لعبد الناصر وثورة يوليو .. وهكذا .

ـ قال : هناك قاسم مشترك أعظم بين هذه التيارات والحزب الحاكم ، وهى أن الكل يتصور أنه الوريث الوحيد للسلطة ، وانه صاحب الحق الأوحد فى المستقبل .. انهم يتصورون أن التغيير الذى يسعون لاحداثه لن يتم الا عن طريق السلطة ، وهذا غير حقيقى فكثير من التجارب السياسية انتشرت أولا بين صفوف الشعب عن طريق الجمعيات والاتحادات واللقاءات الشعبية . الافغانى مثلا لم يكن لديه حزب سياسى ولا أمسك يوما بأى سلطة بل كان مطرودا من مصر والسودان ومن ايران وأفغانستان وكان مضطهدا .. ومع ذلك كان يحرك العالم الاسلامى .. من حقهم جميعا أن يسعوا للوصول الى الحكم ولكن لابد من أن يسود بينهم احترام الرأى الآخر وأن يدور الحوار الوطنى حول التحديات الرئيسية . وعن طريق الانتخابات الحرة النزيهة فليأت من يأت ، محمولا على الاعناق .. ولكن ليس عن طريق انتخابات مزورة ، ولا عن انقلاب .

● قلت : الصورة فى ذهنك اذن أن الركود السياسى الذى يعانى منه شعبنا يرجع الى عدم وضوح الرؤية لديه .. فهناك أحزاب ولكنها لا تعبر عن التيارات الشعبية الحقيقية ، وهناك تحديات أساسية ومع ذلك لا يبدو واضحا سياسة كل حزب فى مجابهتها . هل من أجل هذا مازال د. حسن حنفى خارج الاحزاب جميعا ؟ وهل يمكن للمثقف

الفرد أن يكون جبهة وحده ؟ ثم ما موقعك بالضبط من الحركة السياسية الثقافية ؟

— قال : أنا فى موقع القلب . فى تصورى أن مصر طائر ذيله فى الليبرالية (أى ماضيه) ورأسه فى الثورة المصرية (أى مستقبله) وجناحاه أحدهما الحركة الاسلامية والثانى الماركسية الوطنية المصرية .. ولن يقوم الطائر أو ينطلق ويحلق فى الفضاء الا برأس وذيل وجناحين .. بدون الذيل لن يستطيع الطائر أن يقوم وبدون الرأس سيفقد اتجاهه وبدون الجناح الايمن سينحرف يسارا وبدون الجناح الايسر سينحرف يمينا . لن تنهض مصر الا بهذه القوى الاربعة . أنا شخصيا بدأت كاسلامى وانضممت لحركة الاخوان المسلمين ، وعندما اشتعلت الثورة المصرية فى ١٩٥٢ أيدتها وأيدت اتجاهها نحو الوحدة ونحو الثورة الاشتراكية ، لكن هذا لم يحرمنى من اتجاهى الليبرالى ، وايمانى بحرية الفكر ، وتعاطفى مع الحركة الماركسية التى تسعى لحل مشكلة الفقر والفوارق بين الطبقات . أعتبر نفسى فى موقف فريد ، فأنا قادر على عقد الحوار الوطنى بين هذه التيارات الاربعة ، لاننى مؤمن بها جميعا فأنا اسلامى الاتجاه ، معتزلى أؤمن بحرية الفكر وفى نفس الوقت أؤمن بالاشتراكية والناصرية القومية . من أجل هذا قمت باصدار مجلة « اليسار الاسلامى » .

● قلت : ولكن كل التيارات التى تحدثت عنها لديها جرائدها ومجلاتها التى تعبر عن أفكارها بل هناك أيضا مجلة تعبر عن اليسار الاسلامى ويرأس تحريرها د. محمد خلف الله وهى مجلة « اليقظة العربية » .

ـــ قال : مشكلة أغلب التيارات الفكرية أنها تعرف تماما ماذا تقول ، ولكنها قد لا تعرف دائما كيف تقوله . والمجلات والجرائد التى تحدثت عنها تعبر عن وجهة نظر واحدة ولكنى أحب أن أجمعها فى بوتقة واحدة . اننى أؤمن بوجود التحديات الرئيسية السبعة وهى : تحرير الارض العربية الاسلامية ، وقضية الحرية وحقوق الانسان ، وقضية العدالة الاجتماعية ، وقضية الوحدة ، وقضية التنمية ، وقضية الهوية ، وأخيرا الثروة البشرية وتعبئة الشعب . لابد أن تكون هـذه التحديات السبعة محور الحوار الوطنى بين كل التيارات الفكرية : الاسلامية أو العلمانية أو الليبرالية أو الاشتراكية الناصرية القومية .. المهم أنى أرى ضرورة استخدام الاسلام كثقافة شعبية وكمخزون نفسى فى القلوب . ونحن نرى كيف يتبع الناس كل الذين يستخدمون الاسلام كطريق الى قلوب الجماهير مثل الشيخ الغزالى والشـيخ متولى الشعراوى وخالد محمد خالد .. الخ .

● قلت : ألا ترى أن منهجك هذا يبدو كما لو كان جمعـنا بين المتناقضات ؟ !

ـــ قال : أنا أعرف بالضبط نقاط الخلاف بين هذه التيارات ونقاط الاتفاق ، فالحركة الاسلامية تعرف كيف تصل الى قلوب الجماهير ، لكن بلا مضمون .. بينما العلمانيون لديهم المضمون لكنهم لا يعرفون كيف يتغلغلون الى وجدان الشعب . انهم يطالبون بالاشتراكية والحرية والقومية .. الخ ، الا انهم غير قادرين على تجميع الجماهير حول هذه الاهداف ، الصراع الموجود حاليا بين القوى المختلفة هو صراع الاخوة الاعداء ، وسببه أن كلا منهم يرى نفسه الوحيد الذى من حقه

أن ينفرد بالساحة السياسية ويطبق شعاراته أى أنه الوريث الشرعى الوحيد لمصر •• فاذا وجد من لا يطالب بحقه فى الميراث ، ولا يسعى لاى سلطة وانما يهدف الى التوفيق بين الآراء بقدر الامكان ، أمكن الى حد كبير الاقتراب من تحقيق الوحدة الوطنية والقضـــاء على الازدواجية •

● قلت : هناك من يرى أن رفض المفكر أو الكاتب الانضمام لاى حزب سياسى والعمل فى اطار حركة سياسية محددة هو نوع من السلبية أو التهرب من المسئولية ، وأنك بذلك تفقد منبرا قوية تتوجه منه الى الجماهير ، ومظلة تحميك من التعسف السلطوى اذا حدث •

ــ قال المفكر الذى حرم من التدريس لطلبته مرة بسبب آرائه المعلنة ضد النظام الحاكم ، والذى كان واحدا من ضحايا سبتمبر ٨١ ضد المثقفين المصريين : الكاتب الحر لديه مقالاته ينشرها ويعلن فيها رأيه •• لديه محاضراته فى الجامعة يعلن فيها عن وجهة نظره مدعمة بالحجة والبرهان • هناك أيضا الندوات الثقافية التى أدعى اليهـــا وأتوجه للجماهير من خلالها • وهناك الجمعيات العلمية التى أنتمى اليها وأقوم بنشاطى الثقـــافى من خلالها • لقد فعلت هذا طـــوال السبعينات ، ولعلى أسرفت فى كتابة المقالات التى تعالج الحاضر وتقترح الحلول للقضايا التى تواجهنا حتى أننى تعطلت عن نشر أبحاثى العلمية لفترة • وعلى مدى ثلاثين عاما هى حياتى العملية لم أكف لحظة عن المشاركة بالرأى فى كل مناسبة أتيحت لى ليس فى مصر وحدها وانما فى أغلب الدول العربية والاسلامية • قضيتى اننى عالم يسعى الى تأصيل ما فى حياتنا المعاصرة من أفكار ، والى اعادة كتابة العـــلوم

القديمة حتى أعيد بناء الروح من جديد فى عصر الهزيمة ، وقد نشرت الكثير من الكتابات فى هذا التيار • أنا لا أتعامل مع أنظمة ولا دول ولا أحزاب • لقد كتب كارل ماركس مقالات كثيرة ولكن لا يذكرها أحد ؛ وعندما عكف خمسة عشر عاما فى المتحف البريطانى على اعادة دراسة الاقتصاد نتجت نظرية فائض القيمة ، والصلة بين السلعة والاجر •• الخ ، وكما قيل فانه استطاع أن يغير وجه العالم كله •

● سألت : هل يعنى ذلك أنك ستصبح عالما ، الى جانب تخصصك فى الفلسفة الاسلامية ؟

— أجاب : رأس المال عندنا فى البلاد النامية هو دراسة الثقافة الوطنية ، أى دراسة الدين كمخزون نفسى فى كل البلاد • لو كنت فى مجتمع صناعى مثل ذلك الذى عاش فيه كارل ماركس فى القرن التاسع عشر ، ربما كنت اتجهت لدراسة المجتمع الصناعى • نحن نعيش اليوم فى مجتمع ما قبل التصنيع ، وفى مثل هذا المجتمع تلعب الثقافة الوطنية والموروث الدينى دورا هاما ، فالعكوف على دراستهما وتأصيلهما علميا لا يقل أهمية بحال عما قام به كارل ماركس فى القرن التاسع عشر • المهم ألا نتنازل مطلقا عن العلم ، وعن الاسلوب العلمى فى التفكير والعمل •• وبذلك يمكن للمثقف العربى أن يبدأ فى تغيير مسار التاريخ •

فهرس الموضوعات
اليسار الاسلامى والوحدة الوطنية

لنفس المؤلف

اولا — تحقيق وتقديم وتعليق :

١ — أبو الحسين البصرى : المعتمد فى أصول الفقه ، جزءان ، المعهد الفرنسى بدمشق ١٩٦٣ — ١٩٦٥ .

٢ — الحكومة الاسلامية للامام الخمينى ، القاهرة ١٩٧٩ .

٣ — جهاد النفس او الجهاد الاكبر للامام الخمينى ، القاهرة ١٩٨٠ .

ثانيا — اعداد واشراف ونشر :

١ — اليسار الاسلامى ، كتابات فى النهضة الاسلامية ، العدد الاول ، المركز العربى للبحث والنشر ، القاهرة ١٩٨١ .

ثالثا — ترجمة وتقديم وتعليق :

١ — نماذج من الفلسفة المسيحية (المعلم لاوغسطين ، الايمان باحثا عن العقل لانسليم ، الوجود والماهية لتوما الاكوينى) ، الطبعة الاولى ، دار الكتب الجامعية ، الاسكندرية ١٩٦٨ ، الطبعة الثانية ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٨ ، الطبعة الثالثة ، دار التنوير ، بيروت ١٩٨١ .

٢ — **اسبينوزا** : رسالة فى اللاهوت والسياسة ، الطبعة الاولى ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، الطبعة الثانية ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، الطبعة الثالثة ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٨١ .

٣ — **لسنج** : تربية الجنس البشرى واعمال اخرى ، الطبعة الاولى ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ١٩٧٧ ، الطبعة الثانية ، دار التنوير ، بيروت ١٩٨١ .

٤ — **جان بول سارتر** : تعالى الانا موجود ، الطبعة الاولى ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ١٩٧٧ ، الطبعة الثانية ، دار التنوير بيروت ، ١٩٨٢ .

رابعا — مؤلفات بالعربية :

١ — قضايا معاصرة ، الجزء الاول ، فى فكرنا المعاصر ، الطبعة الاولى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٧٦ ، الطبعة الثانية ، دار التنوير ، بيروت ، ١٩٨١ ، الطبعة الثالثة ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٨٧ .

٢ — قضايا معاصرة ، الجزء الثانى ، فى الفكر الغربى المعاصر ، الطبعة الاولى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٧٧ ، الطبعة

الثانية ، دار التنوير ، بيروت ١٩٨٢ ، الطبعة الثالثة ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٨٨ .

٣ — التراث والتجديد ، موقفنا من التراث القديم ، الطبعة الاولى المركز العربى للبحث والنشر ، القاهرة ١٩٨٠ ، الطبعة الثانية دار التنوير ، بيروت ١٩٨١ ، الطبعة الثالثة ، الانجلو المصرية القاهرة ١٩٨٧ .

٤ — دراسات اسلامية ، الطبعة الاولى ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨١ ، الطبعة الثانية ، دار التنوير ، بيروت ، ١٩٨٢ .

٥ — من العقيدة الى الثورة ، محاولة لاعادة بناء علم اصول الدين (خمسة مجلدات) الطبعة الاولى ، مدبولى ، القاهرة ١٩٨٨ .

٦ — دراسات فلسفية ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٨ .

خامسا — مؤلفات بالفرنسية والانجليزية :

1 — Les Méthodes d'Exégèse essai sur la. science des fondements de ta Compréhension, ilm usul al-Fiqh, Le Caire, 1965.

2 — L'exégèse de la phénoménologie, l'Etat actuel de la méthode phénoménologique, et son application au phénomène religieux (paris ,1965). Le Caire, 1980.

3 — La Phénoménologiqeu, de l'Exégèse essai d'une herméneutique existentielle à partir du Nouveau Testament, (Paris 1966), Le Caire, 198 8(sous-press).

4 — Religious Dialogue and Revolution, essays on Judaism, Christianity an dIslam, Anglo-Egyption Bookshop, Cairo, 1977.

5 — Dialogue Religieux et Révolution Vol. II, Anglo-Egyption Bookshop, Le Caire 1988 (sous-press).

6 — Religion, Ideology and Development, Anglo-Egyption Bookshop, Cairo, 1989 (In print).

tdus

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٨٩/٥٤٨٥
٩٧٧ — ١٣٣ — ١٣٤ — ٥
دار النمر للطباعة

الدين والثورة
في مصر
١٩٥٢ - ١٩٨١

١ - الدين والثقافة الوطنية

٢- الدين والتحرر الثقافي

٣- الدين والنضال الوطني

٤- الدين والتنمية القومية

٥- الحركات الدينية المعاصرة

٦- الأصولية الإسلامية

٧- اليمين واليسار في الفكر الديني

٨- اليسار الإسلامي والوحدة الوطنية

مكتبة مدبولي
٦ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ت : ٧٥٦٤٢١

طبع الغلاف بالمطبعة الفنية ت ٣٩١١٨٦٢